مقارنة الأديان ، أديان الهند

الدكتور أحمد الشلبي

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الكتاب: مقارنة الأديان ، أديان الهند
المؤلف: الدكتور أحمد الشلبي
الجزء:
الوفاة: معاصر
المجموعة: مصادر عقائد أهل الكتاب وردودها
تحقيق:
الطبعة: الثالثة
سنة الطبع: ١٩٧٢ م
المطبعة:
الناشر:
ردمك:
المصدر:
ملاحظات:

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الفهرست

العنوان	الصفحة
مقدمة الطبعة الأولى	١٣
مقدمة الطبعة الثانية والثالثة	١٦
الهند لمحة عن جغرافية الهند	١٩
سكان الهند	٢٢
اللغات في الهند	٢٦
الأديان في الهند:	٢٨
عبادة البقرة	٢٩
الآلهة من الظواهر الطبيعية	٣٤
الهندوسية مقدمة	٣٩
مؤسس الهندوسية	٣٩
الويدا	٤١
نماذج من الويدا	٤٤
الله في التفكير الهندوسي	٤٧
دين المنبوذين	٥٣
الطبقات في الفكر الهندوسي	٥٤
أهم العقائد الهندوسية:	٦١
١ – الكارما	٦١
٢ – تناسخ الأرواح	٦٣
٣ – الانطلاق	٦٦
٤ – وحدة الوجود	٦٦
من صور الأخلاق عند الهندوسيين	٦٩
نماذج من الفقه الهندوسي	٧٢
تعريف بالكتب المقدسة لدى الهندوس:	٧٥
مهابهارتا	٧٧
كيتا	٨١
يوجاواسستها	٨٩
رامايانا	٩٣
لمحة تاريخية عن الديانة الهندوسية	٩٥
الهندوسية في الميزان	١٠٢
الجينية القرن السادس قبل الميلاد	١٠٧
النشاط الفكري بالهند	١٠٧
منشأ الجينية والبوذية	١٠٨
مهاويرا زعيم الجينية:	١٠٩

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

بيت مهاويرا وولادته ونشأته ١٠٩
ترهب مهاويرا ودعوته ١١١
جينا الرابع والعشرون ١١٣
عقائد الجينية: ١١٣
الجينية والإله ١١٤
الكارما والتناسخ ١١٦
الحسنة والسيئة ١١٧
النجاة وسبل الوصول إليها ١١٧
العرى والانتحار في الجينية ١١٩
فلسفة الجينية من كتبهم المقدسة: ١٢١
اليواقيت الثلاثة ١٢٢
المبادئ الأساسية لطهارة الروح ١٢٣
درجات العلم في الفلسفة الجينية ١٢٤
لمحة تاريخية عن الجينية ١٢٦
البوذية بيت بوذا وحياته: ١٣٧
مولده ونشأته ١٣٧
أفكار سذهاتا وفلسفته ١٣٨
غوتاما في تقشفه ١٤١
الإشراقة والكشف عن الأسرار ١٤٢
الدعوة للبوذية وإعداد دعاتها ١٤٦
نجاح بوذا وانتشار البوذية ١٤٩
وفاة بوذا ١٥٠
أخلاق بوذا ١٥٦
من أقوال بوذا: ١٥٦
(أ) ناموس الطبيعة ودورنا معه ١٥٦
(ب) في التناسخ ١٥٧
(ج) نار الشهوة وكيف تطفأ ١٥٨
النرفانا: ١٥٨
فلسفة البوذية ١٦٢
الله في التفكير البوذي ١٦٦
من فلسفة اليوجا ١٦٩
اليوجا خدعة للمسلم ١٧٠
تعاليم البوذية: ١٧٠
١ – هل البوذية دين أو فلسفة ١٧٠
٢ – لا عقائد بل عمل ١٧١
٣ – أخلاق الجماعة البوذية ١٧٢
٤ – فلسفة الثروة عند بوذا ١٧٣

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

٥ – الغاء الطبقات ١٧٤
٦ – المرأة والبوذية ١٧٥
لمحة تاريخية عن البوذية: ١٧٦
(أ) تطور البوذية الفكري والفلسفي ١٧٦
(ب) انتشار البوذية ١٧٨
الملك آسوكا وانتشار البوذية ١٨٠
مراحل انتشار البوذية ١٨٣
الجيل الجديد بين البوذية والفراغ والمسيحية ١٨٦
الكتب المقدسة لدى البوذيين ١٩٢
دراسات مقارنة بين أديان الهند ١٩٤
أديان الهند في قالميزان ١٩٥
البوذية مصدر مهم من مصادر المسيحية ٢٠٣
قضية الألوهية نموذج للمقارنة بين قضايا الأديان مقدمة عن طرق البحث في مقارنة الأديان ٢٠٦
الله في التكفير الهندوسي ٢٠٩
الله في التفكير الجيني ٢١١
الله في التفكير البوذي ٢١٢
الله عند اليهود ٢١٣
الله في التفكير الإسلامي ٢٢١
نتيجة المقارنة ٢٢٢

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

دكتور أحمد شلبي
دكتوراه من جامعة كمبردج
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة
مقارنة الأديان
أديان الهند الكبرى
الهندوسية – الجينية – البوذية
وملحق عن " قضية الألوهية "
كنموذج للمقارنة بين قضايا الأديان
الطبعة الثالثة (١٩٧٢) مع كثير من الزيادات والتنقيحات
ملتزم النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
شارع عدلي باشا بالقاهرة

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين
حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤
الطبعة الثانية سنة ١٩٦٦
الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٢
القاهرة
دار الطباعة الحديثة

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

مقدمة الطبعة الأولى

أحس أن من واجبي أن أفتتح هذه المقدمة بشكر الله الذي هدى وأنعم وتفضل، فإن سلسلة مقارنة الأديان التي نخرج اليوم جزأها الرابع قد لاقت من النجاح أضعاف ما كان يؤمل، وقد اشتد عود هذا العلم. وأخذ يلعب دوره في حياتنا الثقافية، وكان المبشرون بالمسيحية يعرفون أطرافا من هذا العلم ويستغلونها وهم ينشرون المسيحية ويقفون في وجه الإسلام، ولكنا أخذنا السلاح منهم وبدأنا نصول به ونجول. والذي لا شك فيه أن الذي يتصدى للتعريف بالإسلام والتبشير به يحتاج إلى هذا العلم احتياجا واسعا: ويجد فيه خير عون له في كفاحه وجهاده.

وقد دخل هذا العلم بعض كليات " جامعة الأزهر " وكان من دواعي ابتهاجي أن انتدبت لتدريسه هناك. وكان إقبال الطلاب على الانتفاع بهذا العلم عظيما، وهم – عبر التاريخ – حماة الإسلام وناشروه في مختلف الأقطار والأصقاع، وقد طربت عندما وعدت بين طلابي بكليات الأزهر شبابا سمر الوجوه جاءوا من بقاع شتى بإفريقية، وآخرين انحدروا من مختلف الأقطار بآسيا. وسيكون لهؤلاء وأولئك في خدمة الإسلام ونشره جولات حاسمة عندما يعودون لبلادهم، وأرجو أن يكون علم " مقارنة الأديان " خير عون لهم في هذه المعمعة.

لقد كان المبشرون الغربيون يعرفون من الإسلام نقاطا يوجهونها توجيها خاصا حتى يصوروها نقائص، ويلقون بها في طريق الإسلام كعقبات تقاوم امتداده، ولم يكن دعاة الإسلام يعرفون عن أديان هؤلاء المبشرين ما يلقون به في وجوههم لصدهم عن الباطل وإعادتهم إلى الرشد، فكانت الغلبة في حومة الوغى العلمي تتم للمبشرين الغربيين غالبا، وقد حضرت في إندونيسيا مرة مناظرة أعدت لتكون من هذا النوع، وفي مطلعها ألقى المبشرون المسيحيون

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

بأسئلتهم في وجوهنا، وظنوا أنهم ضمنوا لأنفسهم الفوز، وكانت أسئلتهم تدور حول تعدد الزوجات، والطلاق، والرق، والمرأة في الإسلام، وديكتاتورية الخلفاء، ونشر الإسلام بالقوة،... وتصديت للإجابة، ولكني أعلنت أنني سأجيب عن سؤال ثم ألقي على المبشرين سؤالا عن المسيحية أرجو أن يجيبوني عنه قبل أن أنتقل للإجابة عن السؤال التالي من أسئلتهم، وهكذا، سؤال لهم وسؤال لي، وكانت تلك مفاجأة غير سارة لهم، وأعددت لهم الأسئلة التالية:

بولس والمسيحية

التثليث في المسيحية

ألوهية عيسى

ألوهية الروح القدس

الاضطهادات والمسيحية (١)

وتم لنا الفوز المبين، وشالت كفة المعتدين، وكان علم " مقارنة الأديان " هو الذي قدم لنا السلاح ونحن ندافع ونجيب، كما قدمه لنا ونحن نهاجم ونسأل

* * *

ومن ألوان النجاح الذي صادفته هذه السلسلة أنها ترجمت للغة الإنجليزية وللغة الإندونيسية والماليزية، واللغة الأوردية، واللغة الفرنسية.

* * *

---

(١) اقرأ هذه الموضوعات في كتاب " المسيحية " للمؤلف

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وهذا الجزء خاص بأديان الهند، والحديث عن أديان الهند حديث ذو شجون، وأرجو أن يجد القارئ في هذا الجزء لذة عقلية ومتعة نفسية، وهناك نقطة مهمة تربط أديان الهند بالأديان السماوية، فقد كانت أديان الهند معينا تسربت مه ألوان من الأفكار ووجدت طريقها بين معتقدات المسيحيين والمسلمين، فسنرى أن الشعار المسيحي " تثليث في وحدة ووحدة في تثليث " منحدر من الهندوسية، وسنرى أن بعض المسلمين قالوا بالتناسخ، ووحدة الوجود، ودراسة علم " مقارنة الأديان " ستعيد كل معتقد إلى أصله، وستظهر مقدار التأثر والتأثير بين المعتقدات.

والهند قطر عميق الصلة بالأقطار الإسلامية ويعيش به عشرات الملايين من المسلمين بالإضافة إلى الملايين اللذين انسلخوا من الهند مكونين دولة الباكستان، ومن أجل هذا كان يجدر بنا أن نعنى بدراسة الثقافة الهندية، لأنها تلاقت مع الثقافة الإسلامية منذ عهد مبكر، ولكن للأسف لم تكن الثقافة الهندية شائعة بين المسلمين، ولم تكن الهندوسية أو الجينية أو البوذية معروفة إلا للخاصة من الباحثين، ولذلك يسعدني أن أقدم هذا الزاد للقارئ المسلم بوجه خاص ولطبقة المثقفين في العالم بوجه عام.

يا رب حقق بهذا العمل النفع، واجعله خالصا لوجهك الكريم.

المعادي في السادس من مايو سنة ١٩٦٤

دكتور أحمد شلبي

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

مقدمة الطبعة الثانية

يسرني بالغ السرور أن أخرج هذه الطبعة من " أديان الهند الكبرى " حافلة بكثير من الزيادات والتهذيب نتيجة لاستمرار البحث والدراسة، والفضل لله واهب التوفيق، والشكر للقارئ الكريم على تشجيعه المتواصل، ومما يدعو للسرور أن هذه الطبعة تخرج للوجود وقد اكتملت حلقات هذه السلسلة وأعيدت طبعاتها عدة مرات، وبدأت طبعاتها باللغات الأجنبية تغمر الأسواق ويمتزج ما بها من أفكار بعقول القراء وتفكيرهم.

يا رب.... أشكرك شكر من يعرف حقك. ويدرك أن نجاحه كان منك، وكان أثرا لتأييدك العظيم. وفي انحاءة الشاكر الذاكر أطمع في مزيد من توفيقك ورعايتك، وأطمع أن تكون هذه الطبعة أكثر نفعا وأعمق أثرا.

دكتور أحمد شلبي

مقدمة الطبعة الثالثة

مع شكر الله والانحناء لفضله، وشكر القارئ على ثقته وإقباله، يسرني أن أذكر أن هذه الطبعة بها زيادة مهمة هي دراسة واضحة عن " قضية الألوهية " تبين كيف انحرف البشر في تفكيرهم الديني فراحوا يخلقون الآلهة، وقد سار أتباع الديانات جميعا في هذا الطريق، ولم ينج إلا الإسلام من هذه الذلة بسبب مقاومة المسلمين الصارمة لاتجاهات مدعي التشيع التي قالت بتأليه البشر.

والله أسأل أن يهبنا الرشد، ويهدي البشرية سواء السبيل.

المؤلف

في الخامس من سبتمبر سنة ١٩٧٢

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الهند بلاد الأسرار والأساطير، مجتمع شعوب وطبقات، بل مجتمع مجتمعات، تكثر فيها الأديان، وتتعدد اللغات والألوان، فالحديث عن الهند حديث ذو شجون، تعال بنا نورد تعريفا بالهند قبل أن نصل إلى الحديث عن أديانها الكبرى، ومن الواضح أن حديثنا هنا عن الهند يشمل أيضا ما يسمى الآن بالباكستان.

لمحة عن جغرافية الهند:

تبلغ مساحة الهند ٠٧٢ ر ٢٢١ ر ١ ميلا مربعا، أو ما يعادل مساحة دول أوربا مجتمعة باستثناء روسيا، والهند ذات موقع هام على خريطة العالم، وهي شبه جزيرة تشبه في منظرها قارة إفريقية بوجه عام، فهي عبارة عن مثلث غير منتظم الأضلاع قاعدته إلى أعلى ورأسه إلى أسفل، وقاعدته جبال الهملايا الشامخة، ورأسه رأس كوماري (Cape Comarin)، والهند بلاد مقفلة كما يسميها الباحثون، فضلعا المثلث في الشرق والغرب يدور حولهما البحر، أما قاعدة المثلث في الشمال فتحيط بها سلسلة جبال الهملايا وجبال سليمان ويحتضنها نهران عظيمان أحدهما نهر الإندوس (السند) وينبع من جبال الهملايا ويصب في خليج العرب، بعد أن يتصل بأنهار البنجاب (الأنهار الخمسة)، والآخر نهر كنكا أو نهر الكنج. وهو ينبع أيضا من جبال الهملايا ويصب في خليج البنغال بعد أن يتصل بنهر براهما بوترا المقدس (١).

ويشق الهند عند منتصفها تقريبا سلسلة من الجبال والأدغال تبدأ من الغرب، وتسير حتى قرب الساحل الشرقي، وهذه السلسلة تقسم الهند قسمين يختلف أحدهما عن الآخر في طبيعته وفي سكانه وحضارته.

---

(١) Peoples and ReLigions of India: Weech and Rylands p .٣٠٧

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

(٢٠)

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ومن نهر الإندوس (السند) اشتق اسم الهند، وظهرت كلمة إند وهند:
ومعناهما الأرض التي تقع فيما واء الإندوس، وسمي سكان هذه البلاد:
الهنود أو الهندوس (١).
وعن تسمية الهند يقول غوستاف لوبون (٢): يرى الغربيون أن نهر السند
أعار من اسمه اسما للبلاد الحافلة بالأسرار الواقعة فيما وراءه. ولا يسلم بهذا
تماما، بل يحتمل اشتقاق اسم الهند من اسم الإله (إندرا).
ويجاور الهند ممالك بلوخستان وأفغانستان في الشمال الغربي، والتركستان
في الشمال، والصين في الشمال والشمال الشرقي، وبورما في الشمال الشرقي كذلك.
وحضارة الهند قديمة جدا، وقد أنتجت تربة الهند فلاسفة عظاما قبل أن
يولد سقراط، وانتشرت في الهند معاهد العلم، ووجدت المباني الضخمة في عهد
كان الجزر البريطانية تعيش في بربرية وفوضى (٣).
والهند بلا العجائب والمفارقات، حتى يمكن اعتبارها أقطارا في قطر،
فلها كل الأجواء بسبب اتساعها وتفاوت ارتفاع بقاعها، فبينما يكون الحر شديدا
للغاية في سواحل ملبار، وكور، ومندل، وسهول البنجاب، ترى ربيعا ساحرا في
قمم بعض الجبال، وثلوجا تغطي شواهق همالايا. وبينما يغمر الفيضان بعض
الأرض نرى مناطق أخرى أعيا أهلها الجفاف وطلب السقيا، وبينما ترى
الصحارى الجرداء والأرض القاحلة إذ بك ترى الغابات الكثيفة المروج
الخضراء والمزارع الفينانة (٤).
وعن مفارقات الهند يقول H Rylands. G (٥): في الهند الحديثة

---

(١) حقائق عن الهند (من منشورات قلم الاستعلامات الهندي).
(٢) غوستاف لوبون: حضارة الهند ص ٢٥.
(٣) Peoples and Religions of India p: Weech and Rylands
٣٠٧ .
(٤) أنظر حضارة الهند لغوستاف لوبون ص ٢٢.
.٣٠٧ .
(٥) Peoples and Religions of India p

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

يتقابل وجها لوجه الشرق في عصور بدائيته، مع الغرب في عصور حضاراته وتطوره، ومن مظاهر ذلك الطائرات النفاثة التي تشق الجو لتقيم شبكة مواصلات بين مدن الهند بعضها والبعض الآخر، في حين لا تزال أشهر وسيلة للمواصلات داخل المدن عبارة عن " الركشة " وهي مركب ذو ثلاث عجلات يركبه شخص أو شخصان و يدفعه حطام من بني آدم.

سكان الهند

الهند مركز من مراكز الحضارة القديمة في العالم، وهي في هذا تضارع مصر والصين وآشور وبابل، ولكن حضارة الهند التي سبقت العهد الآري ظلت غير معروفة حتى أظهرت الاكتشافات الحديثة مدى الرقي الذي عرفته الهند في الشؤون المعمارية والزراعية والاجتماعية قبل الميلاد بحوالي ثلاثة آلاف عام، أي قبل الغزو الآري بحوالي ألف وخمسمائة عام.

ولكن التاريخ الواضح للهند ارتبط بالعهد الآري، وقد قلنا فيما سبق إن بلاد الهند تعتبر مقفلة إذ تحيط بها البحار والجبال، ويصعب اقتحام الهند عن طريق البحر لتعذر الملاحة في خليج البنغال، ولأن الشاطئ الهندي لبحر العرب عبارة عن جبال عاتية، وعلى هذا لم يكن البحر معبرا للهند وبخاصة في الأزمنة السالفة قبل الرقي بنظم الملاحة. وكما صعب اقتحام الهند عن طريق البحر صعب أيضا اقتحامها عن طريق جبال همالايا الشامخة بالشمال، إلا أن هناك معبرين كان كل منهما منفذا سلكته أجناس من البشر إلى الهند حيت تكون السكان الذين نريد أن نتكلم عنهم، ويقع أحد هذين المعبرين في شرقي جبال همالايا عند وادي نهر برهما بوترا، ويسمى الباب الشرقي، ويقع الثاني غربي هذه الجبال ويسمى الباب الغربي، ومن هذين البابين اقتحمت الهند عدة مرات بأجناس مختلفة، ولهذا،

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ولاختلاف أجواء الهند، أصبح سكان الهند – كما يقول غوستاف لوبون (١) – ذوي أمثلة متباينة، ففيها تجد شعوبا بيضا بياض الأوربيين، كما تجد الزنوج والسود، وبين هؤلاء وأولئك ألوان وألوان.

فمن الباب الشرقي دخلت الشعوب الصفراء (التورانيون) أفواجا منذ آلاف السنين، يضيق الزمن بينها أو يتسع، وقد فر من وجهها بعض السكان الأصليين واحتموا بقمم الجبال، أما أغلب السكان الأصليين فقد ارتبطوا بالزاحفين وتم بين الجنسين ألوان من العلاقات أنتجت ما أصبح بعد حين يعرف بالسكان الأصليين، وكان هذا المجتمع الجديد يتكون من جماعتين: إحداهما يغلب فيها الدم التوراني، والثانية يغلب فيها الدم الهندي، أما الذين آووا إلى قمم الجبال فقد أطلق عليهم " زنوج الهند ".

ومن الباب الغربي اقتحم الآريون بلاد الهند وبهم ارتبط تاريخ الهند القديم، وأصل الآريين (الجنس الأبيض) مشكوك فيه، فيرى بعض الباحثين أنهم نشأوا ببلاد الدانوب بأوربا، ثم هاجروا إلى آسيا عندما ضاقت بهم الأرض، متخذين طريق الشرق حتى بحر مرمرة، ثم عبروا البسفور أو الدردنيل إلى آسيا الصغرى، واستمروا في سيرهم شرقا متجنبين الحضارات المزدهرة التي كانت قد نشأت في طريقهم، حتى نزلوا فارس بالقرب من تبريز، ومن هناك انحدروا إلى الهند (٢).

ويرى باحثون آخرون – وهو الأرجح – أن الجنس الآري آسيوي الأصل، كان يعيش في وسط آسيا في بلاد التركستان بالقرب من نهر جيحون، ثم زحفت أفواج ضخمة من هذا الجنس في أزمنة غير واضحة، واتجهت نحو الهند عبر إيران واتجهت كذلك نحو أوربا (٣).

---

(١) غوستاف لوبون: المرجع السابق ص ١٠٠ – ١٠١.

(٢) الهجرات الآرية ص ٤.

(٣) History of the world p: Rene Sedillot .٣٢ .

وانظر كذلك:

The Buddha s Philosophy p: Allen. F. G .٢٤ – ٢٥ :

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ويبدو أن الزحف الآري إلى الهند قد تم في القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وقد حارب الآريون الممالك التي أقامها الجنس الأصفر بالهند وانتصروا على الكثير منها، وكونوا لهم بها مناطق نفوذ، ولم يتصل الآريون بسكان الهند بطريق التزاوج، بل حافظوا غالبا على سلالتهم البيضاء وساقوا سكان الهند إلى الغابات والجبال، أو أخذوهم أسرى، وسماهم الأدب الآري المبكر " أمة العبيد " واستنصر الآريون عليهم بإلههم إندرا، ومن دعائهم في ذلك: يا إلهنا إندرا، إننا قد أحاط بنا قبائل داسيو (عبيد) من جميع الجهات، وهم لا يقدمون الضحايا، وليسوا بآدميين، ولا يعتقدون في شئ، يا مهلك الأعداء أهلكهم وأهلك نسل داسا (العبد). والسبب في أن الآريين لم يتم التزاوج بينهم وبين الهنود، هو أن الآريين دخلوا الهند كشعب مهاجر لا كجيش محارب، والفرق كبير بين الحالتين، فالجيش يكون عماده الرجال الذين سرعان ما يتصلون بنساء الشعب المغلوب، أما الآريون فقد دخلوا بثرائهم ونسائهم وأطفالهم، فلم يحتاجوا لنساء الهند للتزاوج، وكان عدم الحاجة للنساء مع الاستعلاء الذي يصحب الظفر من دواعي نشأة الطبقات. كما كان هذا من أسباب كثرة الألوان في الهند (١).

أما مدى نفوذ الشعوب الصفراء (التوارنيين) والبيض (الآريين) على الهند فيوضحه غوستاف لوبون بقوله (٢): والتورانيون أشد الغزاة تحويلا لعروق الهند من الناحية الجثمانية، والآريون هم الذين تركوا أقوى الأثر في عروق الهند من الناحية المدنية، فمن التورانيين أخذ سكان الهند نسب أجسامهم وتقاطيع وجوههم، وعن الآريين أخذ سكان الهند لغتهم ودينهم وقوانينهم وسجاياهم وطبائعهم.

---

(١) The Peoples and religions of India P: Weech .٣١١

(٢) حضارة الهند ص ١٠٤.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ولم يتوار الآريون بالامتزاج في الهند بسرعة كما توارى العرب في مصر، لأن عدم التزاوج، ثم نظام الطوائف الحاسم حال دون امتزاجهم في الهند بالتورانيين المقهورين زمنا طويلا، ولكن الامتزاج على كل حال تم بتعاقب القرون، فلا نجد للآريين في الهند أثرا منذ زمن طويل (١). ولكن آثار الآريين الجسمانية لا تزال بارزة في الشمال الغربي حتى العهد الحاضر كما يقول Weech ففي البنجاب نجد السكان أطول قامة، بشرتهم بيضاء أو أميل إلى البياض، ملامحهم أدق، وهم بهذا يخالفون باقي الهنود حيث تنتشر ملاخ التورانيين، أو حيث توجد ملامح السكان الأصليين بالجنوب، وتقل ملامح الآريين كلما اتجهنا جنوبا أو شرقا (٢).

وبالتقاء الآريين والطورانيين مع السكان الأصليين بدأت الطبقات في الهند، وأصبحت ذات أهمية كبرى في تاريخ هذه البلاد، فمن الآريين كانت طبقة رجال الدين (البراهمة = Brahaman) وطبقة المحاربين (Kastria) ومن التورانيين تكونت طبقة التجار والصناع (Vaisya)، أما الهنود الذين اتصلوا بالطورانيين فلم يدخلوا التقسيم في أول الأمر، ولكن الحضارة الآرية امتدت إلى بعضهم بمرور الزمن، فأوجد الآريون منهم الطبقة الرابعة وجعلوها طبقة الخدم والعبيد (Sudra) أما الذين لم تمتد لهم الحضارة الآرية من السكان الأصليين لأنهم انعزلوا عن الفاتحين فقد بقوا بعيدين عن التقسيم، وظلوا طريدي المجتمع أو منبوذين (ontcastes) وسنتكلم فيما بعد عن هذه الطبقات.

ونعود إلى ذوبان الجنس الآري الذي اقتبسنا الحديث عنه آنفا من غوستاف لوبون، لنقرر أن هذا الذوبان بدأ عندما اندفع بعض الآريين عن طريق ممر دلهي الذي يفصل بين الصحراء الغربية وبين فروع نهر

---

(١) حضارة الهند ص ٢٦١.

(٢) e Peoples and religion of india p ٣١١ .

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الكنج، وفي المهجر الجديد تخلى الآريون عن كثير من خصالهم وتقاليدهم وتبنوا كثيرا من أخلاق الهنود. وطرق حياتهم، فتوقفوا عن الذبح وأكل اللحوم إلا فيما يتعلق بالقرابين، وفقدت المرأة حياة الحرية والطلاقة التي كانت تحياها في المجتمع الآري، وتوارى كثير من الآلهة التي كانت موضع تقديس في كشمير حيث المهجر الأول للآريين (١) بالهند، واستمر هذا الذوبان ينتشر حتى تم اندماج الآريين في الهند.

ومن العوامل الواضحة الأثر على سكان الهند جميعا شدة الحرارة، ففيما عدا جبال الهملايا التي تكسوها الثلوج نجد درجة الحرارة بالهند شديدة طول العام تقريبا، ويرى Weech أن شدة الحرارة كان لها أثر في السكان، فقد تسبب عنها عزوفهم عن العمل، وسرعة التعب إذا عملوا، كما تسبب عنها نقص في القدرة على الابتكار، وفي الكفاية والنشاط على العموم (٢).

أما الناحية الروحية فتمتاز الهند بنصيب كبير فيها، ولكن ليس معنى هذا أن عامة الهنود على شئ من الصفاء الروحي، فإنه ليس في بلاد العالم كلها بلد تنمو فيه الخرافة وتزدهر، كما تنمو في الهند، ولكن ذلك لا يقلل من نشاط الاتجاه الروحي في الهند، لأن الظروف الملائمة للخرافة والبدع هي نفسها خير الظروف لصفاء النفس، فالاتجاه الروحي إذا سما أخذ وجهته نحو الفكر والعمق، وإذا كان ضحلا أو مضطربا أخذ طريقة نحو الخرافة (٣).

اللغات في الهند

رأينا فيما سبق اختلاف عناصر السكان واختلاف ألوانهم، ولكن اللغات

---

(١) The Peoples and Religions of India p: Weech .٣١٤ .

(٢) Ibid p .٣٠٩ .

(٣) يوجى راما شاراكا: فلسفة اليوجا ص ١٩٧ من الترجمة العربية بتصرف.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

في الهند كانت أكثر اختلافا وأكثر عددا، وكانت الحياة القبلية المنتشرة بالهند من أهم أسباب كثرة اللغات، فقد كانت كل قبيلة تكاد تكون مستقلة تعزلها الجبال أو الغابات أو الأنهار عن سواها من القبائل، ولها لغة خاصة بها لا يعرفها سواها من القبائل أيضا، وعلى هذا بلغت اللغات في الهند نحو ٢٤٠ لغة و ٣٠٠ لهجة إذا صح ما يقوله غوستاف لوبون (١) بالإضافة إلى الفارسية التي كانت لغة رسمية للقصور الأهلية والمجتمعات الراقية في الهندوستان، والبهلوية وهي لغة المجوس.

وعلى هذا لم يكن من الممكن التفاهم بين سكان المناطق المختلفة، وهذا مهد الطريق للغة الإنجليزية لتكون لغة عامة بجوار هذه اللغات المحلية.

وهناك لغة أخرى تكونت في القرن الخامس عشر الميلادي وهي اللغة الهندوستانية، وأصلها آري، ثم دخلت عليها كلمات كثيرة من اللغات الفارسية والعربية والهندية والتركية وتسمى الآن اللغة الأوردية نسبة إلى (الأوردو) وهو المعسكر إذ كانت لغة معسكرات المغول أولا، وانتشرت هذه اللغة بين المسلمين وغير المسلمين، وشجعها الملوك والسلاطين حتى ضارعت اللغة الإنجليزية في عمومها وانتشارها، وأصبحت لغة رسمية بجوار الإنجليزية، ولما تم تقسيم الهند إلى دولتي الهند والباكستان اعتبرت هذه اللغة لغة إسلامية في نظر كثير من الولايات الهندية، فاحتضنتها الباكستان، وترعرعت هذه اللغة في الدولة الإسلامية الكبرى، أما في الهند فقد عانت الأوردية صورا من الاضطهاد في بعض الولايات، ولكن ولآيات أخرى هندية اعترفت بها مثل بومباي وأندر ومدراس، ومن العجب أن الذين كانوا يهاجمون الأوردية من الهنود كانوا يهاجمونها بها كما قال الباندیت نهرو (٢).

أما عن اللغات في الهند بعد التقسيم فقد اتخذ الدستور الهندي اللغة الهندية لغة رسمية للبلاد، وهي لغة قامت على أنقاض السنسكريتية، ولما

---

(١) حضارة الهند ص ٤٧٧.

(٢) أنظر تاريخ الإسلام في الهند ص ٢٢ - ٢٣.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

كانت هذه اللغة غير شائعة فقد رؤى الاستمرار في استعمال اللغة الإنجليزية كلغة رسمية للبلاد حتى تصل اللغة الهندية إلى الانتشار الكافي، وإلى جانب اللغة الهندية، اعترف الدستور بثلاث عشرة لغة في مختلف ولايات الهند، وكل منها لغة حية ذات ذخيرة وفيرة ولها أدب يانع مترعرع (١).

الأديان في الهند

نقلنا في " موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية " رأي مجموعة من علماء مقارنة الأديان مؤداه أن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية، وأن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية... كما ذكرنا أن هناك عوامل تقوي هذه الغريزة من أهمها اختلاف قوى الطبيعة، ومواجهة الإنسان لهذه القوى وجها لوجه، وإحساسه بالضعف تجاهها (٢):

والهند حقل رائع لتطبيق هذه المبادئ، فقد نشطت قوى الطبيعة، وواجهها الإنسان الهندي وجها لوجه، وأحس بالضعف تجاهها، فأصبح " متدينا بطبعيته يشغف بالروحانيات، ويسعى دائبا إلى معرفة الله، ويتخذ الزهد وسيلة ليتخلص من دنيا المادة وينتظم في دنيا الروح (٣) "، وهيهات أن تجد هندوسيا لا يعبد عددا من الآلهة، فالعالم عنده زاخر بها، حتى أنه يصلي للنمر الذي يفترس أنعامه، ولجسر الخط الحديدي الذي يصنعه الأوربي، وللأوربي نفسه عند الاقتضاء (٤).

وقد عرف الهنود القدماء عبادة الحيوانات وبخاصة البقرة، كما عرفوا

---

(١) محيي الدين الألوائي: الأدب الهندي المعاصر ص ٥٩.

(٢) أنظر الجزء الأول ص ٨٧ - ٨٨ من الطبعة الخامسة.

(٣) أديان العالم الكبرى ص ٢٤ لخصه عن الإنجليزية حبيب سعيد.

(٤) غوستاف لوبون: حضارة الهند ص ٣٦٨.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

عبادة قوى الطبيعة، وعرفوا كذلك عبادة عضو التلقيح معتقدين أنه سبب الخلق، وكان هذا الإله يسمى عندهم (Linga) وهي من اشتقاق الكلمة الإنجليزية Link أي صلة ورابطة، وفي العصور الآرية اندمج هذا الإله في الإله الذي تكون منه الثالوث الهندي (١).

وعبادة الهنود للحيوانات نشأت عن الفكر الطوطمى، أو عن اعتقادهم بأن الله يتجلى في بعض الأحياء فيحل فيها، فيحتمل حلوله في هذا الحيوان أو ذاك، أو لأنهم آمنوا بالتناسخ فجاز عندهم أن يكون الحيوان جدا قديما أو صديقا عائدا إلى الحياة (٢).

وقد كان للبقرة – من بين الحيوانات – قدسية خاصة، ولذلك سنخصها بالذكر فيما يلي، ثم نتكلم بعد الحديث عنها عن آلهة الهنود من الظواهر الطبيعية.

عبادة البقرة:

من بين المعبودات سالفة الذكر حظيت البقرة في الهند بأسمى مكانة، وهي من المعبودات الهندية التي لم تضعف قداستها مع كر السنين وتوالي القرون، ففي الويدا حديث عن قدسيتها والصلاة لها. ولا تزال البقرة حتى الآن تحتفظ بهذه القدسية، ففي الأدب المنسوب للمهاتما غاندي تفسير لما حظيت به البقرة قديما وحديثا من نفوذ ديني.

وبين يدي الآن عدد نوفمبر (سنة ١٩٦٣) من مجلة Bhavan s journal التي تصدر في بومباي بالهند، وبه عدة مقالات عن عبادة البقرة، وسنقتبس هنا خلاصة هذه المقالات، وأول ما نقتبسه نشيد من

---

(١) The Peoples and Religions of India p: Weech .٣١٠ .

(٢) الأستاذ عباس العقاد: الله ص ٧٧.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

" ساما ويدا " (١) نشرته المجلة في صفحة مستقلة داخل رسم تخطيطي للبقرة (٢).
ننقل صورته على الصفحة التالية، والترجمة العربية للنشيد هي:

صلاة إلى البقرة

أيتها البقرة المقدسة، لك التمجيد والدعاء، في كل مظهر تظهرين به، أنثى تدرين اللبن في الفجر وعند الغسق، أو عجلا صغيرا، أو ثورا كبيرا، فلنعد لك مكانا واسعا نظيفا يليق بك، وماء نقيا تشربينه، لعلك تنعمين بيننا بالسعادة.

وهناك أسطورة تروى كمحادثة تقتبسها المجلة (٣) عن Smani Sinanda وهي محادثة جرت بين خنزير و ملك، ونحن ننقلها فيما يلي:

ذهب الخنزير يوما إلى ملك وهو يصلي أمام البقرة ويعلن لها أنها معبوده الأثير عنده.

قال الخنزير للملك: أيها الملك، متى ستعبدني؟

فثار الملك ونهر الخنزير قائلا: أخرج وإلا قتلتك.

بكى الخنزير وانتحب، وقال: نعم، أنا أعرف أنك تحب فقط لحمي، فأنا أموت لأقدم لك ما تحب، ومع هذا فإنك تعبد البقرة ولا تعبدني.

فأجاب الملك: إنك أحمق أيها الخنزير، إنني آخذ لحمك بعد موتك أي بعد أن تكون في حال لا تستطيع أن تمنح ولا أن تمنع، وسرعان ما ينتهي لحمك، أما البقرة فإنها تقدم لي طعامي طائعة وهي حية، ولذلك

---

(١) " ساما ويدا " قسم من أقسام " الويدا " كتاب الهندوس المقدس:
وسيأتي الحديث عنه.
(٢) ص ٧.
(٣) ص ١٣ من المجلة.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

تستمر في تقديمه من يوم إلى يوم دون نهاية، إنها رمز الايثار، ولذلك فأنا أعبدها.

* * *

أما رأي المهاتما غاندي في عبادة البقرة فجدير بأن نفسح له مكانا، وأن نحاول أن ننقله كله أو جله من هذه المجلة (١) وهو بعنوان " أمي البقرة " وفيما يلي ترجمة أهم ما جاء به:

" إن حماية البقرة التي فرضتها الهندوسية هي هدية الهند إلى العالم، وهي إحساس برباط الأخوة بين الإنسان وبين الحيوان، والفكر الهندي يعتقد أن البقرة أم للإنسان، وهي كذلك في الحقيقة، إن البقرة خير رفيق للمواطن الهندي، وهي خير حماية للهند...

" عندما أرى بقرة لا أعدني أرى حيوانا، لأني أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع...

" وأمي البقرة تفضل أمي الحقيقية من عدة وجوه، فالأم الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين وتتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا، ولكن أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائما، ولا تتطلب منا شيئا مقابل ذلك سوى الطعام العادي. وعندما تمرض الأم الحقيقية تكلفنا نفقات باهظة، ولكن أمنا البقرة تمرض فلا نخسر لها شيئا ذا بال، وعند ما تموت الأم الحقيقية تتكلف جنازتها مبالغ طائلة، وعند ما تموت أمنا البقرة تعود علينا بالنفع كما كانت تفعل وهي حية، لأننا ننتفع بكل جزء من جسمها حتى العظم والجلد والقرون ".

" أنا لا أقول هذا لا قلل من قيمة الأم ولكن لأبين السبب الذي دعاني لعبادة البقرة. إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والاجلال وأنا أعد نفسي واحدا من هؤلاء الملايين ".

---

(١) ص ١١.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الآلهة من الظواهر الطبيعية:
ومن آلهة الآريين التي وردت في كتبهم المقدسة مجموعة من الظواهر الطبيعية مثل:
وارونا: إله السماء
إندرا: إله الرعد الذي يسبب الأمطار، وكانت - الغلبة فيما بعد.
الشمس: وكانت تعبد في خمسة أشكال، فتعبد لذاتها باسم (سورية)، وتعبد كمصدر للانتعاش باسم (ساوتري)، وتعبد لتأثيرها في نمو الحشائش والنبات باسم (پوشان) وتعبد كبنت السماء باسم (مترا) وأخيرا باسم (وشنو) أي النائب عن الشمس،
ثم استقل وشنو فعبد لذاته:
أغنى: إله النار.
أوشا: إله الصبح.
رودرا: إله العواصف.
بارجانيا: إله المطر والمياه والأنهار.
وايو، واتو: إلها الرياح (١).
ويعلق كتاب Hinduism على كثرة الآلهة بقوله: إن هذه الديانة توزع الآلهة حسب المناطق وحسب الأعمال التي تناط بهذه الآلهة، فلكل منطقة إله، ولكل عمل أو ظاهرة إله (٢).
ويقول مولانا محمد عبد السلام الرامبوري: كانت الأمة الهندية متسامحة في كل ما يعرض عليها من الأفكار والمعتقدات، تكثر عندها

---

(١) الآريون في الهند (ثقافة الهند، سبتمبر سنة ١٩٥٦ ص ٢٨ - ٢٩).
(٢). ٦٢. History of the World p: Rene Sedillot

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الآراء والابتكارات، وكان الناس حيارى مشرفين على القبول والمعاضدة... عقائدهم متضاربة، وأفكارهم متباينة، فشت فيهم رهبانية، وسرت فيهم باطنية، قامت حلقات الفكر في كل نواحي القطر يتزعمها العرفاء والعلماء، ونشأت دراسات أخلاقية قصدها العامة والخاصة، قد عمت الرياضيات الشاقة المتعبة في سبيل حصول السيطرة على القوى الكونية، وراج التبتل في الكهوف للمراقبات النفسية، والانقطاع في الغابات لإتعاب الأبدان لترقى القوى الروحانية (١).

وعلى هذا اشتهرت الهند بكثرة الأديان والمعتقدات التي تضارع في كثرتها لغات الهند أو تقرب منها، وكانت الهندوسية أشهر هذه الأديان وأوسعها انتشارا، بل إنها الدين العام الذي حوى غالبية الهنود أو كلهم، وإذا تمردوا عليه أحيانا أو تمرد بعضهم عاد المتمردون بعد وقت قصير أو طويل إلى رحابه، وقد وضح كتاب Hinduism السبب في ذلك بقوله: إنه لمن الصعب أن يطلق على الهندوسية دينا بالمعنى الشائع، فالهندوسية أشمل وأعمق من الدين، إنها صفة لملامح المجتمع الهندي، بنظامه الطبقي ومكان كل طبقة فيه، إنها الحياة الهندية بأسلوبها الخاص الذي يعتبر في ذاته شعيرة من الشعائر، أنها خليط يشمل الأمور المقدسة والأمور الدنيوية جميعا، إذ لا يوجد في الفكر الهندي حد فاصل بين الاثنين، إنها الاتجاهات الروحية والخلقية والقانونية. وهي إلى جانب ذلك مبادئ وقيود وعادات توجه الحياة الهندية وتسيطر عليها (٢).

والويدا - كتاب الهندوس المقدس - يشمل مبادئ الفكر الهندي في أكثر مراحله.

---

(١) فلسفة الهند القديمة ص ٨٥ - ٨٦.

٤. by Lewis Renou p. Hiuduism Ed .

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ويمكن أن نقسم تاريخ الفكر الهندي إلى العصور التالية:
أولا – العصر الويدي (١) الأول ويشمل ثلاث مراحل فرعية:
(ا) مرحلة انتشار الأفكار البدائية، وعبادة قوى الطبيعة، سواء في ذلك ما جلبه الآريون، أو ما كان نابعا من البيئة الهندية، ويبدأ ذلك من القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وفي الويدا معلومات مفيدة عن هذه المرحلة.
(ب) مرحلة تدوين الويدا وتأويلها على أيدي البراهمة، ويسمى هذا التأويل " البراهمانات "، وتبدأ هذه المرحلة من حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، فقد ظهر في هذا العصر جماعة من أهل العلم والنظر، اهتموا بالشؤون الدينية، وفكروا في عقائدهم، فأدى التفكير بهم أو ببعضهم إلى آراء مغايرة للعقائد الموروثة تكون مذهبا هو البرهمية (٢) ويرى Rene Sedillot (٣) أن البراهمة قاموا بهذا التأويل لمصلحتهم، وليجعلوا امتيازاتهم مقدسة، ثم إنهم لاحظوا أن الاتصال بدأ يتم ويتعمق بين جنسهم وبين السكان الأصليين فأرادوا أن يضعوا نظام الطبقات ليحول بين تمام الامتزاج، وسنزيد ذلك شرحا عند الكلام عن نظام الطبقات، وبهذه المرحلة تبدأ الهندوسية التي لا تزال موجودة.
(ج) مرحلة تلخيص الويدا في أسفار مقدسة تسمى الأوبانيشادات

---

(١) كلمة ويدا أو فيدا كلمة سنسكريتية معناها الحكمة والمعرفة، ولذلك يطلق على واضعيها كلمة " الريشيون " أو الحكماء أو العارفون.
(See Religions of the World by Berry p .٤٠)
(٢) الدكتور إبراهيم مدكور ودكتور يوسف كرم: تاريخ الفلسفة ص ١٢ و، ٥. Hinduism p
(٣) The History of the World p .٦٢

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وهي مرحلة طويلة تبدأ من القرن السادس قبل الميلاد، وتستمر إلى ما بعد الميلاد بعدة قرون.
ثانيا – عصر الالحاد (في رأي أتباع الويدا) وفيه ظهرت الديانة الجينية والديانة البوذية، وضعفت الديانة الويدية ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد.
ثالثا – العصر الويدي الثاني، وهو عصر عودة النصر للويدا وانتصارها على ديني الالحاد، ولكن مع التوسع في شروح الويدات وبيان الخصائص الدينية والاجتماعية التي وردت بها، ومن أهم هذه الشروح قوانين " منو " التي وضعت حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، وبقوانين منو هذه تتضح الهندوسية وتستقر معالمها، وسنعود لشرائع منو بمزيد من الشرح فيما بعد.
وستشمل دراستنا في هذا الكتاب المعالم الكبرى للفكر الهندي ممثلة في الديانات الثلاث: الهندوسية – الجينية – البوذية. مع دراسات عن الكتب المقدسة لدى الهنود.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

(٣٧)

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

مقدمة:

الهندوسية ديانة الجمهرة العظمى في الهند الآن، قامت على أنقاض الويدية، وتشربت أفكارها، وتسلمت عن طريقها الملامح الهندية القديمة والأساطير الروحانية المختلفة التي نمت في شبه الجزيرة قبل دخول الآريين. ومن أجل هذا عدها الباحثون امتدادا للويدية وتطورا لها (١).

وتسمى الهندوسية أو الهندوكية، إذ تمثلت فيها - كما سنرى - تقاليد الهند وعاداتهم وأخلاقهم وصور حياتهم. وأطلق عليها البرهمية ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد نسبة إلى براهما Brahma وهو القوة العظيمة السحرية الكامنة التي تطلب كثيرا من العبادات كقراءة الأدعية وإنشاد الأناشيد وتقديم القرابين (٢)، ومن براهما اشتقت الكلمة " البراهمة " لتكون علما على رجال الدين الذين كان يعتقد أنهم يتصلون في طبائعهم بالعنصر الإلهي، وهم لهذا كانوا كهنة الأمة، لا تجوز الذبائح إلا في حضرتهم وعلى أيديهم (٣).

مؤسس هذه الديانة:

من الذي وضع الهندوسية؟ ومن الذي وضع كتابها المقدس الويدا؟

في الإجابة عن هذين السؤالين نقرر أنه ليس هناك مؤسس الهندوسية يمكن الرجوع إليه كمصدر لتعاليمها وأحكامها، فالهندوسية دين متطور ومجموعة من التقاليد والأوضاع تولدت من تنظيم الآريين لحياتهم جيلا بعد جبل بعد ما وفدوا على الهند، وتغلبوا على سكانها الأصليين واستأثروا

---

(١). ٦. Hindnism p

(٢) محمد عبد السلام: فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند: مارس ١٩٥٣ ص ١٩).

(٣) حبيب سعيد: أديان العالم الكبرى ص ٢٧.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

دونهم بتنظيم المجتمع، وقد تولد من استعلاء الآريين الفاتحين على سكان الهند الأصليين، ومن احتكاكهم بهم تلك التقاليد الهندوسية التي اعتبرت على مر التاريخ دينا يدين به الهنود ويلتزمون بآدابه (١).

ويمكن القول إن أساس الهندوسية هو عقائد الآريين بعد أن تطورت بسبب اختلاط الآريين – وهم في طريقهم البطئ إلى الهند – بشعوب كثيرة وبخاصة بالإيرانيين، ثم تأثرت هذه العقائد بعد احتلال الآريين للهند بسبب الاتصال بأفكار السكان الأصليين، وبفلسفات وأفكار نشأت في الهند في مراحل متباعدة من التاريخ، حتى أصبحت الهندوسية بعيدة عن العقائد الآرية الأصيلة (٢).

" والهندوسية أسلوب في الحياة أكثر مما هي مجموعة من العقائد والمعتقدات، وتاريخها يوضح استيعابها لشتى المعتقدات والفرائض والسنن، وليست لها صيغ محدودة المعالم، ولذا تشمل من العقائد ما يهبط إلى عبادة الأحجار والأشجار، وما يرتفع إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة " (٣).

وإذا كانت الهندوسية ليس لها مؤسس معين فإن الويدا كذلك، وهي الكتاب المقدس الذي جمع العقائد والعادات والقوانين... بين دفتيه ليس له كذلك واضع معين، ويعتقد الهندوس أنه أزلي لا بداية له، وملهم به، قديم قدم الملهم، ويرى الباحثون من الغربيين والمحققون من الهندوس أنه قد نشأ في قرون عديدة متوالية لا تقل عن عشرين قرنا، بدأت قبل الميلاد بزمن طويل، وقد أنشأه أجيال من الشعراء، والزعماء الدينيين، والحكماء الصوفيين عقبا بعد عقب وفق تطورات الظروف وتقلبات الشؤون (٤)، وينسب

---

(١). ٤٢. Religions of the World p: Berry

(٢) ٣ – ٢. p. by Lewis renou p. Ed, Hinduism

(٣) الهند والغرب ص ١٨ وانظر تاريخ الإسلام في الهند للأستاذ عبد المنعم النمر ص ١٨.

(٤) محمد عبد السلام: فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند: مارس ١٩٥٣ ص ٣).

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

Berry (١) كتابة الويدا إلى الآريين، وسنعطي فيما بعد معلومات كافية عن هذا الكتاب المقدس.

والموضوعات الجديرة بالدراسة حول الهندوسية هي:

١ – الويدا.

٢ – الله في التفكير الهندوسي.

٣ – نظام الطبقات.

٤ – أهم عقائد الهندوسية: الكارما – تناسخ الأرواح – وحدة الوجود – الانطلاق.

٥ – من صور الأخلاق عند الهندوسين: مراحل الحياة – التسول – محاربة الملاذ – تعذيب الجسم.

٦ – نماذج من الفقه الهندوسي.

٧ – تعريف بالكتب المقدسة لدى الهندوس (بعد الويدا).

٨ – لمحة تاريخية عن الديانة الهندوسية.

وسنتكلم عن كل من هذه الموضوعات فيما يلي:

١ – الويدا

قلنا فيما سبق إن الويدا – كتاب الهندوس المقدس – لا يعرف له واضع معين... ولإعطاء صورة أقرب إلى الدقة عن الويدا الذي يعد بحق دائرة معارف عن الهندوس، نلجأ إلى كاتب هندي قدير هو الأستاذ محمد عبد السلام لنلخص بحثه عن الويدا ضمن أبحاثه القيمة عن " فلسفة الهند القديمة " (٢):

---

(١). Religions of the World p .٤٠

(٢) ثقافة الهند (مارس ١٩٥٣ ص ٢ إلى ٣٣).

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

للويدا قيمة تاريخية كبرى، إذ تنعكس في هذا الأدب الديني حياة الآريين في الهند في عهدهم القديم ومقرهم الجديد، ففيه أخبار حلهم وترحالهم، دينهم وسياستهم، حضارتهم وثقافتهم، معيشتهم ومعاشرتهم، مساكنهم وملابسهم، مطاعمهم ومشاربهم، مهنهم وحرفهم، وترى فيه مدارج الارتقاء للحياة العقلية من سذاجة البدوي إلى شعور الفلسفي، فتوجد فيه أدعية ابتدائية تنتهي بالارتياب، وألوهية تترقى إلى وحدة الوجود.

والويدات عبارة عن أربع كتب دينية هي:

١ - الريج ويدا (Rig Veda) وهو أشهر الأربعة وأهمها وأشملها كما سيظهر من مقارنة موضوعاته بموضوعات الويدات الثلاث الأخرى، ويقال إن تأليف الريج ويدا يرجع إلى ٣٠٠٠ ق. م، وتشمل ١٠١٧ أنشودة دينية وضعت ليتضرع بها أتباعها أمام الآلهة أو يتغنون بها عن الآلهة، وأشهر الآلهة الذين ورد ذكرهم فيها هو الإله إندرا إله الآلهة، ثم يجئ بعده الإله أغنى إله النار وراعى الأسرة، فالإله فارونا، فالإله سورية (الشمس) وغيرهم (١).

ولا يزال الهنود يتغنون بأناشيد من الريج ويدا، يرتلونها في صلواتهم صباحا ومساء، ويتيمنون بتلاوتها في حفلات زواجهم كما كانوا يفعلون منذ ثلاثة آلاف عام (٢).

٢ - ياجورويدا (Yajur Veda) وتشمل العبارات النثرية التي يتلوها الرهبان عند تقديم القرابين.

٣ - ساما ويدا Bama Veda وتشمل الأغاني التي ينشدها المنشدون أثناء إقامة الصلوات وتلاوة الأدعية.

---

(١) See Also Hinduism p .٧

(٢) TheHistory of Buddhist Thought pp: Edward Thomas .ff .٨٢

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

٤ – آثار ويدا Athar veda وتشمل مقالات في السحر والرقي والتوهمات الخرافية مصبوغة بالصبغة الهندية القديمة، فالحياة الهندية كما يصورها آثار فيدا مملوءة بالآثام، والكون موفور بالشياطين والأغوال، يخوفون الناس والآلهة كفت أيديها عن الخير، ولم تعد تدفع الشر، ويروي آثار فيدا لجوء الناس للخرافات والرقي والسحر ليحموا أنفسهم.

وكل من هذه الويدات الأربعة يشتمل على أربعة أجزاء هي سمهتا وبراهمن وأرنيك وأبانيشاد، وهي بهذا الترتيب من حيث قدمها التاريخي وسنتحدث عن كل منها فيما يلي:

١ – سمهتا (Samhita) أو مجموعة المنظومات لكثرة المنظوم فيها، ومنظومات الريج ويدا أهمها، وقد تكرر أكثرها في سام ويدا، وهذه المنظومات يتغنى بها عند تقديم القرابين، ويشمل سمهتا من ياجور ويدا بعض الأدعية التي تقرأ عند تقديم القرابين كذلك، أما منظومات آثار فيدا فأدعية كان يقدمها سكان الهند الأقدمون لآلهتهم قبل زحف الآريين، ولذا فلها قيمة تاريخية ودينية عظيمة، وتمثل السمهتا مذهب الفطرة في التفكير الهندوسي.

٣ – البراهمن (Brahman) أو الهدايات التي يقدمها البراهمة للمقيمين في بلادهم وبين أهليهم (١)، وتشمل بيان أنواع القرابين وتفاصيلها ومواسمها، وتبيان أن إرضاء البراهمة ضروري لقبول القرابين، ويمثل البراهمن مرحلة أقرب إلى التحضر في التفكير الهندوسي (٢).

١ – أرنيك (Aranyaka) أو الغابيات أي الهدايات والارشادات التي تقديم للشيوخ المعمرين الذين يتركون أهليهم في الربع الرابع من

---

(١) سنرى – فيما بعد – فترات الحياة التي ينبغي أن يمضيها الإنسان مع أهله أو في الغابات.

(٢) The Peoples and religions of: Weech and rylands India p .٣٠٧

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

أعمارهم – كما سيأتي – ليقيموا في الكهوف والغابات، والأرنيك تهدى أمثال هؤلاء إلى أعمال سهلة يقومون بها بدل القرابين التي أصبحوا يعجزون عن تقديمها:

٤ – أبانيشادات (Upanishad) وهى الأسرار والمشاهدات النفسية للعرفاء من الصوفية، وتدون هذه إرشادا للرهبان والمتنسكين الذين مالوا إلى باطن الحياة وتركوا ظاهرها، وتمثل الأبانيشادات مذهب الروح الذي هو المرتبة العليا في سلسلة الارتقاء الديني.

وتعتبر الأبانيشادات خطوة جريئة في سبيل الحرية الدينية وتخليص الدين من الرسوم البرهمية، وبها أبعدت الآلهة أو قل الاهتمام بها، وهدأت الأدعية وندرت القرابين، وانحطت المراقبات اللاهوتية، وحل العلم والعرفان محل ذلك، ولولا بقايا من الشعور الديني لكانت الأبانيشادات فلسفة محضة.

والناظر إلى هذه الأقسام الأربعة يلاحظ أن السمهتا تمثل دين الفطرة أو الفكر البدائي، أما البراهمن فيمثل مذهب القانون ودين الأمة التي تركت البداوة ولم تتعمق بعد في الحضارة، أما الأرنيك فينقل الفكر من القانون إلى الروح فهو معبر تاريخي، وتجئ بعده الأبانيشادات حيث مذهب الروح الذي هو المرتبة العليا في سلسلة الارتقاء الديني، وقد وضعت الأبانيشادات في المدة من ٨٠٠ إلى ٦٠٠ ق م (١).

نماذج من الويدا:

فيما يلي نماذج من الريج ويدا مترجمة عن السنسكريتية:

---

(١) المرجع السابق ص ٦ – ٧ وانظر كذلك
Religions of World of Berry p .٤٠ .

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

أغنية لاندرا إله الآلهة (١)
هو الأعلى من كل شئ وهو الأسنى
إله الآلهة ذو القوة العليا
الذي أمام قدرته الغالبة
ترتعد الأرض والسماوات العالية
أيها الناس استمعوا لشعري
إنما هو إندرا إله الكون
هو الذي قهر الشياطين في السحاب
وأجرى الأقمار السبعة الصافية الكبار
واقتحم كهوف الكآبة والأكدار
وأخرج البقرات الجميلة من الأرحام
وأضاء النار القديمة من البرق في الغمام
ذلك هو إندرا البطل الجسور
الجيش المتقدم للهيجاء
يناديه للنصرة يوم الحرب
الأعزاء بصيته الذائع يهتفون
والأذلاء يذكرون اسمه بشفاههم ويهمسون
وقائد الجيش على العجلة الحربية
يدعو ويستنصر إندرا إله الحرب
الأرض والسماء تعترفان بسلطانه وكماله
والجبال المرتعدة تخر له وتسجد لجلاله

---

(١) من ترجمة الأستاذ محمود علي خان.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

هو الذي يرسل صواعق السماء على أعدائه
فلتهد إليه السكائب المقدسة
فإنه يقبل هذه الخمر خمر سوما
ويستمع للشعر وأغاني الولاء
له البقرات وأفراس الوغى
له القرى والمساكن وعجلات الحرب
هو يرفع الشمس بيده اليمنى
ويفتح الأبواب الحمر من شفق الفجر
فيمرق السحاب الأحمر تمزيقا
ويرسل شآبيب المطر لنصدق به تصديقا
أغنية للشمس
يجئ بالشمس جيادها الحمر، فيصل الفجر العظيم الجميل الذي ينعش الجميع بضيائه، وتأتي الإلاهة على مركبة فخمة وتوقظ الإنسان ليقوم بعمل نافع.
أغنية لأغنى إله النار
حينما أرى هذا الكائن المنير في قلبي تدوي أذناي وتختلج عيناي، وتتيه نفسي في ارتياب، فماذا أقول وماذا أفكر؟
فيا أغنى مجدتك جميع الآلهة واجفة ما تواريت في الظلام.
وسيأتي مزيد من الاقتباسات من الويدا عند الكلام عن النقاط الأخرى المتصلة بالهندوسية.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

٢ – الله في التفكير الهندوسي

يوجد في التفكير الهندوسي فيما يختص بالإله نزهتان مختلفتان تمام الاختلاف، وهما نزعة الوحدانية ونزهة التعدد، وإن كانت نزعة التعدد أقوى وأكثر انتشارا.

وقد بلغ التعدد عند الهنود مبلغا كبيرا، فقد كان عندهم كما سبق القول لكل قوة طبيعية تنفعهم أو تضرهم إله يعدونه ويستنصرون به في الشدائد كالماء والنار والأنهار والجبال وغيرها، وكانوا يدعون تلك الآلهة لتبارك لهم في ذريتهم وأموالهم من المواشي والغلات والثمار وتنصرهم على أعدائهم (١).

ولم يصل الهندوس إلى عبادة هذه الظواهر دفعة واحدة، وإنما مروا بمراحل انتهت بهم إلى عبادتها. ويصور الأستاذ محمد عبد السلام مراحل هذا الانتقال بقوله. وكانت المظاهر الكونية الجميلة والمناظر العظيمة باعثة لإيقاظ الشعور الديني فيهم، فأعجبوا بهذه المظاهر واستمتعوا بها، وشكروا لها وامتنوا، وأثنوا عليها، ثم ظنوا أن لهذه المظاهر أرواحا ونفوسا كما أن لهم هم أرواحا ونفوسا، واعتبروا هذه الأرواح قوى كامنة وراء المظاهر وبيدها أن تمنحهم هذه المظاهر التي أعجبتهم أو تحجبها عنهم، فتقربوا إليها بالعبادة والقرابين واعتبروها آلهة. ودعوها عند الحاجات (٢).

وعلى هذا كثرت الآلهة عندهم كثرة زائدة، ولكنهم في وسط هذا التعدد كانوا يميلون أحيانا للتوحيد أو اتجاه قريب منه، فقد كانوا إذا دعوا إلها من آلهتهم أو أثنوا عليه أو تقربوا إليه بقربان، أقبلوا عليه بكل عواطفهم وجل ميولهم حتى يغيب عن أعينهم سائر الآلهة

---

(١) محمود علي خان: في التقديم لاناشنيد الريج ويدا ص ٧٧.

(٢) فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند مارس ١٩٥٣ ص ١٠).

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

والأرباب (١)، ويصير إلههم هو ذلك الإله لا غير، فيسمونه بكل اسم حسن ويصفونه بكل صفة كمالية، ويخاطبونه برب الأرباب وإله الآلهة تعظيما وإجلالا لا تحقيقا وإيقانا، وإذا عطفوا إلى إله غيره أقاموه مقام الأول وجعلوه رب الأرباب وإله الآلهة، فهذا التعبير " رب الأرباب أو إله الآلهة " كان أولا يدل على العظمة والجلال، فلما مضت القرون على هذا النحو أصبح هذا التعبير ثابت المعنى، أي أنهم اعتقدوا فعلا أن في صف الآلهة رئيسا ومرؤوسين وآمرا ومأمورين، وأن الرئيس والآمر هو وحده رب الأرباب وإله الآلهة، وهذا وصف ثابت له لا ينتقل إلى سواه، والكائنات كلها تحت يده وسائر الآلهة تحت أمره (٢).

التثليث في الفكر الهندي:

وحوالي القرن التاسع قبل الميلاد وصل فكر الكهنة الهنود إلى إبراز هذه النتيجة التي تقرب من التوحيد أو تصل إليه، فقد جمعوا الآلهة في إله واحد، وقالوا إنه هو الذي أخرج العالم من ذاته، وهو الذي يحفظه إلى أن يهلكه ويرده إليه، وأطلقوا عليه ثلاثة أسماء، فهو براهما من حيث هو موجد، وهو فشنو من حيث هو حافظ، وهو سيفا من حيث هو مهلك (٣).

وهكذا فتح الكهنة الهنود الباب للمسيحيين فيما يسمى: تثليث في وحدة ووحدة في تثليث (٤).

---

(١). ٦. by Le Wis Renou p, Ed, Hinduism

(٢) محمد عبد السلام: المرجع السابق بتصرف.

(٣) دكتور إبراهيم مدكور ودكتور يوسف كرم: دروس في تاريخ الفلسفة ص ١٢

Reigions of the World p: Berry .٤٠ Ed, se also Hidium , by Le wis Renou p .٦ .

(٤) أنظر كتاب " المسيحية " للمؤلف ص ٧٨ وما بعدها.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

تمثال الإله " سيفا " رب الدمار
(م – ٤ أديان الهند)

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

فبرهما اسم الله في اللغة السنسكريتية، وهو عند البراهمة الإله الموجود بذاته، لا تدركه الحواس. ويدركه العقل، وهو مصدر الكائنات كلها، لا حد له: وهو الأصل الأزلي المستقل الذي منه يستمد العالم وجوده، وجاء في كتاب (الباجافاتا بورانا) وعو من الكتب الهندية المقدسة أن كاهنا توجه إلى الآلهة برهما وفشنو وسيفا وسألهم: أيكم الإله بحق؟ فأجابوا جميعا: اعلم أيها الكاهن أنه لا يوجد أدنى فارق بيننا نحن الثلاثة، فإن الإله الواحد يظهر بثلاثة أشكال بأعماله من خلق وحفظ وإعدام، ولكنه في الحقيقة واحد، فمن يعبد أحد الثلاثة فكأنه عبدها جميعا، أو عبد الواحد الأعلى (١)

وقد سبق أن ذكرنا أن هذا الثالوث الجديد ظهر متأخرا نتيجة للتطور الذي سقناه، ومن أجل هذا ليس له ذكر في الويدا، أما الآلهة الواردة بالويدات فعديدة، ولكنها اجتمعت في ثلاثة آلهة رئيسية هم: نارونا في السماء، وإندرا في الهواء، وأغنى على الأرض (٢).

وقبل أن نطوي صفحة الكلام عن آلهة الهنود يجدر بنا أن نقتبس من كتاب Hinduism وصفه الرائع للاحتفال بالمعبودات الهندية، ومن هذا الكتاب يتضح أن من أهم الشعائر الدينية أن يعد التمثال أحسن إعداد. وأن يقام في المعبد، ويعامله عباده كأنه حي يسمع ويعي، يدهنونه بالزيوت ويضمخونه بالطيب، ويحتفي بالإله الجديد الذي يدخل المعبد لأول مرة احتفاء واسعا، يتجه الكل للترحيب به، وحسن استقباله، كأنه ضيف عظيم، يغسل بالعطور، ويكسى بأحسن اللباس، ويزين بالجوهر واللؤلؤ، ويوضع أمامه أحسن طعام وأشهى شراب،

---

(١) محمد فريد وجدي: دائرة المعارف ج ٢ ص ١٥٤ - ١٥٥.
(٢) المرجع السابق ص ١٥٥ و ١٥٦.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ويحاط بالزهر والريحان، وتطوف به الجماعة منحنية ضارعة، على أنغام الموسيقى، ودخان البخور، وأصوات الغناء.
ويستمر هذا الكتاب ليقرر أن بعض الهنود يرون في التمثال إلههم، ويراه آخرون رمزا للإله. ويخضع العابد إلى شعائر دقيقة لتقبل توسلاته وعبادته، فهو يبدأ بأن ينظف نفسه، ويقلل من الطعام أو يصوم، ويتخذ أمام إلهه جلسة خاصة، ويشير إليه بإصبعه في خضوع، ويحبس أنفاسه ما أمكن، وهذه الصلاة تتكرر ثلاث مرات في اليوم ويصحبها قربان من أي نوع، ولا يطول وقتها في العادة إلا بالنسبة لهؤلاء الذين لهم مطلب يرجون عون الآلهة لتحقيقه -. أو أولئك الذين يميلون للنسك ويريدون مزيدا من التقرب للآلهة، فأمثال هؤلاء يقدمون قرابين أكبر وتطول صلاتهم أمام الآلهة. (١)
والاحتفالات أو الصلوات اليومية يمكن أن تجري في البيت، إذ لا يكاد يخلو بيت من معبود، أما الاحتفالات العامة فتجري في المعبد أو في الخلاء، ويستغرق بعضها ساعة أو ساعات، ويمتد بعضها إلى عدة أيام، وبعضها يتصل بمواسم زراعية أو فيضان أنها أو هطول أمطار، وبعضها يتصل بالمعبود نفسه، بما يشبه ما نسميه في البلاد العربية " المولد " وبعض المعبودات له شهرة واسعة تجلب له الحجاج في أثناء الاحتفال به من أقاصي شبه الجزيرة، وبعضها يحتفل به احتفالا محليا أي في القرية أو في مجموعة القرى المتجاورة فقط، وهكذا.
وقد ورد الحديث عن برهما وعن خلق الكون في كتاب " قوانين منو " ومنه ننقل الفقرة التالية التي تشرح هذا الموضوع:

---

(١). Hinduism pp ١٥ - ١٦.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

في المبدأ كان الكون مغمورا في غيابة الظلام، ولا يمكن إدراكه، وخال من كل وصف مميز، لا يستطاع تصوره بالعقل، ولا بالوحي، كأنه في سبات عميق، وانقضى على هذا أمد طويل، ثم تعلقت إرادة المولى الموجود بذاته التي لا تدركها الأبصار، فجعل هذا العالم مرئيا هو وعناصره الخمسة وأصوله الأخرى، متلألئا بالنور الأقدس، قاشما الظلام الحالك، فاقتضت حكمة برهما الذي لا يدركه إلا العقل أن يبرز من مادته المخلوقات المختلفة، فأوجد الماء أولا، ووضع فيه جرثومة، فصارت الجرثومة بيضة لامعة لمعان الذهب، وعاشت داخلها الذات الصلبة على صورة برهما وهو جد جميع الكائنات، فبعد أن لبث برهما في البيضة سنة برهمية وهى تعادل ملايين السنين البشرية قسم المولى بمحض إرادته هذه البيضة قسمين وصنع منهما السماء والأرض والكائنات... وعين لكل كائن اسمه، وخلق عددا عديدا من الآلهة وخلق طائفة غير مرئية من الجن، وخلق الزمان وأقسامه، والكواكب والأنهار والبحار والجبال... (١).

وهناك رواية أخرى عن خلق الكون ترويها الأساطير الهندية، وفحوى هذه الرواية أن الروح الكوني تشكل بالشكل الإنساني، ثم نظر حوله فلم يجد هناك شيئا غير نفسه، فصرخ بملء فيه " هأنذا " فوجدت من هذه الساعة كلمة " أنا " ولذلك فأول ما يقول الإنسان إلى الآن عند كلامه عن نفسه " أنا " وشعر هذا الروح الكوني، أو الإنسان الأول بالخوف من وحدته، ولذلك يخاف الإنسان إلى الآن إذا كان وحيدا، ولكنه سأل نفسه: لماذا أخاف ما دام ليس هناك أحد غيري، وإنما يخاف الإنسان من غيره؟ ووجد نفسه لا يشعر بالسعادة ولذلك لا يشعر

---

(١) انظر أيضا دائرة معارف القرن العشرين ج ٢ ص ١٥٧ - ١٥٨ وانظر الأساطير الهندية عن الكون وخلقه ص ٣٧.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الإنسان بالسعادة إذا كان وحيدا، فرغب في إيجاد قرين له، فقسم نفسه قسمين، قسم بقي على حاله، وتحول القسم الآخر إلى امرأة فكانت هذه المرأة زوجته، ومن تلك الساعة تسلسل خلق الإنسان (١).

ونختم كلامنا عن الآلهة بإبراز أن هذه هي الآلهة عند طبقات الهندوس الأربعة التي يتكون منها المجتمع الهندوسي، أما المنبوذون فلهم تفكيرهم الديني الخاص، إذ لم يكونوا محسوبين أعضاء بذلك المجتمع، ولم يكونوا تابعين للمجتمع الهندوسي، ولعل من الأفضل أن نتكلم هنا كلمة موجزة عن عقائدهم ووضعهم السياسي والاجتماعي في عهد سيطرة الهندوسية.

دين المنبوذين:

المنبوذون - كما سبق القول - سكان الهند الأصليون الذين لا يجري في عروقهم الدم التوراني أو الدم الآري، ويسمون " زنوج الهند " وقد حرمهم المجتمع الهندوسي حقوق الإنسان، ونزل بهم إلى مستوى أقل أحيانا من مستوى الحيوان، ولم يسمح لهم بأن يعتنقوا الدين الهندوسي، أو يتخلقوا بآدابه، وتركوا هكذا في حياة بدائية مريرة، ومن ثم اتجهوا في تدينهم إلى الأمور البدائية، فأصبح دينهم أشبه بعبادة الأرواح التي اعتصمت بها الأقوام الفطرية الساذجة، وأعظم الآلهة في مجتمع المنبوذين ربما كان كومة من الآجر تمثل أم القرية أو شيطانها الذي يمنح الخصب للعواقر، ويحمى المحصول من الآفات، ويرعى القرية بعنايته ورعايته، وقد يكون للمنبوذ فكرة غامضة مبهمة عن كائن سام عظيم، ولكنه إلى جانب ذلك يؤمن بجملة من الأرواح الشريرة (٢)

ولا يزال المنبوذون يعانون هذا أو أكثره حتى اليوم، فالحرف الحقيرة

---

(١) الأساطير الهندية عن الكون وخلقه ص ٣٤.

(٢) حبيب سعيد: أديان العالم الكبرى ص ٢٨ - ٣٩.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وقف عليهم، ودور العلم لا تفتح لهم إلا قليلا، وقد دفع هذا الوضع برؤسائهم أن يهددوا باعتزال الهندوس والدخول في مجتمعات الأديان الأخرى، ومن أجل هذا فقط خفت حدة المعاملة التي كان يعاملهم بها الهندوس، خوفا من أن ينضموا إلى الأديان الأخرى التي تحارب الهندوسية، وساعد على ذلك ما أصدرته الحكومة الهندية من قوانين المساواة التي إن لم تحقق المساواة الكاملة، فقد حسنت حال هؤلاء المساكين بعض الشئ.

وقد انتهزت فرق التبشير المسيحي هذا الوضع فتوغلت بين جماعات المنبوذين تدعوهم للدخول في المسيحية، وللمسلمين - للأسف - جهود محدودة نحو تقديم الإسلام لهؤلاء المنبوذين، ولا تزال المعركة تدور.

٣ - الطبقات في الفكر الهندوسي

سبق أن أشرنا إلى نظام الطبقات في الهند، وقلنا إنه نشأ عن التقاء الآريين بالتورانيين والسكان الأصليين، ومعنى هذا أنه نشأ أول ما نشأ على أساس الجنس، ويؤيد Weech هذا الرأي، فهو يقول: وكان الآريون شعبا يفوق في نشاطه وحيويته السكان الأصليين، وكانوا يعتقدون اعتقادا جازما بسمو جنسهم على سواهم من الأجناس، وكلمة " آري " التي عرفوا بها معناها " النبلاء " (١).

ونحن في مصدر هذا التقسيم نختلف مع مؤلف " تاريخ الإسلام في الهند " فهو يرى أن الحياة بالهند " اقتضت أن يقوم بعض الناس بالطقوس الدينية، ويقوم آخرون بالحروب، وكان من الطبيعي أن توجد جماعة تقوم بالعمل في الحقول.... (٢) " ونسأل: إذا كان الأمر كذلك فلماذا لم يكن الآريون مثلا هم الذين يقومون بالزراعة أو الخدمة؟ إن المسألة - فيما نرى -

---

(١) ٣١١ - ٣١٢. The peoples and Religions of India pp. Weech

(٢) تاريخ الإسلام في الهند ص ٢٧ - ٢٨.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ليست مقتضيات الحياة، ولكنها مقتضيات السيادة والقوة التي لاحظها الآريون في أنفسهم.
ونختلف كذلك مع بروفسور أتريا الأستاذ بجامعة بنارس في الهند الذي يرى أن الهنود القدماء نظموا حياتهم الاجتماعية على طبقات أسموها شاتر فارنا Chatur varna " وهذا التنظيم قائم على أساس اختيار المهن، ولا يمت بصلة إلى هذه الطائفية الممقوتة الحاضرة التي ابتليت بها الهند، لأنها ابتليت بالحكم الأجنبي الذي دام عدة قرون، وإن نظام الطبقات ما أريد به قط تمزيق المجتمع بل توحيده على أساس تقسيم العمل.... فمن الناس قسم يولع بالعلم فيترك له العلم ويكون طبقة البراهمة، والقسم الثاني هواه في الحكم والسلطان وأعمال الجراءة والحرب ومنهم تتكون الكشتريا، والقسم الثالث أولئك الذين جبلوا على حب المال فليكونوا تجارا وزراعا (ويشيا). والقسم والرابع الذين خلقوا أغبياء بلداء فلا يصلحون لغير المهن السافلة والقيام بالخدمة وتتكون منهم طبقة الشودرا " (١).
ونسأل بروفسور أتريا: هل لو مال أحد من الشودرا للعلم وعشقه كان يباح له أن يصبح برهميا؟ وألا يوجد في طبقة الكشتريا خامل أو بليد؟ وإذا وجد بها خامل أو بليد هل يمكن أن ننحدر به إلى طبقة الشودرا؟ الإجابة دائما بالنفي، فالطبقية مصدرها العرق وسيادة الجنس أكثر من أي شئ آخر.
ويقول Wells عن هذه الطبقات: كان المجتمع الهندي بعد الغزو الآري مقسما إلى طبقات لا يؤاكل بعضها بعضا، ولا تتزاوج، ولا تختلط

---

(١) ثقافة الهند وحياتها الروحية والأخلاقية والاجتماعية ص ٥٢ - ٥٣.
(٢). ١٢٢ - ١٢١. p. A short History of the World p

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

اختلاطا حرا، ثم استمر هذا التقسيم الطبقي أمد التاريخ كله، وهذا أمر من شأنه أن يجعل سكان الهند شيئا يخالف المجتمعات الأوربية والمغولية، البسيطة السهلة التزاوج، فهو في الحقيقة مجتمع مجتمعات.

ويشير Weech إلى نقطة مهمة هي أن نظام الطبقات بدأ يظهر عندما بدأ اختلاط سمح بتكون مجتمع موحد من هذه العناصر المتباينة، أما قبل هذا الاختلاط فلم تكن هناك ضرورة لتكوين هذا النظام، فنظام الطبقات كان وسيلة للمحافظة على سلامة العرق السامي بعد أن خيف عليه من الاندماج في الأجناس الأخرى التي بدأ يتصل بها. ويؤكد Berry ذلك إذ يقرر أن نظام الطبقات لم يظهر إلا في قوانين منو حوالي القرن الثالث قبل الميلاد (١).

ويذكر Weech كذلك أن هذه الطبقات الأربعة ليست في الحقيقة إلا تبسيطا للحديث عن نظام الطبقات في الهند، إذ أن الهنود مجتمع تنتشر فيه الطبقات حتى أن عدد طبقاته الآن يبلغ حوالي ثلاثة آلاف طبقة (٢).

ويذكر Berry أن طبقة الكهنة حافظت طويلا على نقائها، أما الطبقات الثلاثة الأخرى فقد تفتتت ونشأ عنها طبقات كثيرة (٣).

بقي أن نقول عن المنبوذين إنهم لم يدخلوا التقسيم، ولم يكونوا إحدى طبقات المجتمع الهندوسي، إذا لم يعدوا منه، وقد سبقت الإشارة إلى هذا.

على أن الفلسفة الهندية لم تقنع بالجنس والعنصر سببا لنشأة نظام الطبقات، بل رأت أن تربطه بنص مقدس، فورد في قوانين " منو " التي اقتبسنا منها بعض فقراتها آنفا سبب هذه الطبقات، يقول منو وهو يعدد خلق برهما للكائنات:

"..... ثم خلق البرهمى من فمه، والكاشتريا من ذراعه،

---

(١) Religions of the World p .٤٠ .

(٢) Thepeoples and Religions of India p .٣١٤

(٣) Religions of the World p .٤٢ .

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

والويشيا من فخذه، والشودرا من رجله، فكان لكل من هذه الطبقات منزلته على هذا النحو ".

وبناء على هذا التفكير الذي يرى أن الطبقات خلقها الله على هذا الوضع يصبح هذا التقسيم أبديا، فهو من صنع الله ولا طريق لإزالته، وعلى هذا لا يرتفع أي شخص من أي قسم إلى قسم أعلى.

وبناء عليه كذلك، وعلى الاعتقاد بأن الابن يأتي على نمط أبيه، لا يجوز لرجل أن يتزوج امرأة من طبقة أعلى من طبقته، لعدم الكفاءة. ولأن أولاده منها سيهبطون إلى مستواه، وهذه خسارة على التكوين الاجتماعي، ولكن يجوز للرجل أن يتزوج امرأة من طبقة أقل من طبقته على ألا تكون من الطبقة الرابعة (الشودرا) التي ليست إلا للخدمة، ولا تسمو لأن يتزوج منها أحد أفراد الطبقات العليا الثلاثة، وجاء في قوانين " منو " أن الرجل من الطوائف الثلاثة الشريفة إن غلبه الحب فتزوج بامرأة من غير هذه الطوائف فإنه سوف يرى هلاك أسرته (١).

ويتبع نظام الطبقات كذلك أن تلاحظ أسماء الأطفال من كل طبقة، فيختار الاسم من الكلمات الدالة على البهجة والسرور إن كان برهميا، وعلى الحول والقوة إن كان كشتريا، وعلى الغنى والثروة إن كان ويشيا، وعلى الذل والمهانة إن كان شودرا (٢).

وتلتقي هذه الطبقات الأربعة في الاعتقاد بالآلهة، وكلها تقدس البقرة.

وكلها تخضع للنظام الطبقي، والبراهمة هم ملجأ الجميع في حالات الميلاد والزواج والوفاة (٣).

---

(١) الفقه الهندوسي الأكبر ص ٦٣.

(٢) الفقه الهندوسي الأكبر ونفس الصفحة.

(٣). ٣٥ - ٣٤. See Hinduism p

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وقد تحدثت شرائع " منو " بالتفصيل عن وظائف كل طبقة على النحو الآتي: ولكل طبقة من طبقات المجتمع الهندوسي وظائفها وواجباتها، فعلى البرهمى أن يشتغل بالتعلم والتعليم، وبإرشاد الناس في دينهم، فكان هو المعلم والكاهن والقاضي، أما كشتريا فكانت وظيفته أن يتعلم ويقدم القرابين، وينفق في الصدقات، ويحمل السلاح للدفاع عن وطنه وشعبه، أما ويشيا فعليه أن يزرع ويتجر ويجمع المال وينفق على المعاهد العلمية والدينية، وأما شودرا فعليه أن يخدم الطوائف الثلاثة الشريفة (١).

ومن شرائع " منو " ورد بعض النصوص التي تقرر اختصاصات كل طبقة:

البراهمة:

" يقوم البراهمة بدرس أسفار الويدا، وتعليمها، وتبريك تقديم القرابين التي لا تقبل من الناس إلا عن طريقهم. ويجب أن يحافظ البرهمي على كنز الشرائع المدنية والدينية.

" وإذا ولد برهمي وضع في الصف الأول من صفوف الدنيا.

" البرهمي محل لاحترام جميع الآلهة بسبب نسبه وحده. وأحكامه حجة في العالم. والكتاب المقدس هو الذي يمنحه هذا الامتياز.

" كل ما في العالم ملك البرهمي. وللبرهمي حق في كل موجود.

" والبرهمي إذا ما افتقر حق له أن يمتلك مال الشودري الذي هو عبد له. من غير أن يجازيه الملك على ما فعل. فالعبد وما يملك لسيده.

" ولن يدنس البرهمي بذنب ولو قتل العوالم الثلاثة ".

" ولا ينبغي للملك أن يجبي خراجا من برهمي عالم بالكتاب المقدس ولو مات الملك محتاجا. ولا يجوز له أن يصبر على جوع برهمي في ولايته.

---

(١) الفقه الهندوسي الأكبر.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

" وليتجنب الملك قتل برهمي ولو اقترف جميع الجرائم، وليطرده – إذا رأى – من مملكته، على أن يترك له جميع أمواله وألا يصيبه بأذى.
" وعلى الملك ألا يقطع أمرا مهما كان دون استشارة البراهمة ".

الأكشترية:

" إن الذين تغذت عقولهم بكتب ويدا وغيرها هم الذين يصلحون لأن يكونوا قوادا أو ملوكا أو قضاة أو حكاما للناس.
" ينصب الملك من الأكشترية، وللملك على الأكشترية احترام الجنود لقائدهم.
" ويجب ألا يستخف بالملك ولو كان طفلا، وذلك بأن يقال إنه إنسان، فالألوهية تتجسم في صورة الملك البشرية.
" ولا يجوز للأكشتري أن يشتغل بغير الجندية. والأكشتري يعيش جنديا حتى في وقت السلم.
" وعلى الأكشترية أن يتجمعوا عند أول نداء. وعلى الملك أن يعد لهم عدد الحرب وأسلحته.
" لا تبارك موارد الملك ووسائله ولو نال كنوزا واكتسب أملاكا إلا إذا أصبح صديقا للضعيف ".

الويشية:

" يجب على الويشي أن يتزوج امرأة من طائفته، وأن يعني جادا بمهنته، ويربي الماشية على الدوام.
" وعلى التجار منهم معرفة ووانين التجارة ونظم الربا.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

" وليعلم الويشي جيدا كيف يبذر الحبوب، وليفرق بين الأرض الجيدة والأرض الرديئة، وليطلع على نظام الموازين والمكاييل اطلاعا كافيا.
" وليعرف أجر الخدم ولغات الناس، وما تحفظ به السلع، وكل ما يمت إلى البيع والشراء بصلة.

الشودرا:

" يجب على الشودري أن يمتثل امتثالا مطلقا أوامر البراهمة، سادة الدار العارفين بالكتب المقدسة والمشتهرين بالفضائل، فترجى له السعادة بعد موته ببعث أسمى.
" لا يجوز للشودري أن يجمع ثروات زائدة ولو كان على ذلك من القادرين، فالشودري إذا جمع ما لا آذى البراهمة بقحته.
" ويجب نفي ابن الطبقة الدنيا الذي تحدثه نفسه بأن يساوي رجلا من طبقة أعلى من طبقته وأن يومم تحت الورك.
" وتقطع يده إذا علا من هو أعلى منه بيده أو بعصاه، وتقطع رجله إذا رفسه برجله.
" وإذا ما دعاه باسمه أو باسم طائفته بدون تقدير أدخل إلى فمه خنجر محمي متلوث النصل طوله عشرة قراريط.
" ويأمر الملك بصب زيت حار في فمه وفي أذنيه إذا بلغ من الوقاحة ما يبدي به رأيا لابراهمة في أمور وظائفهم.

* * *

ولا يزال النظام الطبقي سائدا في الهند وقد اتخذ أحيانا أسسا جديدة، فمن ذلك مثلا أتباع مذهب " السك " الذي أنشئ لخلق دين موحد من الهندوسية والإسلام، ولم يفلح هؤلاء فيما قصدوا إليه، ولكنهم

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

سرعان ما اتخذوا من مذهبهم أساسا لنظام طبقي، فقد عدوا أنفسهم طبقة ورفضوا التزاوج مع سواهم، ومنها كذلك نظام القرية الذي لا يسمح أحيانا بالزواج بين سكانها وسكان قرية أخرى (١).

وهناك محاولات تزعمها الزعيم، غاندي للتخفيف من حدة هذه الطبقات أو إزالتها، وكذلك لإنصاف طبقة المنبوذين بوجه خاص، ولكن هذه المحاولات لم يقدر لها النجاح بعد، وكان الزعيم غاندي ضحية من ضحاياها، وتعتمد هذه المحاولات على اتجاه فلسفي جديد لهذا التقسيم، بأن تذكر بأنه ليس خلقيا ولا طبيعيا، وليس إلا ترزيعا للأعمال حسب طبع كل إنسان وميله واستعداده (٢) كما مر.

٤ – أهم عقائد الهندوسية

أهم العقائد في الديانة الهندوسية أربعة، هي:

١ – الكرما ٢ – تناسخ الأرواح أو تجوال الروح.

٣ – الانطلاق ٤ – وحدة الوجود.

وسنشرح فيما يلي رأي الهندوس في كل من هذه العقائد:

١ – الكارما:

يقول البروفسور أتريا (٣): إن الشهوة أقوى عامل في حياتنا، ولكن شهواتنا تؤثر على الآخرين، فنحن في أعمالنا التي تفرضها الشهوات نحسن إلى الآخرين أو نسئ، فلا بد أن ينطبق علينا " قانون الجزاء " المسيطر

---

(١). ٣٥ - ٣٤. See Hinduism p

(٢) أنظر كتاب كرشناكيتا (ثقافة الهند يونيو ١٩٥٠ ص ٥٢، يونيو ١٩٥٢ ص ٥٧).

(٣) ثقافة الهند وحياتها الروحية والأخلاقية والاجتماعية ص ٤٢ – ٤٣.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

على حياة سائر الأحياء الحرة في الكون، وقانون الجزاء يسمى في اللغة السنسكريتية (karma) وليس لاحد أن يتملص منه، وقد جاء في كتاب " يوغا واسستها " ما يلي: ليس في الكون مكان – لا الجبال، ولا السماوات، ولا البحار، ولا الجنات – يفر إليه المرء من جزاء أعماله، حسنة كانت أو سيئة (١).

وجميع أعمال البشر الاختيارية التي تؤثر في الآخرين، خيرا كانت أو شرا، لا بد من أن يجازى عليها بالثواب أو العقاب طبقا لناموس العدل الصارم، فنظام الكون إلهي قائم على العدل المحض، وإن العدل الكوني قضى بالجزاء لكل عمل، وإن في الطبيعة نوعا من النظام لا يترك صغيرة ولا كبيرة من أعمال الناس بدون إحصاء، وبعد إحصائها ينال كل شخص جزاءه على عمله، ويكون الجزاء في الحياة (٢).

ولكن الهندوس لاحظوا من واقع الحياة أن الجزاء قد لا يقع، فالظالم قد ينتهي دون أن يقتص منه، والمحسن قد ينتهى دون أن يحسن إليه، ولذلك لجأوا إلى القول بتناسخ الأرواح – وسنشرح هذا فيما بعد – ليقع الجزاء في الحياة القادمة إذا لم يتم في الحياة الحاضرة.

ويبدو أن بروفسور أتريا لاحظ صعوبة فهم هذا القانون فتدارك هذا قائلا: لا صعوبة علينا معشر الهندوس في فهم هذا الناموس، ناموس كارما وإن لم يسهل على غيرنا فهمه.

وتحاول فلسفة اليوجا تقريب موضوع الكارما إلى الأذهان فتذكر أن حياتنا تكون سارة أو غير سارة تبعا لما وضعنا لها من أسباب بما قدمنا من أعمال، وهذا يشبه ما يقال عندما تقع مصيبة على شخص

---

(١) Yigs Vasitha III p .٩٥ .

(٢) The History of Buddhist Thoughlp: Edward Thomas .١٠٧

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

فإننا نقول: " من عمله " إذ الجزاء من جنس العمل، ولكننا نعرف هذا في نفس الحياة فالظالم يظلم والمعين يعان، ولكن الكارما تجعل جزاء حياة في حياة أخرى (١).

٢ - تناسخ الأرواح:

يطلق بعض الباحثين على هذه العقيدة تعبيرا اصطلاحيا آخر هو: " تجوال الروح " وقد يطلق عليها " التناسخ " فقط، ويطلق عليها كذلك " تكرار المولد "، والتناسخ رجوع الروح بعد خروجها من جسم إلى العالم الأرضي في جسم آخر.

وسبب التناسخ أو تكرار المولد هو (أولا) أن الروح خرجت من الجسم ولا تزال لها أهواء وشهوات مرتبطة بالعالم المادي لم تتحقق بعد، و (ثانيا) إنها خرجت من الجسم وعليها ديون كثيرة في علاقاتها بالآخرين لا بد من أدائها. فلا مناص إذا من أن تستوفي شهواتها في حيوات أخرى، وأن تتذوق الروح ثمار أعمالها التي قامت بها في حياتها السابقة (٢).

فالميل يستلزم الإرادة، والإرادة تستلزم الفعل في هذا الجسد، وإن لم يصلح هذا ففي جسد غيره، فقد خلقت الميول لتستوفي، وإذا لم تستوف لم ينج الإنسان من تكرار المولد، وإذا اكتملت الميول ولم يبق للإنسان شهوة ما، وأزيلت الديون فلم يرتكب الإنسان إثما ولم يقم بحسنة تستوجب الثواب، ونجت روح وتخلصت من تكرار المولد، وامتزجت بالبرهما، وسواء كان الاكتمال في جسد واحد أو أجساد متعددة (٣).

---

(١) فلسفة الكارما تأليف يوجى راما شاراكا تعريب عريان يوسف ص ١٦٧ وراجع هامش المترجم.

(٢) بروفسور اتربا: ثقافة الهند ووجهاتها الروحية ص ٤٢.

(٣) محمد عبد السلام: فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند مارس ١٩٥٣ ص ٣٠).

وانظر كذلك:. ٤١. Religions of the world p: Berry

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

فجسد الإنسان المادي هو الذي يولد من جسدي الوالدين، وأما الذي يحركه وينشطه ويسيطر عليه فجسد لطيف يتركب من القوى الأساسية والحواس والقوى الآلية المحركة، والعناصر اللطيفة، والعقل. فإذا حدث ما نسميه الموت، مات الجسد المادي وتوقف وبلى، أما الجسد اللطيف فلا يموت بل يخرج ويعمل مدة من الزمن في آفاق الكون اللطيفة التي تشبه حالة أحلامنا، فيجرب هناك الجنة والنار التي تكلمت عنها الكتب الدينية، ثم يعود - مسوقا بالميول والأعمال الماضية - كرة أخرى إلى هذه الحياة متقمصا جسدا جديدا، وتبدأ بذلك دورة جديدة لهذه الروح، وتكون هذه الدورة نتيجة للدورة الماضية، فتوجد الروح في إنسان أو حيوان أو ثعبان، ويسعد أو يشقى نتيجة لما قدم من عمل في حياته السابقة (١).

ومن الشروط اللازمة لتجوال الروح، أن الروح في عالمها الجديد لا تذكر شيئا عن عالمها السابق، فكل دورة منقطعة تماما بالنسبة للروح عن سواها من الدورات (٢).

وهنا نجد الديانة الهندوسية تلتقي مع الأديان السماوية في جانب، ولكنها سرعان ما تبتعد عنها، فنقطة الالتقاء هي خلود الروح وحسابها على ما قدمت، ولكن الأديان السماوية ترى الروح كائنا مستقلا بجسم، فهو يحاسب على ما ارتكب مع هذا الجسم، ويتم الحساب بعد أن يعترف الإنسان بأخطائه ويذكره بها لسانه الذي نطق، ويده التي امتدت، ورجله التي سارت " يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون " (٣)، أما في الهندوسية فهناك انقطاع تام بين الدورتين، ومعنى هذا أن الروح تعاقب على ذنب لا تعرفه ولا تذكره.

---

(١) بروفسور اتريا: المرجع السابق ص ٤٠.

(٢) ويدانت ص ٤٣ و. ٤١. Religions of the World p: Berry

(٣) سورة النور الآية ٢٤.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وترى الأديان السماوية أن الأرض دار بلاء واختبار، وأن الآخرة دار حساب وجزاء، ولكن البرهمية اعتبرت الأرض دار جزاء وثواب.

وقد تسرب القول بالتناسخ إلى قلة من المسلمين، يقول ابن حزم (١): افترق القائلون بتناسخ الأرواح على فرقتين، فذهبت الفرقة الأولى إلى أن الأرواح تنتقل بعد مفارقتها الأجساد إلى أجسام أخرى، وإن لم تكن من نوع الأجساد التي فارقت، وهذا قول أحمد بن حافظ وأحمد بن ناموس تلميذه وأبي مسلم الخراساني ومحمد بن زكريا الرازي الطبيب الذي صرح بذلك في كتابه الموسوم " العلم الإلهي " وهو قول القرامطة، وقال الرازي في بعض كتبه: لولا أنه لا سبيل إلى تخليص الأرواح من الأجساد المتصورة بالصورة البهيمية إلى الأجساد المتصورة بصورة الإنسان إلا بالقتل والذبح لما جاز قتل شئ من الحيوان أو ذبحه ألبته.

وعلق ابن حزم على هذا الاتجاه وهو القول بالتناسخ بأنه دعاوى وخرافات بلا دليل.

ومما تسرب إلى بعض فرق الشيعة متصلا بالتناسخ، القول بالرجعة، فهي عودة الروح لحياة جديدة ولكنها في الرجعة تعود في الجسم، أي أن الشخص نفسه جسما وروحا يعود للحياة بعد الموت، وقد قال بعض الإمامية بعودة علي بن أبي طالب وقال أكثرهم بعودة الإمام الثاني عشر وهو المهدي وسموه " المهدي المنتظر " وقالوا إنه سيعود للأرض فيملؤها عدلا بعد أن ملئت ظلما (٢).

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ١ ص ٩٠.

(٢) أنظر العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ٤٠٨ والجزء الثاني من التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للدكتور أحمد شلبي ص ١٦٥.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

٣ – الانطلاق:
سبق أن تكلمنا عن اكتمال الميول، ونريد هنا أن نزيد هذا الموضوع وضوحا، فنقرر أن معنى اكتمال الميول والشهوات هو توقفها وتغلب الإنسان على نفسه بحيث لا يبقى له شهوة ولا ميلا، بل يقنع بما حصل عليه ولا يتطلب مزيدا، فإذا تم ذلك مع انقطاع عن الأعمال وعن علائق الدنيا وما فيها من ملاذ وعصيان تلك التي تستلزم تكرار المولد، إذا تم له ذلك نجا من تكرار المولد، وامتزج ببرهما، وهذه الحالة هي التي يعبرون عنها بالانطلاق، فالانطلاق هو الامتزاج ببرهما كما تندمج قطرة من ماء بالمحيط العظيم، وهدف الحياة الأسمى هو الانطلاق من دورات الوجود المتوالية والاندماج في الكائن الأسمى، وهذا الانطلاق لا يكتسب بالأعمال لأن الأعمال الصالحة يجازى عليها الإنسان عن طريق الميلاد المتكرر كالأعمال الشريرة تماما (١).
وقد ورد في " أرنيك " ما يلي: من لم يرغب في شئ ولن يرغب، وتحرر من رق الأهواء، واطمأنت نفسه في نفسه، فإنه لا يعاد إلى حواسه، ويتحد بالبرهما فيصير هو، ويصبح الفاني باقيا.
ويؤخذ على هذا المبدأ أنه جعل التصوف والزهد والسلبية أفضل من صالح الأعمال، فهي الطريق للاتحاد بالله، أما صالح الأعمال فتنتج دورة جديدة في الحياة تثاب فيها الروح على ما قدمت من خير في الدورة السابقة.
٤ – وحدة الوجود:
هذا المبدأ وثيق الصلة بالمبادئ السابقة، بل يمكن القول إن هذه المبادئ كلها وثيقة الصلة بعضها ببعض، وقد سبق – عند الحديث عن

---

(١) حبيب سعيد: أديان العالم الكبرى ص ٣٣.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الله في التفكير الهندوسي – أن شرحنا كيف انبثق الكون عن الله، ثم – شرحنا – عند الكلام عن مبدأ الانطلاق – كيف يمكن أن يعود الإنسان إلى الاتحاد بالله، وفي الويدا مزيد لإيضاح الصلة بين الكون وبرهما مما أدى إلى اعتقادهم بوحدة الوجود، ولنقتبس من فلسفة الهند الخطوات التي قادت إلى هذا التفكير. فقد كان الناس يؤمنون بأن في العالم قوة عظمة يلزم التقرب لها بالعبادة والقرابين. وكانت هذه القوة تسمى " براهما " وفي مرحلة تالية لم تعد القرابين المادية ضرورية بل حل محلها مراقبات على ظواهر كونية تخيلها الناس ضحايا وذلك كالشمس والنار والهواء، وفي مرحلة ثالثة راقب الإنسان نفسه وتصورها قربانا يوصل إلى برهما، وفي مرحلة رابعة تجردت المراقبات عن تصور القرابين، بل صار الناس يراقبون أنفسهم على أنهم القوة الكامنة العالمية المؤثرة، ثم وصلوا من التمثل إلى العينية، وأذعنوا أن النفس الشخصية هي عين القوة الحيوية العالمية أو البرهما، فصار المفتكر والموضوع الخارجي شيئا واحدا (١).

وقد صور أستاذ هندي متخصص هذا الموضوع في مقال طويل نقتبس منه بعض الفقرات:

خلقت الحياة هذه من الروح (Atma)، فالإنسان ليس جسمه أو حواسه، لأن هذه ليست إلا مركبة، وهي تتغير وتموت وتبلى، بل الإنسان هو الروح وهي سرمدية أزلية أبدية مستمرة غير مخلوقة.

وذكرت شروح الويدا أن الإنسان من حيث روحه جاء على فطرة الله (Brahaman)، وكما أن شرارة النار نار فإن الإنسان من نوع الإله، وروحه لا يختلف عن الروح الأكبر إلا كما تختلف البذرة عن الشجرة، وعندما تجرد الروح من الظواهر المادية تبدأ رحلتها للعودة إلى الروح

---

(١) محمد عبد السلام: فلسفة الهند القديمة ص ١٩ – ٢٠، ٣٠.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الأكبر، ولذلك يسمى تخلعها من الجسم " طريق العودة " والإله في التفكير الهندي له صفات ثلاث: فهو برهما (خالق) ووشنو (حافظ) وسيفا (مهلك)، وهذه الصفات الإلهية الثلاثة كامنة في الإنسان، فهو يخلق الأفكار والأنظمة والمؤسسات، ويحافظ عليها، ويستطيع تدميرها ليعيد. خلقها في شكل آخر (١).

وفي فلسفة الهند الأخلاقية المسماة " ويدانت " وردت العبارة التالية: هذا الكون كله ليس إلا ظهورا للوجود الحقيقي الأساسي، وإن الشمس والقمر وجميع جهات العالم وجميع أرواح الموجودات أجزاء ومظاهر لذلك، الوجود المحيط المطلق، إن الحياة كلها أشكل لتلك القوة الوحيدة الأصيلة وإن الجبال والبحار والأنهار.... تفجر من ذلك الروح المحيط الذي يستقر في سائر الأشياء (٢).

وهذا التفكير هو ما قال به سانكرا (Sankara) في القرن الثامن الميلادي إذ وضح فاسفة الهندوس في وحدة الوجود وحاول أن يدلل على رفض الازدواج وأن الروح الإنسانية هي جزء من الروح العالمية (Brahaman) (٣).

وقد تسرب هذا التفكير إلى بعض طوائف المسلمين من الصوفية والشيعة وقد لقي الحلاج حتفه بسبب اعتناقه هذا المذهب ودعوته له، ومما يروى من شعره في ذلك:

عجبت منك ومني * أفنيتني بك عني
أدنيتني منك حتى * ظننت أنك أني

ويروي الشهرستاني (٤) أن ابن سبأ قال مرة لعلي بن أبي طالب كرم الله

---

(١) محمد علي حافظ: الحياة في رأي الآريين (ثقافة الهند سبتمبر سنة ١٩٥٠ ص ١٣٣ - ٤ م ١).
(٢) ويدانت ص ٤١ و ٤٣.
(٣). ٢٤. by Lewis Renou p. Hinduism Ed
(٤) الملل والنحل ج ١ ص ١٥٥.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وجهه: أنت أنت. يقصد: أنت الإله. فنفاه علي إلى المدائن. وربما يقال إن عقوبة النفي لم تكن كافية، ولكن يجاب على ذلك أن فسق ابن سبأ لم يكن قد وضح بعد، وأن الجملة التي قالها " أنت أنت " لم تكن ظاهرة الدلالة على المقصود الضال الذي كانت هذه الجملة مبدأه، ولذلك نجد موقف على قويا بالغ القوة عندما اتضح ذلك المقصود فيما بعد، فيروي ابن حزم (١) أن قوما من أصحاب عبد الله بن سبأ أتوا عليا وقالوا له: أنت هو. فقال لهم: ومن هو؟ فقالوا: أنت الله. فثار على وحكم عليم بالاعدام حرقا، وأمر بإشعال نار وألقاهم فيها (٢).

٥ – من صور الأخلاق عند الهندوسيين

إن أغلى ما يطمع فيه البرهمي هو الانطلاق والاندماج في برهما كما قلنا، ودستور العقل الهندي للوصول إلى هذه الغاية كان دائما الزهادة المفرطة بالصوم وأرق الليل وتعذيب النفس (٣)، كما كان بأن يعيش أسير الحرمان، ويحمل نفسه ألوان البلاء، وبأن يبدو دائما كثير الهموم والخوف والتشاؤم، وهو لا يتمنى الموت، لأن الموت ينقله إلى دورة جديدة من دورات حياته، بل يرجو لنفسه الفناء في برهما.

ومن أجل ذلك حفلت حياة كثير من الهنود بالبؤس، ومحاربة الملاذ، والسلبية، والتسول، وتعذيب النفس، وقسمت الفلسفة الهندية الحياة أربع مراحل، وجعلت لكل مرحلة منهجا يليق بها، وكل دور مدته خمسة وعشرون عاما باعتبار متوسط العمر مائة عام، فالدور الأول دور التربية الجسدية والعقلية والروحية، والدور الثاني دور الحياة العائلية، فيتزوج المرء في هذا الدور ويكون له أهل وذرية ويقوم بواجباته الأهلية، وفي الدور الثالث

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج ٤ ص ١٨٦.

(٢) أنظر: " التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية " للمؤلف ج ٢ ص ١٣٩ – ١٤٠.

(٣). ١٢٣. A Short History of the World p: Wells

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

يتنحى عن الحياة العائلية هو وزوجته ويشغلان أنفسهما بخدمة المجتمع دون أن يكون لهما مطمع شخصي أو نفع عائلي، أما الدور الرابع فيتجرد المرء فيه من كل ما هو دنيوي ويتفرغ للرياضة الروحية (١).

وفي كل مرحلة من هذه المراحل نوع من الزهادة، ولكن الزهادة في المرحلة الأخيرة أقسى وأصعب، وسننقل من شرائع " منو " بعض ما فرضه الفقه الهندوسي على الهندوس من الزهادة، وبخاصة في المرحلة الأخيرة:

– إن الذي تغلب على نفسه فقد تغلب على حواسه التي تقوده إلى الشر، إن النفس لأمارة بالسوء، والنفس لا تشبع أبدا، بل يزدد جشعها بعد أن تنال مشتهاها.

– إن الذي أوتي كل شئ، والذي تخلى عن كل ما كان في يده، فهذا خير من ذاك.

– على طالب العلم أن يتجنب الحلوى واللحوم والروائح الطيبة والنساء، وكذلك يجب عليه ألا يدلك جسده بما له رائحة طيبة، ولا يكتحل، ولا يلبس حذاء، ولا يتظلل بالشمسية، وعليه ألا يهتم برزقه بل يحصل رزقه بالتسول.

– وعندما تدخل في الشيخوخة، عليك بالتخلي عن الحياة الأهلية وبالإقامة في الغابة، وإذا أقمت في الغابة فليس لك أن تقص شعرك ولحيتك وشواربك، ولا أن تقلم أظافرك.

– وليكن طعامك مما تنبته الأرض وتثمره الأشجار، ولا تقطف الثمر بنفسك بل كل منه ما سقط من الشجرة بنفسه، وعليك بالصوم، تصوم يوما وتفطر يوما، وإياك واللحم والخمر.

---

(١) بروفسور أتربا: ثقافة الهند وحياتها الروحية والأخلاقية والاجتماعية ص ٥٥.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

– عود نفسك على تقلبات الموسم، فاجلس تحت الشمس المحرقة، وعش أيام المطر تحت السماء، وارتد الرداء المبال في الشتاء.
– لا تفكر في الراحة البدنية، اجتنب سائر الملذات، لا تقترب من زوجتك، ثم على الأرض، ولا تأنس بالمكان الذي أنت فيه.
– إذا مشيت فامش حذرا حتى لا تتخطى عظما أو شعرا وحتى لا تدوس نسمة، وإذا شربت الماء فاحذر أن تبتلع نسمة.
– لا نفرح للذيذ ولا تحزن على الردئ.

ولعل مما يكمل صورة البؤس والتشاؤم عند الهنود أن نقتبس بعض عبارات من كتاب يعد عند الهندوس أعظم كتاب ألف تحت السماء كما قال بذلك سوامى رام تيرتها Swami Ram Tirtha القديس الهندوسي المعاصر، وهذا الكتاب هو يوجا واسستها Yoga wasistha الذي – كأكثر الكتب المقدسة لدى الهنود – لا يعرف مؤلفه ولا زمن تأليفه، يقول هذا الكتاب (١):

" السعادة لا سبيل لها في هذا العالم الذي خلقت كل نفس فيه لتموت، كل شئ في هذا العالم سائر إلى الزوال والفناء، مسرات هذه الحياة ليست إلا خدعا وأوهاما، وقد سقطت الأفراح على الأحزان، أجل لم يشترنا أحد كما تشترى العبيد، ولكننا نعمل كأننا عبيد مسخرون.

" الرغبة فينا متقلقلة دائما كالقرد، والنفس لا تشبع أبدا، ولا تقنع بما في اليد، ولا تزال وثابة إلى ما لا تناله، ومهما أشبعتها ازدادت جوعا وطموحا.

" لا خير في الجسد، إنه محل للعاهات، ووعاء لسائر الآلام، وهو

---

(١) Yaga wasistha مكتوب باللغة السنسكريتية وقد ترجمت أجزاء منه إلى اللغة العربية اقتطفنا منها هذه الفقرات، وسنعود فيما بعد إلى هذا الكتاب بدراسة أوسع عند التعريف بالكتب المقدسة لدى الهندوس.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

سائر إلى الانحلال، اتصفت الطفولة بالضعف والتوقان والعجز، وعدم القدرة على الكلام، والتجرد من العلم، ويا ترى ماذا يجود علينا به زمن الشباب؟ وهل الشباب إلا كومضة برق تخطف أبصارنا ثم لا تلبث أن تختفي، مفسحة الطريق للشيخوخة بآلامها الثلجية القاسية.

" ما الحياة إلا كنور السراج الموضوع في الخلاء، تلعب به الرياح من كل جهة، وليس بهاء الأشياء كلها إلا كومضة برق تنير لحظة ثم تختفي إلى الأبد.

" وما هي قيمة الجسد والأفراح والثروة والجاه والملك إن كان محتما علينا أن تموت عاجلا أو آجلا، وأن الموت سيقضي على كل شئ ".

٦ – نماذج من الفقه الهندوسي

لإعطاء نماذج من الفقه الهندوسي سنعتمد على مصدر مهم جدا هو كتاب " منو دهرما ساسترا " (Manu dhrama Sastra) وهو كتاب جامع يحتوي على الشرائع التي تتبعها الطوائف الهندوسية، ويقول ناشر الكتاب إنه مؤلف عتيق.

لا نعرف مبدأه، ولا مؤلفه، وقد زعم البعض أنه من تأليف أول إنسان على الأرض، أو أول عارف، وضعه بإلهام من الله في زمان غارق في القدم، ولكن الأصح أنه وضع في فترات متتالية بعيد ما بينها، فقد ورد ذكره في المؤلفات التي يرجع عهدها إلى القرن السابع قبل الميلاد مما يدل على أن بعض أجزائه كتب قبلها، وبه ذكر لما وقع في العصر البوذي، وهو على العموم يحوي الشرائع التي لا يحيد عنها الهندوس المتدينون حتى الآن.

وسنقتبس من هذا الكتاب بعض النظم والقوانين الخاصة بالسلطة الحاكمة وبالمرأة، ثم بعض النظم المالية:

الملك: خلق الله الملك ليصون البلد وليدافع عنه، ولذلك

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

لا تحتقرن ملكا وإن كان طفلا رضيعا، لأنه إله في صورة إنسان فوق الأرض.
وقد منح الله الملك السلطان الذي يعاقب به المذنبين، فلا ملك إلا بسلطان، ولا طاعة إلا بسلطان العقاب.
وعلى الملك أن يصطفي لنفسه الوزراء من الأسر الطيبة، ممن اتصفوا بالعلم والشجاعة والنزاهة، وإنما جاز له ذلك لأن الرجل الواحد يصعب عليه القيام بأعباء الملك الثقيلة.
وعلى الملك أن يختار سفراءه من أهل العلم والفراسة الذين تكفيهم الإشارات للنفوذ إلى الأسرار العميقة.
وليعلم الملك أن البرهمي وإن ساءت سيرته فله أن ينصح الملك إذا شاء.
وعلى الملك الرفق بالطيبين والشدة مع الأشرار، فالملك العادل الذي لا يداهن الناس. يحبه الناس.
المرأة: تعيش المرأة وليس لها خيار، سواء كانت بنتا صغيرة أو شابة أو عجوزا، البنت في خيار أبيها، والمتزوجة في خيار بعلها، والأرملة في خيار أبنائها، وليس لها أن تستقل أبدا، وعلى المرأة أن ترضى بمن ارتضاه لها والدها بعلا، فتخدمه طول حياته ولا تفكر في رجل آخر بعد وفاته، بل عليها حينئذ أن تهجر ما تشتهيه من الأكل اللذيذ، واللبس الحسن والزينة كلها، وتعيش أرملة إلى آخر عمرها.
وإن وجدت زوجها لا يعتني بها ويحب امرأة غيرها، فلا تحقد عليه، ولا تقصر في خدمته ونيل مرضاته، فقد نيطت جنة المرأة برضاء بعلها، فلا تفعلن شيئا لا يرضاه بعلها.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وليس لوالد البنت أن ينال شيئا من المال أو المتاع عند تزويجها، لأن من يفعل ذلك فكأنه باع بنته.
والأسرة التي تحترم المرأة فإن الآلهة تخصها بعطفها، وأما الأسرة التي تحتقر فيها المرأة، فإن حسناتها تذهب سدى.
والأوفق أن تشهد النساء للنساء، والرجال للرجال، وشهادة النساء وإن كن نزيهات لا يقام لها كبير وزن. لأن عقولهن لا توازن فيها.
ليحب الزوج زوجته، وليعلم أنها تلده في صورة ابنه فهي خليقة بحب زوجها.
والمرأة سيدة بيتها فعلى الرجل أن يسلمها مقاليد البيت، وواجباتها أن تلد وأن تربي أولادها وتدبر أمور منزلها.
ولتعلم المرأة أن عظمتها منوطة بعظمة زوجها.
والذي قال لرجل إني أزوجك بنتي فلا يحل له أن يرجع عن قوله ويخلف وعده، وإن فعل ذلك يبوء بإثم الذي يقتل ألف نفس بريئة.
وإذا ابتلى أحد بزوجة شريرة، خداعة، قاسية القلب، فله أن يطلقها ويطردها من بيته.
وليعش الزوجان بالحب والوفاء لأنهما لم يقترنا على اسم الله ليفترقا أو يتباغضا.
مسائل اقتصادية: لا تجوز أكل الربا الفاحش، ولصاحب المال أن يأخذ روبية وربع روبية ربا عن مائة روبية في كل شهر.
وإذا حاول عم صبي صغير أن يستولي على أملاكه، فيمنعه الملك من ذلك، ويحول الأملاك إلى إدارته حتى يبلغ الصبي الرشد.
والعقار الذي لا يوجد له صاحب يبقيه الملك في يده ثلاث سنوات، فإن لم يعرف صاحبه خلال هذه المدة يصبح ملكا للملك بعدها.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وإذا وجدت لقطة في مكان، أمر الملك بحفظها حتى يوجد صاحبها، والذي يسرق مثل هذا المال يلقى أمام فيل ليدوسه نكالا لجنايته.
وكما تمص العلقة الدم قليلا قليلا كذلك يجب على الملك أن يكتفي بالقليل من الضرائب على رعيته، فيأخذ من أرباح الفضة والذهب النصف، ومن الحبوب الثمن أو السدس. ومن ثمار الأشجار السدس وكذلك قصب السكر والعطور والعقاقير. أما الصناع والعمال والمنبوذون فيسخرهم الملك يوما واحدا في كل شهر لأعماله، فهذه هي الضريبة التي عليهم أن يدفعوها.
والولد الأكبر هو الذي يرث والديه، أما إخوته وأخواته فكلهم يعيشون تحت أمره، لأن الأخ الأكبر بمنزلة الأب.
والذي ليس له ابن يجوز أن يقول لزوج بنته إن ولد لها ولد: هو الذي يرثني ويقوم مقام ابني.
ولينظم الملك، بواسطة الخبراء، أثمان السلع المتقلبة كل خمسة أيام إلى خمسة عشر.
ولا يملك الولد والزوجة والرقيق شيئا، وكل ما يحرزونه ملك لعائلهم.
ولا يجوز للملك أن يفرض ضريبة على الأعمى والأبله والأكسح وابن السبيل ومن يساعد المتبتلين إلى الكتاب المقدس.

٧ – تعريف بالكتب المقدسة لدى الهندوس

الفكر الهندي يتسلط عليه اتجاه روحاني، ومن هنا كثرت الآلهة لدى الهنود، وبالتالي كثرت الكتب المقدسة حتى جاوزت المئات ووصلت إلى الألوف، وفي الديانات السماوية يكون مصدر تقديس الكتب أنها كلام الله أوحى به إلى أنبيائه، بالمعنى فقط كالتوراة والإنجيل، أو بالمعنى واللفظ كالقرآن الكريم، أما مصدر تقديس الكتب عند الهندوس فليس لأنها موحى بها من الله، فهي لم يوح بها، بل لا يعرف لأكثرها واضع معين، وإنما اشترك

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

في تأليفها عدد كبير من الناس على مر القرون، وليس مصدر التقديس إبداعها في الفكرة أو الأسلوب، فكثيرا ما شملت هذه الكتب أفكارا بدائية وأساليب ركيكة، بل إن مصدر تقديس هذه الكتب هو على العموم الاتجاه الروحاني لدى الفكر الهندي، والموافقة على تأليه أي كائن، أو تقديس أي كتاب دون حاجة إلى إبداء الأسباب.

ومن الناحية العملية كان مصدر هذه الكثرة تفسير كتاب " الويدا " الذي يعتبر أعظم الكتب المقدسة لدى الهندوس، فإن مرور الزمن على هذا الكتاب جعله عسير الفهم غريب اللغة، فألفت كتب كثيرة لشرحه وتفسيره، وعدها الهندوس مقدسة، ومرت قرون أخرى فاحتاجت هذه الشروح إلى شروح جديدة وإضافات، فكتبت كتب أخرى، واستساغ العقل الهندوسي أن يجعلها مقدسة أيضا، وتضخمت " الويدا " فاحتاجت إلى وضع مختصرات قدسها العقل الهندوسي كذلك. هذا بالإضافة إلى كتب وضعت غير متصلة بالويدا بل تصف حدثا دينيا أو تاريخيا جديدا.

على أن الكتب المقدسة لدى الهنود ليست كلها – بطبيعة الحال – في مستوى واحد، فمنها كتب قليلة الانتشار، أو لا تحظى بتقديس جميع الهندوس، ومنها كتب أقرب إلى الغموض منها إلى الوضوح، ومن أعظم كتبهم المقدسة على العموم الويدا وقوانين " منو " وقد تحدثنا عنهما واقتبسنا منهما اقتباسات كافية لإظهار أهميتهما، وبقي أن نعرف بكتب أربعة أخرى تعتبر في القمة بين كتب الهندوس المقدسة، وهذه الكتب هي: مهابهارتا – كيتا – موجا واسستها – رامايانا.

ومن الواجب في هذا المجال أن أتقدم بصادق الشكر إلى وزارة التربية والتعليم بالهند وإلى رجال السفارة الهندية والمكتب الثقافي الهندي

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

بالقاهرة، وإلى كثير من أصدقائي الهنود، فقد أمدوني بأهم الكتب المقدسة، وبمراجع أخرى قيمة، وأعداد كثيرة من الدوريات وبخاصة " ثقافة الهند " التي تحوي أحدث الأبحاث وأهمها عن الكتب المقدسة وغيرها من الدراسات العميقة حول تراث الهند، وعلى هذه المصادر المتنوعة – بالإضافة إلى بعض المراجع الأوربية – تعتمد دراستنا هنا.

مهابهارتا Mahapharta (*)

مهابهارتا ملحمة الهند الكبرى، تشبه الإلياذة والأوديسة عند اليونان، وهي من الكتب الهندية القليلة التي يعرف مؤلفها، إن اسمه " وياس " وهو ابن العارف الكبير " برسرا " وقد أملى " وياس " هذا النشيد المقدس على " كنيتي " الذي دونه. وقد وقعت هذه الملحمة الكبرى حوالي سنة ٩٥٠ ق م وهي تصف حربا بين أمراء أسرة ملكية واحدة، ولكن جميع ملوك الهند اشتركوا فيها مع هذا الجانب أو ذاك، بل اتخذ الآلهة دورا في المعركة أيضا كما تروي الأقاصيص ذلك. ومن أعظم المعلمين الذين عنوا بتدريس مهابهارتا " سوتا " الذي ألقاها على جماعة من العلماء والنساك المرتاضين، وقد افتتحها بقوله: إنني أوفر حظا وأسعد طالعا بإبلاغي إليكم رواية مهابهارتا التي وضعها " وياس " ليعلمكم الدين الإنساني ويرشدكم إلى الحياة وغاياتها، وقد سمعت رواية مهابهارتا بجوهرها، والقصص الاستطرادية المشتملة عليها، ثم بعد ذلك حدث أن قمت برحلة طويلة زرت فيها الأماكن المقدسة، وزرت ساحة القتال التي دارت فيها رحى الملحمة الكبرى التي تتحدث عنها وتصفها هذه الأنشودة الحماسية.

ويبدأ " سوتا " يروي هذه الملحمة التي يعتبرها الهندوس أنشودة حماسية نادرة لاحتوائها على كثير من الروايات التمثيلية والتعاليم الجليلة،

---

* ترجم الأستاذ عبد الحميد النعماني الكتاب المقدس (مهابهارتا) إلى اللغة العربية.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ولأنها – كما يقولون – كالبحر الذي في قاعه من الدرر البهية والأحجار الكريمة ما لا يعد ولا يحصى، وهي ينبوع يتفجر، تفيض منه الثقافة وتنهمر منه الأخلاق والآداب.

وعندما نقرأ رواية " سوتا " يشق علينا فهمها ويصعب علينا متابعتها لكثرة الأسماء الصعبة وتشابهها، ولكثرة الاستطرادات والغموض، وسنحاول هنا أن نعطي موجزا للقصة ثم نتبعه بنماذج منها.

تجري حوادث هذه الملحمة في " هستنابور " حيث كان للملك ولدان الكبير منهما يدعى " دهري تاراشترا " وكان مكفوف البصر، ولذلك آل الملك إلى الصغير المسمى " باندو " ولكن هذا اقترف ذنبا وهو ملك فحكم عليه بالنفي للتكفير عن الذنب إلى مجاهل الصحراء، وإلى هناك انتقل الملك وزوجناه، وآل الملك إلى أولاد أخيه ويطلق عليهم " كورو ".

ومات باندو في المنفى بعد أن أعقب خمسة أولاد كانوا يعرفون بخمسة باندو، وتربى هؤلاء في كنف الناسكين بالكهوف والفيافي حتى وصلوا إلى مرحلة عالية في الدراسة الدينية، وفي إجادة الويدا وغيرها من الثقافات، ولما بلغ أكبرهم سن الرشد عاد بإخوته إلى " هستنابور " وطالب بميراثه في الملك بعد أن تمت الكفارة، فناصبهم " كورو " العداء وانقلبوا حاسدين لهم، ساعين جهد المستطاع لكل ما يضرهم ويؤذيهم.

وبدأت المناوشات تدب بين الفريقين ولكن مساعي الصلح وفقت بينهما فاشتركا في الحكم، ثم هزم " آل باندو " في لعبة النرد التي كانت تعد طبق التقاليد السائدة شرفا وكرامة لكشتريا، فقضي عليهم بالنفي عن مملكتهم إلى غابات الصحارى ثلاثة عشر عاما، وسافر هؤلاء إلى المنفى، ولما انتهى الأجل المضروب رجعوا إلى المملكة وطالبوا بحقهم ولكن " دريودهن " المنتمي إلى " كورو " رفض أن يرد لهم حقوقهم، فاحتكم الطرفان إلى

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الحراب، وشهدت ساحة القتال حربا ضروسا بين الفريقين انتهت بهزيمة " دريودهن ".
هذا هو جوهر الملحمة الكبرى، وفي طيات القصة تأتي آداب هامة عن لعبة النرد، والوفاء بالعهد، والتكفير عن الخطايا، وتتدخل الآلهة والجن في الموضوع من حين إلى آخر، كما يظهر ما يمكن أن نسميه خرافات وخيالات، ولنختر بعض الأحداث لنقصه فيما يلي كنموذج من هذا الكتاب العظيم:
كانت هناك حرب سجال بين الآلهة وطائفة " أسورا " وعلى رأس كل من الفريقين المتحاربين قيادة حازمة تدبر الحيل وتعمل بيقظة لتكسب النصر، فكان " برهسبتي " الخبير بأسرار الكتب المنزلة ومعارفها قائد الآلهة، وكان " سوكر آجاريا " المحنك البصير يقود أسورا في كفاحهم ضد الآلهة، ولكن " سوكر آجاريا " كان يجيد عملية " سن جيوني " التي تعيد الميت حيا، وعلى هذا فطالما رجحت كفه " أسورا " بسبب إعادة الحياة لمن يموت منهم في الحرب، وكان هذا يرجح كفته على الآلهة.
التمس الآلهة من " كاجا " – وكان قد اعتزل الحرب – أن يتصل بسوكر آجاريا ويتقرب إليه ويتعلم منه عملية " سن جيوني " ولو بطريق الخداع، فقبل " كاجا " ويمم وجهه شطر " أسورا " ودخل على سوكر آجاريا وهتف به: قصدت إليك لأتلقى دروس الحكمة والعرفان تحت وصايتك. ولم يرده سوكر أجاريا لأن الأستاذ المتضلع لا يرد طلب التلميذ النبيل. والتحق كاجا ببيت سوكر أجاريا يتعلم ويخدم.
وكان لسوكر آجاريا بنت جميلة اسمها " ديوياني " كان أبوها يحبها حبا جما، وكان كاجا يقضي أكثر أوقاته معها يسليها بالغناء والرقص والقصص، ويقضي لها كل حاجاتها، فتعلقت به " ديوياني " وشغفت بحبه.
وخافت " أسورا " من عاقبة هذه العلاقة بين " كاجا " و " ديوياني "

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وتخيلت أن " كاجا " سيستطيع تحت ستار طلب العلم والخدمة أن يعرف سر عملية " سن جيوني " ولذلك قررت " أسورا " قتل " كاجا " وانتهزت فرصة خروجه يرعى ماشية أستاذه وهجم عليه أفراد منها وقتلوه ومزقوا جسمه شر ممزق، ولما عادت الماشية بدونه انزعجت " ديوياني " وأسرعت إلى أبيها صارخة باكية وقالت: يا أبت، إن الشمس قد غابت، وعادت الماشية، ولم يأت كاجا، إني أخاف أن يكون شر نزل به، وإني لا أستطيع أن أعيش ولا أراه بجانبي. فرق قلب الأب لابنته، واصطنع عملية " سن جيوني " وسرعان ما حضر كاجا وقص عليهما ما حدث له وهو يرعى الماشية من هجوم أسورا عليه وقتله... ولكن أسورا دبرت طريقا جديدا للتخلص من " كاجا "
فذهب مرة ليحضر الأزهار الجميلة من الغابة إلى " ديوياني " فانقض عليه بعضهم وقتلوه وحرقوه وألقوا رماده في اليم، وطال انتظار " ديوياني " له دون جدوى فهرعت لأبيها باكية ناحبة، فأحياه لها مرة ثانية.
ولكن أسورا دبرت أمرا خطيرا فقد أمسكت بكاجا وقتلته وحرقت جثته وأذابت رماده في كأس خمر، وقدمت الكأس إلى سوكر آجاريا فشربه، وهرعت ديوياني إلى أبيها لثالث مرة عندما طالت غيبة كاجا، وحاول أبوها أن ينصحها بالرضا بالقضاء والقدر، ولكنها بكت بنشيج وحسرة، ولما حاول أبوها أن يحييه هذه المرة اضطرب كاجا في أحشائه، فقال لها أبوها: إن عودة كاجا للحياة لا تتم إلا بموتي ليخرج هذا من بين أحشائي. وشمل الحزن ديوياني إذ أدركت أنها لا بد أن تفقد حبيبها أو والدها، واضطربت لهذا الأمر الفاجع، ولكن أباها وجد حلا للمشكلة، فقد علم سر " سن جيوني " إلى كاجا وهو في أحشائه، وقال له: الآن تشق بطني لتخرج أنت من أحشائي وأمرت أنا، ثم تعيد لي الحياة باصطناع سرجبوني " معي، وتم ذلك بنجاح،

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ولما عاد سوكر آجاريا للحياة انحنى تلميذه أمامه وقال: إن الشيخ الذي يعلم التلميذ الساذج، يقوم مقام الأب، فأنت أبي، وحيث أني خرجت من داخلك فأنت لي كذلك أم حنون.

* * *

ذلك نموذج من الأقاصيص التي اشتركت فيها الآلهة ودونتها مهابهارتا، وكما قلنا آنفا تتخللها أحكام وقوانين وآداب، فشرب الخمر يصبح معصية بعد أن خدع بسببه سوكر آجاريا، ومن هتاف سوكر آجاريا محذرا من الخمر: لا تقترب الفضيلة شارب الخمر، ويزدريه التاس احتقارا. هذا بلاغ. وقتل برهمي غدرا يعتبر عملا منكرا يتحدث عنه سوكر آجاريا طويلا محذرا أسورا من ارتكابه، وكان ذلك بمناسبة الاعتداء على كاجا.

كيتا Gita

هذا الكتاب جزء من الملحمة الكبرى مهابهارتا التي تحدثنا عنها آنفا، والتي – كما قلنا – تصف حربا شعواء بين فريقين من الأمراء ينحدران من أسرة ملكية واحدة، وينسب هذا الكتاب أو أكثره إلى كرشنا أحد أبطال الهندوس المقدسين، وكان قد اتخذ جانبا في هذه الملحمة تحت قيادة البطل أرجنا، ومن قراءة كيتا يلاحظ اهتمام هذا الكتاب لا بالجانب القصصي أو الخرافي الذي لاحظناه في النموذج السابق، بل بالجانب الفلسفي والاجتماعي، وكيتا لهذا يعتبر من الروافد التي قدمت إلى مهابهارتا أروع التعاليم وأرق الثقافات، ومنه استمدت تعاليم كثيرة رويناها في دراستنا السابقة، والكتاب يقدم لنا صورة الهيئة الاجتماعية الهندية في ذلك العصر، فنعلم منه ما كان عليه الشعب من المعتقدات الدينية، والعادات الاجتماعية، والأفكار الفلسفية، ووجهة نظره العامة في الحياة وما بعد الممات. وهو يخبرنا أن الناس ضلوا عن سواء السبيل ووقعوا فريسة للتقاليد والأوهام، فتركوا

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

لب الدين وتمسكوا بقشوره. كانوا يتشدقون بألفاظ ويدا. ويعملون بظواهرها، فيقيمون الطقوس والعبادات الرسمية، وهم مع اعتقادهم بوحدة الله يعبدون آلهة أخرى، وليس هذا فحسب، بل يعبدون أسلافهم وكذلك يعبدون العفاريت، ويتطيرون ويعتقدون في الفأل، وبجانب هؤلاء وعلى العكس منهم يوجد أناس ينعون على متبعي الظواهر اتجاههم، ولكن هؤلاء – علوا كذلك في مذهبهم، فأنكروا العبادات والظواهر على الاطلاق، زاعمين أنها قشور، وكان أكثر هؤلاء وأولئك مقلدين جامدين. ويوجد أناس آخرون يرون في الرهبانية والتجرد من الدنيا، النجاة، فيهجرون الكسب ويعيشون عالة على الناس.

* * *

وكان أرجنا زعيم أحد الحزبين المتحاربين متأثرا بأحوال بيئته، مؤمنا بمعتقدات عصره، وخاضعا للأفكار الشائعة، فلما اصطفت الصفوف، ودقت الطبول، وآن أوان القتال. تلجلج في مباشرته، وجرى بينه وبين " كرشنا " حوار، فوعظه كرشنا، وحثه على القتال. وكتاب كيتا اشتمل على هذا الحوار الذي جرى في ساحة الحرب.

قال أرجنا لكرشنا، وهو واقف بين الصفين، ينظر إلى الذين جاءوا لمحاربته:

" سيدي! أرى أمامي أقاربي الأعزاء وأصدقائي القدماء، ففيهم الأخ وابن الأخ، والخال وابن الخال، والعم وابن العم، فيهم الأبناء والأحفاد، وفيهم الشيوخ الذين نشأت على تبجيلهم، أراهم أمامي، وقلبي يرتعد، ويدي ترتعش، وأشعر بحلقومي كأنه قد جف، هل يليق بي أن أحارب هؤلاء الأحباء الأعزاء، والأسلاف الأجلاء؟ كلا، لأني إن حاربتهم، أحرم من راحة البال أبدا، إن حياة الذل والفقر خير من النصر الذي أناله بقتلهم، أجل، لا يحل لي قتالهم، وإنهم لو قتلوني،

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

فإني لا أرضى برفع يدي عليهم، لا ريب إنهم ظالمون، ومع ذلك لا يطاوعني قلبي في قتالهم. ثم إني إن حاربتهم، فنيت أسرتنا العريقة في المجد بأسرها، وبفنائها تفنى سائر عاداتها وتقاليدها، وإذا ذهبت العادات والتقاليد، فما الذي يمنع البقية الباقية منها، ولا سيما النساء من الضلال والغواية؟ فينتشر الشر وتعم الفتنة في النساء، وبفساد النساء تختلط الأنساب وتزول فروق المراتب البشرية. إن هذا لشر مستطير، وهو ما ينتج من هذه الحرب وسفك الدماء. فالذين يتحاربون ويسببون هذا الفساد، لا بد من أن يجازوا بالجحيم. وليس هؤلاء وحدهم الذين يصلون بالنار، بل يدخلها أسلافهم كذلك، لأنهم قد فقدوا أخلافهم الذين عليهم أن يقدموا لأرواح الأسلاف ما يجلب لها الراحة والسعادة. وهكذا تفنى الرسوم والعادات، وهكذا يذهب الدين فيصير نسيا منسيا، ونحن ما زلنا نسمع أن الذين كانت حالتهم هكذا، يدخلون الجحيم الأبدي، ولذلك فمباشرتنا الحرب، إثم ليس فوقه إثم! ".

ويجيب كرشنا قائلا:

" إن خورك، يا أرجنا! في هذه الساعة الرهيبة، لعار ليس فوقه عار، وأنت لن تجد بعده راحة البال طول حياتك، وسيكون ذلك سمة سوداء على جبينك لا يمحوها الدهر أبدا، أيها البطل الشجاع! ما هذا الجبن الذي لا يليق برجل مثلك؟ وطد نفسك على الحرب وسر إلى النصر الذي ينتظرك! ".

فقال له أرجنا:

" كيف يحل لي أن أحاربهم وأنا أرى فيهم أساتذتي، وأعمامي، وأخوالي الذين يجب علي احترامهم؟ أليست حياة التسول خير من الملك الذي أناله بقتلهم؟ ".

فيبتسم كرشنا من قول أرجنا، ويقول له:

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

" تتكلم بكلام العقلاء ثم أراك تهتم بما لا يهتم به العقلاء! ألا تعلم أن العاقل في مثل هذا الموقف لا يبالي بالحياة ومصيرها؟ هل تظن أنني أنا، وأنت، وجميع هؤلاء الملوك، وسائر هؤلاء الناس، وجدوا بعد أن لم يكونوا شيئا؟ هذا ما لا يقوله عاقل، لا يمكن وجود شئ من لا شئ، كل من هو موجود الآن وجد من قبل، وسيبقى موجودا دائما، وكما ترى الحياة تطرأ عليها الطفولة، والشباب، والشيخوخة، كذلك ينتقل الروح من جسد إلى جسد آخر، وهذا التنقل هو الذي نسميه بالموت، ولكن العقلاء لا يزعجهم اسم الموت.

" يا أرجنا! إن الألم واللذة، مناطهما بالمشاعر التي مآلها إلى الفناء، فلا ينبغي لك أن تقيم لها وزنا، والذي يرتفع فوق الألم واللذة هو الذي ينال السعادة الدائمة والنجاة الأبدية، لا يمكن أن ينعدم ما هو موجود ولا يمكن وجود شئ من العدم، عليك بهذه المعرفة.

" يا أرجنا! يفنى الجسم ولا فناء للروح، فالروح ليس له بداية ولا نهاية، فعليك يا أشجع الشجعان، أن تبعد الأفكار الباطلة عن نفسك وأن تتأهب للقتال، لأن واجبك هذه الساعة هو القتال!

" عليك أن تعلم أن الروح لا يقتل ولا يقتل. إنه ليس بأمر حادث، بل قديم، أزلي، أبدي، لا يتغير ولا يتبدل، ولا يموت بموت الجسد، فالذي يرى الروح خالدا يعلم كذلك أنه لا يفتل أحدا ولا يقتله أحد. وكما يبدل الإنسان لباسه، كذلك الروح يغير قشرته، فينتقل من جسد إلى جسد.

" أكرر لك يا أرجنا، أن الروح لا يموت ولا يزول، إنه خالد، لا النار تحرقه، ولا الماء يغرقه، ولا السلاح يقطعه، هو دائما على حالة واحدة، لا يقبل التغير والتبدل، وإن كنت في ريب مما أقول، وترى

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الروح كالأجسام يموت ويولد، فبالحري ألا تتأخر عن الحرب، لأن الذي ولد، لا بد من أن يموت، والذي مات، لا بد من أن يولد مرة أخرى، فإن كان هذا مقدرا لا مناص منه، فلم هذا التردد منك؟ إن هؤلاء الذين تراهم، لم يكونوا في الماضي، ولا يكونون في المستقبل. إنهم أبناء الحال لا غير، فلم تبكي لهم وتهتم بهم؟ إن الحياة سر، تحيرت منه الألباب ولكن لا يفهمه أحد.

" ثم إن تأخرك عن الحرب، يا أرجنا، مناقض لواجبك كرجل من كشترى (طبقة المحاربين)، إن القدر قد ساق إليك هذه الحرب التي ليست إلا بابا للجنة، والسعيد من تسنح له فرصة كهذه، وأنت إن ضيعتها، تبوء بإثمك، ويعيرك الناس بالجبن. يظن المحاربون أنك قعدت عن الحرب خوفا وجبنا، فتسقط من الأعين التي ما زالت تبجلك. تفكر أي أسى يكون فوق هذا الأسى؟ وهل هناك عار على الرجل أكبر من أن يقال إنه جبان؟ وأنت إن قتلت، دخلت الجنة، وإن عشت، فزت بملك عظيم. فوطد نفسك على القتال، وباشره غير مبال بالعاقبة "!

ثم قال كرشنا:

" لقد أضلت كلمات ويدا عقلك، فصرت لا تفهم قيمة الفرض وما يتبعه من الواجبات، والذين يتمسكون بألفاظ ويدا وحدها ويرونها كل شئ، يركبون شططا. إنهم إنما يجرون وراء أهوائهم النفسية. يمنون أنفسهم بالجنة، لأنهم حريصون على لذائذ الحياة، فيقومون بطقوس يرونها تضمن لهم الجنة، ولذلك تبلبلت عقولهم، وتشعبت سبلهم، وضلت أعمالهم، فهم في حيرة وارتباك، يجرون وراء شهواتهم، ولا يستطيعون حصر أفكارهم في نقطة واحدة.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

" أما أنت، فكن فوق القشور الويدية. لا تقلقك أفكار الراحة أو التعب، النجاح أو الخيبة، بل كن مطمئنا منشرحا في روحك، والعاقل الذي وصل إلى الحقيقة، ليست الكتب الويدية له إلا كبئر في مكان ذي أنهار، فعليك أن تقوم بواجبك، لأنه واجب عليك، واجمع عقلك على هذه النقطة وحدها.. ".

سأل أرجنا: كيف للمرء أن يجمع عقله؟

فأجابه كرشنا قائلا:

" إن الذي تغلب على أهوائه النفسية، وملك حواسه كلها، فلا يخاف شيئا، ولا يطمع في شئ. ولا يحب أحدا ولا يكره أحدا، لهو الذي نال العقل وجمعه، إن الحواس تتبع ميولها، فعلى المرء أن يجذب إلى قبضته حواسه عن مشهياتها كما تجذب السلحفاة أطرابها إلى بطنها، أجل، إن النفس لضاغية جامحة، إلا أنه يجب السعي لضبطها وتحويلها إلى الله. فالذي لا علاقة له بشئ، ولا يخاف شيئا، ولا يطمع في شئ، وحواسه تحت أمره، فهو المطمئن حقا، وإن كان يقوم بأعمال الدنيا كغيره من الناس، إنما العمل الحقيقي، هو التحرر من سلطة النفس، فمن تحرر منها، فقد فاز بالطمأنينة الحقيقية، واهتدى إلى الله، وفاز بالنجاة ".

فقال أرجنا: " إن كانت النجاة لا سبيل إليها إلا بالتغلب على الحواس وقهر النفس، فلماذا نهتم بأمور الناس؟ ".

فأجابه كرشنا قائلا:

" إن الذي يتجرد من الدنيا بترك واجبه، لا يصل إلى الكمال أبدا، والأعمال التي تأسر الإنسان، هي التي يقوم بها لإرضاء نفسه. لا لأجل المصلحة العامة. فعلى المرء أن يجعل سائر أعماله خالية، منزهة من أهواء النفس. وما عاشت هذه الدنيا إلا بمثل هذه الأعمال النبيلة النزيهة، والذي يطبخ الطعام ليأكله وحده، لآثم، وإذا أكل فلا يأكل إلا إثمه. والذي لا يهتم بمصلحة غيره فهو سارق. والذي يحيا

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

لإرضاء حواسه، فحياته كلها إثم. ليس لأحد أن يسخر غيره لإشباع ميوله. وإنما الطريق إلى الله أن تكون الأعمال خالصة له ولنفع خلقه.

" اعلم أن أشد أعداء الإنسان، اثنتان: الشهوة والغضب. وهما اللذان يدفعانه إلى الذنوب، وكما يغطي الدخان النار، ويكدر الغبار صفاء المرآة، كذلك الشهوة والغضب يغطيان عقل الإنسان، فعلى الإنسان أن يقتل هذين العدوين.

" لا شئ يطهر الإنسان أكثر من هذا العرفان، والعارف يدرك بالتدريج أن الله معه وفيه، وأكبر ما يحتاج إليه الإنسان في سلوكه إلى الكمال، هو الإيمان وقهر النفس ".

وسأل أرجنا مرة أخرى: " ما الأفضل للإنسان: التجرد من الدنيا ومراقبة النفس، أو تطهير النفس مع التعلق بأمور الدنيا؟ ".

فأجابه كرشنا قائلا:

" إن الذين يفرقون بين الطريقتين، أطفال لا يعقلون، أما العالم العاقل، فلا يفرق بينهما، والإنسان يصل إلى الكمال بأي طريق سلكه إن قام بشروطه حق القيام. والذي يرى الطريقين سبيلا إلى المقصود فهو المصيب.

" والناسك الحق هو الذي لا يبغض أحدا، ولا يشتهي شيئا، ولا يرى غير الله شيئا، إنه يجري وراء واجبه دائما، طهر قلبه وتغلب على حواسه، فنفسه في قبضة يده، لا تنازعه ولا تحيد به عن الصواب، وهو يرى جميع الأرواح كروحه، ولا يفرق بينها، ولا يقصد بعمله إلا وجهه تعالى وحده.

" والذي يقوم بواجبه كما قلت، يبزغ نور العرفان في داخله كما تبزغ الشمس في السماء، فيرى ربه بعين قلبه، ويسعد بالنجاة بعد أن تذهب ذنوبه وتحل محلها الحسمات.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

" واللذائذ الحسية، عاقبتها الألم والحزن، فلا يجري العاقل وراءها.
والذي ملك حواسه ونفسه في هذه الحياة، فهو الناسك حقا، وهو الذي فاز بنعمة راحة البال. إنه يجد الطمأنينة والراحة، والنور في روحه، ويصل إلى النجاة بفنائه في الخالق، ولا يسعد بهذا إلا من نسي نفسه، وقهر هواه، ولا يزال في عمل مستمر لمصلحة الناس عامة.
" وليس الناسك من يتشبث بظواهر النسك وحدها، فلا يمس النار، ويفعل هذا ولا يفعل ذلك كالمتنطعين. إنما النسك كيفية قلبية، لا هيئة خارجية، فالذي لا يبالي بالعواقب في أداء واجبه، فهو الناسك الصادق، والذي يتخلى عن واجباته في الدنيا، فهو ليس من النسك في شئ.
" ليس للإنسان صديق إلا نفسه، وليس له عدو إلا نفسه، ومن تغلب على نفسه فهو صديق نفسه، ومن قهرته نفسه، فهو عدو نفسه، فمن غلب نفسه فأصبح لا يبالي بالحر والبرد، بالراحة والألم، بالسراء والضراء فهو صاحب الروح الأكبر، ومن يرى الصديق، والعدو، القريب، والبعيد، السعيد، والشقي، بعين واحدة فهو المهتدى.
" ليست النجاة للذين افتتنوا بالدنيا، ولا للذين هجروا الدنيا فارين من واجباتهم، بل هي للذين يلزمون الطريقة الوسطى، فلا يفرطون ولا يفرطون، في مأكلهم، ومشربهم، وملبسهم، ومسكنهم، إنهم وسط في كل شئ، فيستريحون كما ينبغي، وينصبون كما ينبغي.
" والناسك الحق هو الذي يرى وجوده في وجود الآخرين، ووجودهم في وجوده. وهو الذي لا يفرق بينه وبينهم، بل يدرك الله في الجميع ويدرك الجميع في الله. فمن كان هكذا، فعلاقته بالله وثيقة لا انقطاع لها. فالذي يحمد الله في خلقه وينسى نفسه، فهو مع الله أينما كان وحيثما كان ومن يرى سعادة الآخرين وشقاءهم، سعادته وشقاءه فهو حبيب الله حقا ".

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وسأل أرجا " أليس قهر النفس الأمارة، كما تقول، لمن أصعب الأمور؟ ".

فأجابه سرى كرشنا قائلا:

" أجل، يا عزيزي! إنه لمن أصعب الأمور، لا يكون قهر النفس إلا بصدق النية، والتمرين، والرغبة عن لذائذ الدنيا، والذي حرم قوة الإرادة والعزيمة، فلا يتمكن من قهر نفسه لا ينال النسك. والشرائع الظاهرية والطقوس الرسمية لا تنفعه شيئا، إن مجرد الرغبة في هذا السلوك، يغني المرء عن ويدا وعن شرائع ويدا، هذه الرغبة تجعله فوق كل هذا، ومن سعى مع هذه الرغبة سعيا صادقا، وإن كان قليلا، ينتفع به. وإن اضطرب قلبه ولم ينجح في النسك كل النجاح، لأن طريق التقدم الروحي ينفتح أمامه، يسلكه إذا وطد عزمه.

" والعارف الذي يعبد الله، يرى الكثرة في الوحدة والوحدة في الكثرة وأينما يتجه بوجهه يرى وجه الله، الحي الذي لا يموت والرب الذي به يقوم كل شئ ".

وهكذا يتضح لنا أن الكتاب المقدس " كيتا " يعد من أهم الكتب المقدسة لدى الهندوس، وهو حافل بأدق المعتقدات والأفكار الهندوسية.

يوجا واسستها Yogavasisthe

ألقى قديس هندوسي معاصر هو سوامي رام تيرتها S wami Ram Tirtha الذي أشرنا إليه من قبل، محاضرة بأمريكا عن كتاب يوجا واسستها قال فيها:

إن أعظم وأنفع كتاب ألف تحت السماء هو بلا ريب كتاب يوجا واسستها الذي يمكن من يقرؤه من أن يعرف نفسه، ومن عرف نفسه عرف ربه.

ولا يعرف مؤلف هذا الكتاب كالشأن في أكثر الكتب الهندية المقدسة، وهو منظوم يحتوي على أربعة وستين ألفا من الأبيات، مما يرجح أن

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

يكون من عمل مجموعة من الناس لا من نظم شخص واحد: وزمن تأليفه غير معروف أيضا وإن مال بعضهم إلى أنه ألف في القرن السادس الميلادي بسبب إشارات وردت فيه تشير إلى أحداث وقعت في هذا القرن، ولكن الذي نميل إليه أنه ألف في فترة زمنية طويلة، وأن هذه الإشارات ليست إلا للأجزاء التي ألفت في القرن السادس، وليست دليلا على تحديد وقت لتأليف الكتاب كله.

وموضوع الكتاب هو الفلسفة واللاهوت، ودراساته عميقة جدا، ويفترض الكتاب تلميذا اسمه " راما " تنتابه الشكوك والأوهام فيسأل أستاذا له عما يساوره، ويطلب بيانا لإيضاح ما غمض عليه، ويجيبه أستاذه شارحا موضحا، ولنبدأ بنقل هواجس التلميذ وانفعالاته، ثم نورد الرد عليها.

قال راما:

" لقد جربنا مرارا وتكرارا أنه لا يمكن أن تنتظر سعادة حقيقية دائمة من حياتنا هذه، لقد تيقنا ذلك ولا نرتاب فيه، ومع هذا يسوقنا الهوى إلى أن نأمل من هذه الحياة كل سعادة.

" إن اكتناز الثروة لا يجعلنا سعداء بل كثيرا ما يجرنا إلى الشقاء وليست الحياة إلا سحابة صيف تمر سريعا، أو كنور سراج فقد زيته، ومع هذا فرغبتنا فيها دائمة لا تشبع أبدا، ولا تقنع بما في اليد، وكلما زادت من شبعها ازداد جوعها وطموحها، وليس في العالم شر أكبر من الرغبة، إنها نجر حتى أعقل الناس إلى الفتنة.

" لا خير في الجسد لأنه محل العاهات، ووعاء لسائر الآلام، وهو سائر إلى الانحلال.

" اتصفت الطفولة بالضعف والتوقان، والعجز، وعدم القدرة على الكلام، والتجرد من العلم، والرغبة فيما لا ينال، والتقلب الفكري، وقلة الحيلة.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ويا ترى ماذا يجود علينا به ذلك الزمن الذي نسميه بالشباب؟ وهل الشباب إلا كومضة برق تختطف أبصارنا ثم لا تلبث أن تختفي؟ وتجئ بعدها الشيخوخة بآلامها القاسية.

" تتراءى النساء جميلات فاتنات لحين من الزمن فقط، وذلك أيضا للذين على أبصارهم غشاوة من الجهل، وإلا فالحقيقة التي لا مراء فيها أنه ليس في أجسادهن شائبة من الجمال، وإنما هو جهلنا الذي يخدعنا فيظهرهن لنا كأنهن جميلات.

" فيا ترى ما الفائدة من الحياة التي لا مناص فيها من الشيخوخة والموت؟ لا مفر لإنسان من الشيخوخة، إنها تصرع حتى الأبطال الذين لا يعرفون الهزيمة قط في ساحة الميدان، وتلحق حتى الذين يختفون خوفا منها في الكهوف، وما قيمة الجسد، والأفراح، والثروة، والجاه، والملك، إن كان محتما علينا أن نموت عاجلا أو آجلا وأن يقضي الموت على كل شئ؟

" إن جميع الروابط والعلاقات سلاسل من الأسر والعبودية، والمسرات كلها أمراض فتاكة، كل إنسان تخدعه نفسه ثم تسوقه إلى شراك الأهواء والرغبات، فيبتلى بمصيبة " تكرار الميلاد ".

قال راما لأستاذه بعد أن انتابته هذه الأفكار: أخبرني يا سيدي المرشد عن أحسن طريق للتحرر من آلام الحياة.

وبدأ الأستاذ يجيب فكان مما قال: " إن علة سائر الآلام والمصائب هي (تريسنا) Trisna أي الرغبة في المآرب الدنيوية، إن هذه الرغبة تلدغ صاحبها كالحية السامة الفتاكة، وتقطع كالسيف البتار، وتنفذ كالرمح الحاد، وتحرق كالنار، وتطحن كالرحى الثقيلة، ونحن نفتتن بالحياة لأننا نجهل فطرتنا الحقيقية وماهية الدنيا، فإذن الجهل هو علة العلل لسائر الآلام، إن منبع جميع الشرور هي قلة العلم، وأحسن دواء هو الوصول إلى

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الحكمة، فالحكمة هي الجسر الوحيد الذي يجتاز عليه المرء بسلام بحر هذا العالم، وتنال الحكمة بالسعي والجهد، لأن العلم لا ينزل علينا بنفسه، فالسعي والجد هما الأساس، وليس هناك شئ يسمى الحظ أو القضاء والقدر فنحن الذين نخلق حظنا بمجهودنا، وليس من سبيل لتجنب الشقاء أو التخلص منه إلا بسعينا وجهودنا، فالذين يتكلون على القضاء والقدر ولا يسعون بأنفسهم هم أعداء أنفهسم، وهم الجهلة والكسالى. فالحظ اسم لشئ لا وجود له إلا في أوهام العجزة البله.

" فإذا كان هناك شئ يصح أن يسمى الحظ فذلك الشئ هو أعمالنا الماضية، ومن أجل هذا يجب على كل واحد منا أن يسعى بعزم ثابت ليحقق ما يريد.

" وأول ما يطالب به الطالب الباحث عن الحق أو الراغب في تحرير نفسه من انحلال العبودية يتلخص في كلمات أربع هي: الطمأنينة، والقناعة، وملازمة الحكماء، والتأمل العميق، ومعنى الطمأنينة أن يصفو قلب المرء من كل كدر، ومعنى القناعة ألا يرغب في شئ ولا يعادي شيئا، فالحكمة لا تنزل على العقل الذي استعبدته الأهواء والرغبات، ومصاحبة الحكماء تزيل الظلمات عن القلب، والتأمل العميق هو الوسيلة إلى الحق.

" ويعرف الشخص الذي تجمعت فيه هذه الصفات بأن يصبح في حال لا السرور يسره، ولا الألم يحزنه، ولا يتأثر قلبه بالرغبة أو الكره، وأنه على رغم انهماكه الظاهر في الأعمال الدنيوية لا يتعلق عقله بشئ من الدنيا، لا يؤذي سلوكه أحدا، يكون صديقا للجميع، ترى ظاهره مشغولا ولكن باطنه في الحقيقة مطمئن تمام الاطمئنان، تحرر من جميع قيود الطوائف والمعتقدات والطبقات والتقاليد والعادات والكتب، استراح

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

في " المسرة العليا " لا يعمل عملا للنفع الذاتي، صدره منشرح والبشاشة لا تفارق وجهه. يعامل سائر الناس بالحسنى، لا يشعر باليأس، ولا بالكبر، ولا بالاضطراب الفكري، ولا بالسرور المفرط، كله عطف وحنان وحب، لا يحتقر السرور، ولا يجري للحصول عليه، يشعر بالابتهاج في جميع أحواله، حتى في شيخوخته وعجزه وموته، فحياة الشخص المتحرر أنبل حياة، وأشرفها والناس يفرحون برؤيته وسماع صوته (١) ".

راماياانا Ramayana

راماياانا كتاب قديم لا يعرف مؤلفه ولا تاريخ تأليفه بالضبط، وكل ما نعرفه عن تاريخه أنه كله أو بعضه أقدم من مهابهارتا الذي تكلمنا عنه فميا سبق، وعرف تاريخ راماياانا التقريبي بواسطة إشارات إليه في مهابهارتا، وإن كان ذلك لا يحدد تاريخه بالضبط لأن الكتب المقدسة الهندية ألفت في فترات طويلة، فلا يدل حدث بها على تاريخ تأليف الكتاب كله.

وراماياانا يعني بالأفكار السياسية أو الدستورية للحياة الهندية، فهو يتحدث عن تكوين مجالس الشورى، وطرق اختيار الملوك وولاة العهود، ثم عن واجبات الملك، وعن واجبات مجالس الشورى وسلوك أعضائها... ونقتبس من هذا الكتاب ثلاث خطب تتصل بأحد ملوك الهند المشاهير وهو الملك راما وتحتوي على تقاليد ونظم هندية تتصل بالسياسة:

" أحس دساراتها ملك الهند بوهن في صحته، فعقد المجلس التشريعي في عاصمته " أيودها " وألقى بالمجلس الخطاب التالي:

اخترتموني ملكا عليكم، وقد بذلت كل جهدي في القيام بواجباتي

---

(١) ١٠٠ - ٩٦. See: Atreya: p. Yogawasistha and its Philosophy p

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

نحوكم، وهأنذا قد بلغت من الكبر عتيا، ويحتم علي واجبي أن أصارحكم بأن أعباء الملك فوق مقدرتي الآن، وأراني أضعف من أن أتحملها، وهذه الأعباء تحتاج إلى رجل أقوى مني جسدا وعقلا، وإنكم لتعرفون راما ابني، ولا تخفى عليكم مزاياه التي تؤهله ليكون ولي عهدي، وينوب عني في الحكم ما دمت حيا، ويخلفني بعدي، ويخدم شعبه كأبيه، هذا رأيي أنا، ولكم الحرية التامة في قبوله أو رده، فإن قبلتموه فذاك ما أريد، وإن رفضتموه واخترتم رجلا غيره فإني أنزل على إرادتكم، وأقبل قراركم بطيب نفس، لأن غايتكم وغايتي واحدة، هي دخمة الشعب وخير البلاد. "

وخرج الملك وترك الأعضاء ليتناقشوا، فاتفقت كلمتهم على قبول راما وليا للعهد ونائبا عن الملك في حياته، على أن يكون ملكا بعد وفاة أبيه إن سار سيرة والده في الحكم.

فلما بلغ دساراتها ذلك عاد للمجلس ومعه راما وخاطبه أمام المجلس قائلا:

" لقد وقع اختيار مجلس الشعب عليك لتكون ولي عهدي ونائبي في الحكم وخلفي في الملك بعد مماتي، وبما أنك أكبر أولادي من زوجتي الأولى التي هي كف ء لي في العز والمجد، فأنت أحق أولادي بالشرف الذي رآك المجلس أهلا له، ومزاياك المعروفة جعلتك خليقا لتخدم شعبك، فعليك أن تخفض جناحك لرعيتك، وتسهر لراحتها ورفاهيتها، وتعدل في الحكم، وتنصف سائر الناس، وليكن الصغير والكبير سواء عندك في الحكم، ولا تؤثرن نفسك على المصالح العامة، ولا تخلدن للراحة والتمتع بلذائذ الحياة، وليكن همك الوحيد رضا الشعب وهناءه، فالملك يجب أن يكون محبوبا لدى شعبه، محمودا في سيرته وأشقى الناس وأنحسهم الملك الذي تمقته رعيته، لأن من يمقته خلق الله يمقته الله. "

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وابتدأ راما مسؤولياته بخطاب قال فيه: " لا يوجد العدل إلا بالصدق، ويجب أن يكون الصدق محضا صريحا لا تشوبه شائبة من الكذب والباطل، وأعضاء هذا المجلس الذين يعرفون الحق ثم يظلون ساكتين هم أكثر الكاذبين شرا، والذين يسكتون عن الحق نظرا لمصالحهم الذاتية أو خوفا من نقمة الأقوياء هم المجرمون الذين يخلدون في نار الجحيم ".

٨ – لمحة تاريخية عن الديانة الهندوسية

الهندوسية – كما سبق القول – مجموعة من العادات والتقاليد والمعتقدات الهندية، سواء منها ما يرجع إلى السكان الأصليين أوما جلبه إلى الهند الزاحفون التورانيون أو الفاتحون الآريون، وكانت العقائد الآرية الأولى قد طرأ عليها تغير كثير بسبب اتصال الآريين بالإيرانيين وهم في طريقهم إلى الهند (١) وقد دونت هذه المعتقدات وتلك التقاليد في الويدا فاكتسبت قدسية وجلالا.

والهندوسية دين توحيد من جهة ودين تعدد من جهة أخرى، كما سبق القول، وتظهر فيها أفكار بدائية كعبادة قوى الطبيعة وعبادة الأجداد، وعبادة البقر بشكل خاص.

وارتقت الهندوسية عندما تجمع البراهمة في القرن الثامن قبل الميلاد، فأعادوا التفكير في دينهم، ووضعوا مذهب البرهمية وقالوا بعبادة براهما... وكانت الهندوسية تعني بنظام الطبقات وتقول بتناسخ الأرواح ووحدة الوجود... ومن أهم ما عنيت به تقديم القرابين على أن يتم ذلك بحضور برهمي وتبريكه. وبدون القرابين تتلاشى أرواح الموتى ويطفأ مجد الأسرة إلى الأبد، فالقرابين غذاء للأجداد، وكان الإله أغنى يحملها إليهم، وكان عدم تقديم القرابين إلى الأجداد يعتبر كمن يترك والديه يموتان جوعا.

---

(١) by Lowis Renau p. Hin duism Ed .٢ .

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وضعفت الهندوسية عندما خرج غوتاما بوذا ومهاويرا بمذهبيهما أو بدينيهما، ولكن الهندوسية سرعان ما نفضت الغبار وعادت إلى الحياة، وقضت على الانتصار المؤقت الذي تحقق للبوذية والجينية، وسنوضح فيما بعد الظروف التي ساعدت على ذلك، ولكن الهندوسية ظهرت هذه المرة في ثوب جديد نوعا، بفضل شرائع " منو " التي نسقت هذه الديانة واكسبتها قوة كانت من عوامل انتصارها على البوذية والجينية، وظهرت شرائع " منو " في القرن الثالث والثاني قبل الميلاد، وقد لانت فيها الآلهة بعد قسوة وعنف، وذلك بتأثير البوذية في هذا المجال.

ولكن شرائع منو وجهت عنايتها إلى الطقوس وتقديم القرابين أكثر من اهتمامها بالآلهة، ويعتبر هذا تطورا كبيرا في الهندوسية التي كانت توجه عناية كبيرة إلى الآلهة، فاتجهت الآن إلى الطقوس والمظاهر، وكان من مظاهر هذا الاهمال أن اعتبر الإله " براهما " ليس مستقلا بل موزعا في جميع المخلوقات أطيبها وأخبثها يشاطرها مصايرها وينال نصيبا من آثامها وآلامها وبعثها وتحولها (١) وفي ذلك يقول منو " تستقر الروح العليا في أرقى المخلوقات وأسفلها ".

وجاءت المسيحية، وظهر بولس فاقتبس لها اتجاهات التثليث وصلب المسيح ابن الله تكفيرا عن خطيئة البشر..... (٢) وانتصر بالقوة والسلطان مذهب بولس لأسباب شرحناها في كتابنا عن " المسيحية " واضطر المسيحيون الذين قالوا بالتوحيد وبنبوة عيسى أن يهاجروا من الدولة الرومانية، فاتخذ بعضهم طريقه إلى الهند، ومنهم بعض النسطوريين الذين نشروا دينهم عند قلة من الهنود كانت الأساس الذي بنى عليه المبشرون

---

(١) غوستاف لوبون: حضارة الهند ص ٣٣٣.

(٢) اقرأ كتاب المسيحية من سلسلة " مقارنة الأديان " للمؤلف ص ٧٥ - ١١٢.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الغربيون فيما بعد جهودهم لنشر المسيحية بوسائل التبشير الحديثة، ولكن نتائج التبشير المسيحي في الحالتين كانت ضئيلة جدا على كل حال.
وجاء الإسلام، وللعرب صلات وثيقة بالهند بدأت قبل الإسلام بعدة قرون بسبب التجارة (١)، عن هذا الطريق، وعن طريق هجرة بعض العرب والفرس المسلمين إلى الشمال الغربي للهند، ثم عن طريق الفتوح العربية والأفغانية والتركية والمغولية، ولسهولة الإسلام ويسر تعاليمه، انتشر الإسلام انتشارا واسعا وسريعا في الهند، فأصبح يعتنقه ما يزيد عن مائة مليون نسمة، وبالإضافة إلى هذا الانتشار وكسب الاتباع أثر الإسلام في الهندوسية، فتكون من اتصال الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي بالحضارة الهندوسية والفكر الهندوسي، حضارة جديدة يسميها غوستاف لوبون (٢) " الحضارة الهندية الإسلامية ".
وكما أثر الإسلام في الهندوسية، نرى المسلمين الهنود تأثروا بالهندوسية، ويمكن القول إن عامتهم انحرفوا بالإسلام فجعلوه إسلاما فيه اتجاهات هندوسية، ويعد من الانحراف بعض اتجاهات الإسماعيلية وبعض اتجاهات الأحمدية واتجاهات أتباع معين الدين شيستي، وقد نشرت في كتابي " المجتمع الإسلامي " وثيقة تجعل زيارة ضريح هذا الشيخ تنوب عن الحج إلى بيت الله الحرام. وتقرر الطواف حول ما سماه ابن الشيخ " الروضة الشريفة " كالطواف حول الكعبة، وتسمى الباب المؤدي لساحة الضريح: " باب الجنة " وتقرر بصراحة أن " من المأثور أن هؤلاء الذين سيعبرون باب الجنة إلى الروضة ستفتح لهم أبواب الجنة بعد موتهم " (٣).

---

(١) اقرأ عن تجارة العرب مع الهند والصين موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية للمؤلف ج ١ ص ٤٥ و ٧١ من الطبعة الخامسة.
(٢) حضارة الهند ص ٤١٧.
(٣) المجتمع الإسلامي للمؤلف ص ٣٠١ من الطبعة الثالثة. (م - ٧ أديان الهند)

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وذكرت في هذا الكتاب كذلك معلومات خطيرة عن الأحمدية وقولهم عن خاتم الأنبياء (١).

أما الإسماعيلية فقد اقتبست كثيرا من اتجاهاتهم وسجلتها في الجزء الثاني من موسوعة " التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية " (٢).

وليست هذه الانحرافات إلا تأثرا بالهندوسية.

ويعدد غوستاف لوبون بعض ملاحظات له عن تأثر مسلمي الهند بالهندوسية، في تدينهم وحياتهم الاجتماعية، ونقتبس فيما يلي بعض ما قاله:

" ولم يوفق الإسلام لنشر المساواة بين جميع الناس في البقاع الهندية التي يهيمن عليها، مع أن القول بالمساواة كان من أهم الأسباب التي دفعت الناس لاعتناق الإسلام، وظل المسلمون في الهند يعرفون نظام الطوائف عمليا إن لم يعرفوه نظريا.

" واقتبس الإسلام في الهند بعض التقاليد البوذية والبرهمية، فمن ذلك أن جميع المسلمين يمارسون تقديس الذخائر المماثلة لتلك التي يعبدها البوذيون، فعند المسلمين شعرات يقدسونها يقال إنها من لحية النبي محمد كما أن البوذيين يحتفظون بشعرات من غوتاما، وأتباع الديانات الثلاث: الإسلام والبوذية والهندوسية يقدسون مواقع أقدام ينسبونها لبراهما وبوذا ومحمد " (٣).

وهذه الكلمات تكتب وفي كشمير ثورة عارمة لأن شعرة يقدسها المسلمون لاعتقادهم أنها من شعرات الرسول محمد صلوات الله عليه قد

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠٤ وما بعدها من الطبعة الثالثة

(٢) ص ١٦٧ - ١٧٨.

(٣) حضارة الهند ص ٦٢٨.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

سرقت، وقد أدى اختفاء هذه الشعرة إلى حوادث اضطراب متصلة، وتظاهر المسلمون، وثاروا ثورة عنيفة احتجاجا على سرقة هذا الأثر المقدس، ويصور البيان الذي أصدرته حكومة كشمير يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٦٣ مدى سخط المسلمين وهياجهم لضياع هذا الأثر العظيم، يقول البيان:

إن المتظاهرين قد زحفوا على محطة إذاعة كشمير وأشعلوا - وهم في طريقهم إليها - النار في المباني الحكومية، ومكاتب شركات التأمين، ومراكز البوليس، ودارين للسينما، وفندق. ولما أسرعت سيارات المطافئ لإطفاء الحرائق هاجمها المتظاهرون وضربوا جنودها وأشعلوا فيها النار أيضا.

وفي اليوم التالي أضربت جميع المصانع والمتاجر الإسلامية في سريناجار عاصمة المنطقة الهندية من كشمير، احتجاجا على سرقة شعرة النبي محمد من مسجد حضرة بال. وقامت مظاهرات ضخمة عقب صلاة الجمعة ظلت تطوف شوارع العاصمة، ثم عقد المتظاهرون اجتماعا عاما استنكروا فيه سرقة شعرة النبي.

وقامت الحكومة باتخاذ إجراء بوليسي في كشمير، وطلب المتظاهرون أن تقوم الأمم المتحدة بتعيين لجنة لبحث ما أسموه بأعمال القمع التي تتخذها الهند ضد الشعب المسلم في هذه المنطقة من كشمير بعد سرقة شعرة النبي.

ولم تهدأ الأحوال في كشمير إلا بإعادة هذا الأثر العظيم إلى مكانه، فقد طلع صبح اليوم الرابع من يناير فوجدت الشعرة في نفس صندوقها موضوعا في مكانه بمسجد حضرة بال.

وحادثة الشعرة هذه التي أثارت المسلمين لاعتقادهم أن الهندوس سرقوها، تعتبر نموذجا لحدة الخلاف بين المسلمين والهندوس، ومن أسباب الخلاف العنيفة كذلك نظرة الهندوس والمسلمين للبقرة، فالهندوس يقدسونها،

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ولكن المسلمين يذبحونها، ومن أسباب الخلاف كذلك نظرة هؤلاء وأولئك للتماثيل، فمعابد الهندوس مكتظة بالآلهة، ومساجد المسلمين لا تماثيل فيها، وكان من نتائج هذا الخلاف أن تم تقسيم الهند سياسيا إلى دولتين على أساس الدين، فأعلنت الباكستان بجز أيها الشرقي والغربي دولة إسلامية، تعداد سكانها ثمانون مليون نسمة ٩٠ % منهم مسلمون، أما باقي شبه الجزيرة فقد احتفظ بالتسمية القديمة " الهند " وبين سكانه ١٠ % مسلمون، إما الغالبية العظمى للسكان فيتبعون الهندوسية، وتعداد الهند يبلغ حوالي ٣٥٠ مليون نسمة.

ويقول غوستاف لوبون (١) إن الجهود التي بذلت لحمل الهندوس على التوحيد عندما دخلوا الإسلام لم تنجح، بل أدت إلى إضافة إله جديد إلى الآلهة التي كانوا يعبدونها، وكثير من الهندوس المسلمين يؤلهون محمدا، ثم أخذوا يؤلهون عليا، وأبناء الطبقات الدنيا من مسلمي الهندوس يؤلهون كثيرا من الأولياء، فيخلطونهم بالآلهة البرهمية القديمة.

بقي أن نقرر حقيقة لا تحتاج إلى كبير عناء، هي أن انحراف مسلمي الهند الذي أورده غوستاف لوبون، إنما ينطبق على بعض العامة، أما مثقفو الهند فيتبعون الدين الإسلامي القويم، ومن بين مثقفي المسلمين الهنود برزت صفوة مختارة من الباحثين المسلمين، فإقبال ومولاي محمد علي وخودابخش وسيد أمير على وغيرهم ليسوا إلا غرة في موكب الباحثين والمفكرين المسلمين.

ولنعد الآن إلى تحول آخر في الهندوسية، فلقد ثار بعض الزعماء والملوك، على كثرة الأديان، فأرادوا أن يخلقوا دينا جديدا يكون مزيجا منها جميعا أو مزيجا من أهمها، ويعلق غوستاف لوبون على هذه

---

(١) المرجع السابق ص ٦٢٦ وانظر كذلك ٣٢ - ٣٠. Hinduism P

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

المحاولة بأنها لم تنجح، وأن كل ما عملته هو أنها أضافت دينا جديدا لأديان الهند التي ضارعت أوراق الأشجار في كثرتها (١)، وأعظم هذه المحاولات هي المحاولة التي قام بها المصلح نانك لخلق ديانة واحدة من الإسلام والهندوسية، عرفت بمذهب السك، وقد ولد نانك في أواخر القرن الخامس عشر، ولما شب دعا لمذهبه الجديد فاتبعه ناس كثيرون، وبعد قرنين على وفاة نانك ظهر المرشد غووند وهو الذي نظم المذهب ونشره ودافع عنه حتى استقر في الهند كدين جديد يضاف للأديان السابقة دون أن يستطيع أن يجمع بينها.

ويمكن أن يعد ضمن هذه المحاولات ما قام به الإمبراطور أكبر (١٥٤٢ – ١٦٠٥) أعظم أباطرة المغول بالهند، فإن هذا الإمبراطور لم يتمسك بالدين الإسلامي، بل أعلن سنة ١٥٨٢ دينا جديدا أسماه " الدين الإلهي " وحث رعاياه على اتباعه، ولكن هذا الدين اختفى بوفاة الإمبراطور.

وانتعشت الهندوسية متغلبة من حيث العدد على كل الأديان التي قامت في الهند، فالهندوسية ليست دينا فحسب، إنها – كما قلنا من قبل – مجموعة عادات وتقاليد وأفكار، إنها التراث الوجداني والعقلي والاجتماعي الذي يتوارثه الهنود جيلا عن جيل، على أن انتعاشها في الزمن الحديث جاء وقد تشربت من البوذية والجينية والإسلام صورا من أفكارها، وألوانا من معتقداتها وآدابها، ويبلغ عدد الهندوس الآن حوالي مائتي مليون نسمة (٢).

وينبغي ألا نقع في خطأ وقع فيه بعض الباحثين عن الهندوسية، فقد ظن هؤلاء أن الهندوسية – وهي تقاليد الهنود وفلسفتهم – لم يكن لها تأثير إلا على سكان شبه الجزيرة الهندية، فكما كانت اليهودية دين

---

(١) غوستاف لوبون: حضارة الهند ص ٦٢٧.

(٢). ٤٢. Religions of the World p: Berry

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

بني إسرائيل كانت الهندوسية دين الهنود وفلسفتهم، وهذا صحيح إذا لوحظت الهندوسية نفسها التي يمكن القول أنها لم تخرج من الهند، ولكن الحقيقة أن الهندوسية أثرت بدرجات متفاوتة في البوذية وفي أفكار بعض المسلمين وفي بعض الأديان والمعتقدات الهندية الأخرى، ومن الهند خرجت هذه الأديان تحمل ملامح من الهندوسية فانتشرت في الأقطار المجاورة للهند، وبخاصة شرقي آسيا وجنوبيها الشرقي، فالإسلام الذي وفد من الهند إلى بعض مناطق إندونيسيا والفيليبين فيه بعض عناصر من الهندوسية، والبوذية التي هجرت الهند إلى كمبوديا وتايلاند وبورما ونيبال ليست بوذية خالصة ولكن بها عناصر كثيرة من الهندوسية، وفي بالي بإندونيسيا دين مزيج من الهندوسية والبوذية والأفكار البدائية التي سبقت الويدا وعاصرت قرونها الأولى. وكذلك انتقلت عناصر من الهندوسية مع المهاجرين الهنود الذين ينتشرون في أماكن متعددة من إفريقية وآسيا (١).

وبمناسبة تأثر الهند بالأفكار الخارجية وتأثيرها فيها، ويقرر Rylands أن الهند اتصلت بطريق التجارة أو الحروب بالعراق وفارس وقلب آسيا وبورما والصين وسومطرة وجاوة واليونان وروما، ولكن التفاعل الفكري كان ضئيلا جدا، فقد كان دستور الهند دائما هو إحاطة الفكر الهندي بسور بحيث لا يتسرب منه ولا له شئ من الخارج، وفيما عدا البوذية لم تصدر الهند شيئا من أفكارها وفلسفاتها (٢).

الهندوسية في الميزان

إن دراسة الهندوسية تبرزها معقدة غير معقولة، تهتم بالخرافات، وتهبط في مستواها متأثرة بالسحر وبالألفاظ الجوفاء، وهذا مأخذ يؤخذ على

---

(١) by lowis Renou p. Hinduism Ed .٢ .

(٢) The Peoples and Religions of India p .٣٠٨ .

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الهندوسية، ومما يؤخذ على الهندوسية كذلك تأثيرها البالغ في هبوط المستوى الاقتصادي لمعتنقيها، فبعض طبقاتها لا تعمل لأن العمل لا يليق بمكانتها السامية كطبقة البراهمة وطبقة الحكام والجنود، وبعض طبقاتها لا تعمل لأن مهمتها أن تخدم السادة وأن تسهر على رفاهيتهم، ويتبقى للعمل طبقة واحدة يتحتم عليها أن تعمل للطبقات الأربع، على أن نظام الطبقات نفسه يعاب على الهندوسية لتعطيله تكافؤ الفرص وحرمانه كثيرا من الناس من حقوقهم في السبق والتفوق إن أهلتهم مواهبهم لذلك.

ويؤخذ على الهندوسية كذلك السلبية العميقة، والتسامح الذي يصل إلى درجة الرضا بالضيم، وربما عد التسامح فضيلة ولكن المبالغة فيه تنقله إلى محيط الرذائل.

ومن العادات المقيتة في الهندوسية التبكير في الزواج، فقد كان الأطفال يعقد لهم بالزواج وهم يحبون، وإذا مات الولد – وكثيرا ما كان يموت الصبيان – ترملت زوجته وأمضت حياتها أرملة حزينة عليه، وكثيرا ما كانت الزوجة تلقى بنفسها في النار لتحرق نفسها بنفس النار التي أشعلت ليحرق بها جثمان زوجها الميت.

وبمناسبة الحديث عن حرق أجسام الموتى الهندوس تقرر أن كثيرا من الناس يرون في حرق الجثمان مهانة وقسوة، وقد تحدث الناس في البلاد العربية عن ذلك في الفترة التي سبقت إخراج هذا الكتاب بمناسبة حرق جثمان الزعيم الهندي " نهرو " ونذكر هؤلاء بما سبق أن أوردناه من أن الفكر الهندي لا يهتم بالجسد حتى في حال الحياة، أي في حال حمله للروح التي هي موضع الاهتمام والتقديس، فإهمال الجسد بعد خروج الروح منه أيسر وأسهل.

والهندي يفضل الانفراد والأنانية، والفلسفة في الهندوسية تدريب روحي، وهي تتطلب من الشخص أن يهذب نفسه وما حوله أكثر

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

من أن تتطلب منه أن يفكر، فالعلاقة بين الفيلسوف وبين العالم ليست إلا علاقة سحر وافتنان.

وليس للفرد أهمية تذكر في الهندوسية، ويكاد يكون مهتملا لأنه ليس إلا عضوا في جماعة هي بدورها عضو في جماعة أكبر، وكل العناية تتجه للجماعة لا لأفرادها، ثم إن أهداف الهندوسية الرئيسية هي الحالة العامة (The Situation) وليس للأفراد ولا حتى للجماعات أية قيمة إلا في ضوء الحفاظ على الحالة العامة.

والهندوسية دين غموض وخفاء، والصدق أهم معالم الهندوسية على اختلاف شعبها، والزهد والحرمان طريق الهندوسية المفتوح للجميع كوسيلة للنقاء، والهندوسية دين الحكمة، ومن أجل الحكمة في الهندوسية تأثر الإغريق بها عندما ذهبوا إلى الهند واتصلوا بثقافاتها. وتستطيع الحكمة في الهندوسية أن تمد ثقافة العصر الحديث بعناصر نافعة خيرة، ويرى بعض الباحثين أن اتصال الهندوسية بالحكمة أكثر من اتصالها بالروح.

وقد مرت على الهندوسية آلاف السنين، ولا تزال محتفظة بتعاليمها، ولم يستطع إصلاح داخلي أن يغير من جوهرها، ولا سمحت بإصلاح من الخارج ليقتحم عليها رقعتها، فإذا هبت حركة إصلاحية داخلية كالبوذية، أو جاءت من الخارج حركة إصلاحية كالإسلام، كان تأثير الهندوسية في حركة المقاومة أكثر من تأثرها بها. على أن الهندوسية ستضطر لتنحني أمام الأفكار التي تقاوم اتجاهاتها الآن، فلم يعد مستقبل أية أمة من الأمم في يدها وحدها، ولعل نظام الطبقات سيكون أسرع نظم الهندوسية إلى الزوال (١).

---

(١) p. Lowis Renou p. Hinduism Ed .٣٦ - ٣٨ .

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

القرن السادس قبل الميلاد:

يعتبر القرن السادس قبل الميلادي من أجدر عصور التاريخ بالملاحظة، ففي كل مكان به كانت عقول الناس تظهر جرأة جديدة، وفي كل مكان كان الناس يستيقظون مما ران عليهم من تقاليد الأباطرة والكهان والقرابين، ويسألون أشد الأسئلة تعمقا ونفاذا، وكأنما الجنس البشري قد بلغ مرحلة الرشد بعد طفولة دامت عشرين ألف سنة. فن هذا القرن ظهر بالهند مهاويرا معلم الجينية، وظهر غوتاما مؤسس البوذية، وظهر بالصين كونفوشيوس المربي العظيم، وفي إيران ظهر زرادشت، وبين بني إسرائيل قام أشعيا وغيره من المعلمين، وفي بلاد الإغريق ارتفع صوت فيثاغورس، وفي مدينة إفيسس تجلى هيراقليتوس يواصل تأملاته وأبحاثه الفكرية في طبيعة الأشياء، وهكذا هبت موجة فكرية تجاوبت أصداؤها في كل مكان (١).

النشاط الفكري بالهند:

ومن بين ألوان النشاط الفكري التي انبثقت في القرن السادس كان – كما قلنا – ظهور مهاويرا وبوذا بالهند – ويلاحظ على أفكار هذين المعلمين، بل على أفكار جميع المصلحين والفلاسفة الهنود أنها دارت في الفلك الهندي ولم تتجاوزه، فالجميع يرون أن الحياة الدنيا تعاسة، والعيش فيها ويل، والتغير والزوال أساس الحسرات وأصل الآلام، والجميع يقولون بتكرار المولد، وبالزهد وسيلة للنجاة... وإذا شذ أي مفكر هندي عن هذا الإطار ضاع صوته دون غناء، ويقول الفيلسوف

---

(١) A Short History of the World p: Wells .١٢١
وثقافة الهند (مارس سنة ١٩٥٠) ص ١٧.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الهندي عبد السلام الرامبوري عن فرقة الصرواكيين: إنهم شرذمة خالفوا كيان تربتهم فأكلتهم (١). ومن أجل هذا التشابه اختلط أمر الجينية مثلا على غوستاف لوبون فعدها فرعا من البوذية (٢)، ومن أجل هذا أيضا لم تستطع البوذية الصمود في معركتها ضد الهندوسية حول موضوع الطبقات، وغادرت البوذية وطنها ثمنا لهذا الخلاف، ودخل نظام الطبقات إلى البوذية بشكل عملي وإن أنكرته نظريا، أما الجينية فقد اضطرت بعد فشل مقاومتها إلى العودة لقبول نظام الطبقات بشكل ما، فقررت الاعتراف بالبراهمة ورسمت إجلالهم، وبذلك استطاعت البقاء في الهند (٣).

منشأ الجينية والبوذية:

وضع البراهمة نظام الطبقات كما قلنا في حديثا عن الهندوسية، وخص البراهمة أنفسهم بكثير من الامتيازات التي ذكرنا بعضها عند الكلام عن نظام الطبقات (٤)، وفي ظل هذا النظام استبد البراهمة وظهر عسفهم وطغيانهم أحيانا، وضج الناس من استبداد البراهمة وجورهم وتمنوا ظهور قائد روحي جديد يخلصهم من ظلم البراهمة وطغيانهم، وكانت طائفة الكشتريا أكثر الطوائف إحساسا بهذا الظلم لشدة ما بين الطائفتين من تنافس كنتيجة لقرب المسافة بينهما. ويمكننا هنا أن نشير إلى أسطورة وردت في مهابهارتا تدل على مدى ما بين الطائفتين من أضغان، وتتصل هذه الأسطورة بالأميرة " ديوياني " التي سبق أن يحدثنا عنها عند التعريف الذي أوردناه بمهابهارتا، وموجز الأسطورة أن " ديوياني " وهي

---

(١) فلسفة الهند القديمة ص ٦٠.
(٢) حضارة الهند ص ٦٢٢.
(٢) المرجع السابق ص ٦٢٢ - ٦٢٣.
(٤) ص ٥٣ - ٦٠.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

من طبقة البراهمة خرجت في نزهة في فصل القيظ، مع " سرمستها " بنت ملك أسورا ومعهما بعض الأتراب، ووصلن بحيرة، فخلعن ملابسهن ونزلن للاستحمام، فهبت عاصفة حملت ملابسهن وخلطتها بعضها ببعض، وخرجن من البحيرة، فأخطأت " سرمستها " بنت الملك ولبست ملابس " ديوياني " البرهمنية. فقالت لها " ديوياني ": ألا تعلمين أيتها الجاهلة أن كسوة بنت الشيخ أكبر من أن ترتديها بنت التلميذ؟ هل أنت بلهاء إلى هذا الحد؟ فغضبت " سرمستها " وأجابت: أنا بنت ملك يذكره الناس شاكرين أياديه، وأنت بنت رجل يعيش على الاحسان، عشيرتي عشيرة البر، وعشيرتك عشيرة الاستعطاف والتسول.... وأخرجت كل منهما ما في جعبتها من الحقد، ولم يقنع البراهمة بعد ذلك إلا بعقوبة قاسية تقع على بنت الملك، واختارت " ديوياني " العقوبة التي ترضيها، وهي أن تصبح بنت الملك خادمة لها في المنزل الذي ستتزوج فيه.

وهكذا كان هناك سخط من كل الطبقات ضد استبداد البراهمة، وكان الكشتريا أكثر الطوائف سخطا، ثم كانوا – لقوتهم – المسؤولين عن مقاومة طغيان البراهمة وجبروتهم، وهكذا دب في نفوس أبناء الكشتريا إحساس بضرورة الثورة، وقوى هذا الاحساس على مر الزمن، حتى جاء القرن السادس فإذا بالاحساس يصبح واقعا. فتهب ثورتان كبيرتان في وجه الهندوسية، يقود مهاويرا إحدى هاتين الثورتين، ويقود غوتاما ثانيتهما، فلنبدأ بالحديث عن الأولى.

مهاويرا زعيم الجينية

بيت مهاويرا وولادته ونشأته:

ينحدر مهاويرا من أسرة من طبقة الكاشتريا التي تسيطر على أمور السياسة والحرب، وكانت أسرته تقيم في " بيساره " وهي بالقرب من

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

المدينة المسماة الآن " بتنا " بولاية " بيهار " وكان أبوه " سدهارتها " عضوا في المجلس الذي يحكم المدينة أو قطاع المحاربين فيها، وتزوج " سدهارتها " من بنت رئيس هذا المجلس واسمها " ترى سالا " وارتقت مكانة " سدهارتها " حتى وصفته بعض الروايات بأنه كان أمير المدينة أو ملكها، وكان مهاويرا الابن الثاني لوالديه، ولذلك آلت الإمارة إلى أخيه عقب وفاة الأب.

وكان مولد مهاويرا سنة ٥٩٩ ق. م. وفى اليوم الثاني عشر لولادته اجتمع أعضاء الأسرة في حفل كبير، ودعيت عمة الطفل لتختار له اسما كالعادة، غير أن والديه ذكرا أن الأسرة نعمت بالرخاء، والخير منذ حملت به أمه، واقترحا لذلك أن يسمى " وردهاماتا " أي الزيادة، ولكن أتباعه يدعونه " مهاويرا " مدعين أنه الاسم الذي اختارته له الآلهة ومعناه البطل العظيم، ويدعى كذلك " جينا " أي القاهر والمتغلب، وبهذا الوصف سميت الفرقة كلها وسميت به الديانة الجينية لأن مؤسسيها عرفوا بقهر شهواتهم والتغلب على رغباتهم المادية (١).

ونشأ مهاويرا في بيته المجيد، وسط الرخاء وطيب العيش، وكانت أسرته تستقبل من حين لآخر وفود الرهبان وجماعات النساك حيث يجدون في دار الأمير إقامة طيبة وحسن ترحيب، وكان مهاويرا منذ نعومة أظفاره يحب مجالستهم ويستمع إلى حكمهم وإرشاداتهم، وتأثر مهاويرا بهم وبفلسفاتهم فعزف عن المتع والملاذ الدنيوية، ومال إلى الرهبنة والتبتل والزهد، ولكن الظروف لم تكن تسمح له بالتعمق في الرهبنة والخوض في الزهد نظرا لمكانة أسرته التي كانت ترعى شؤون السياسة والنضال، وتعيش في الترف والبذخ.

---

(١) حامد عبد القادر. بوذا الأكبر ص ٢٦.
Religions of the Wolrd p: Berry .٤١ .

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ودفعته حياة أسرته إلى الزواج، فتزوج بفتاة اسمها " يسودا " وولدت له بنتا سميت " أنوجا " وظل مهاويرا طيلة حياة والديه يكبت إحساسه وشوقه للترهب ويعيش في الظاهر كما يعيش أبناء طائفته، وينطوي باطنه على رغبة في الزهد والصفاء، فلما توفي والداه أتيحت له الفرصة ليعلن ما أخفى، وكان أخوه الأمير قد تولى الإمارة، فطلب منه مهاويرا أن يأذن له في الرهبنة، ولكن الأمير خشي أن يظن الناس أن تصرف مهاويرا كان نتيجة لقسوة أخيه عليه أو تقصيره في مطالبه، فطلب الأمير من مهاويرا أن يؤجل ذلك عاما، فاستجاب له مهاويرا، وفي الموعد المحدد عقد اجتماع كبير تحت شجرة أشوكا اشترك فيه أفراد الأسرة وأهالي البلدة، وأعلن مهاويرا فيه رغبته في التخلي عن الملك والألقاب ومتاع الدنيا ليخلو للزهد والتبتل، وكان هذا مطلع حياته الروحية الصريحة، فخلع ملابسه الفاخرة، ونزع حليه، وحلق رأسه، وبدأ حياة جديدة وكانت سنه آنذاك ثلاثين عاما.

ترهب مهاويرا ودعوته:

صام مهاويرا يومين ونصف يوم، ونتف شعر جسمه، وبدأ يجوب البلاد حافيا وفي زي الزهاد والنساك، ولجأ إلى الزهد والجوع والتقشف، وغرق في التفكير، واهتم بالرياضة الصعبة القاسية والتأملات النفسية العميقة، وبعد ثلاثة عشر شهرا من ترهبه خلع ملابسه دون حياء، إذ كان قد قتل في نفسه عواطف الجوع والاحساس والحياء، وكان أحيانا يعتكف في المقابر، ولكن أكثر وقته كان يمضيه متجولا في طول البلاد وعرضها، وكان يغرق في المراقبة إلى حد لا يشعر فيه بالحزن أو السرور، لا بالألم أو الراحة، وكان يعيش على الصدقات الطفيفة التي تقدم إليه.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ودرجات العلم عند الجينيين خمسة سنتكلم عنها فيما بعد، ويرى الجينية أن مهاويرا ولد مزودا بثلاث منها، فلما واصل تأملاته وتقشفه حصل على الدرجة الرابعة. واستمر مهاويرا يصارع المادة ويزيد في تبتله، فراح يجوب البلاد دون راحة، وحرص كل الحرص على ألا يقتل حيا. وكان يراقب نفسه مراقبة دقيقة في صمت تام، وبعد اثنى عشر عاما أصبح - كما يقول عنه أتباعه - سيره مستقيما كسير الحياة، لا يبالي بالعراقيل كالعاصفة، وكان قلبه نقيا كماء البركة في الشتاء، لا يلوثه شئ كورق اللوتس، مشاعره محمية كأعضاء السلحفاة، وحيدا فريدا كقرن الخرتيت، حرا كالطير، جسورا كالفيل، قويا كالثور مهيبا كالأسد، ثابتا كالجبل، عميقا كالبحر، وديعا كالقمر، بهيا كالشمس طاهرا كالإبريز.

ووصل مهاويرا إلى حالة الذهول وعدم الاحساس بما حوله، وأفنى كل اتجاه مادي فيه، فحصل من درجات العلم على الدرجة الخامسة وهي درجة العلم المطلق، ونيل البصيرة أو النجاة، وبعد سنة أخرى من الصراع والتأملات فاز بدرجة " المرشد " أو Tirthankara تير ثانكارا، وبهذا بدأ مهاويرا مرحلة جديدة هي الدعوة لعقيدته، وقد اتجه أول الأمر إلى أسرته وعشيرته فاستجابوا له، ثم استجاب له أهل مدينته، وأخذت دعوته تنتشر بين الملوك والقواد الذين رأوا في هذه الدعوة ما يعبر عن خواطرهم في الثورة على البراهمة، وسار في دعوته بنجاح حتى بلغ الثانية والسبعين، فنزل مدينة بنابورى في ولاية بتنا فألقى على الناس خمسا وخمسين خطبة وأجاب عن ستة وثلاثين سؤالا غير مسؤولة، ولما تمت خطبه حان أجله فقضى نحبه سنة ٥٢٧ ق م في خلوة وحيدا، فتحرر من قيود الحياة وتسلسل الولادة والشيخوخة والموت، وترك تراثا ضخما من الوصايا والحكم والفلسفات جديرة بالتقدير.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

جينا الرابع والعشرون:
ويرى الجينيون أن الجينية مذهب قديم جدا، وأنه قد تم نضجه على يد أربع وعشرين من الجينيين، وكان جينا الأول اسمه " رسابها " وقد ظهر منذ أمد بعيد، ولا يحفظ التاريخ عنه شيئا، ولا ترتبط به إلا بعض الأساطير، وتتابع الجيناوات الواحد بعد الآخر حتى ظهر الجيناوان الأخيران في العصور التاريخية، أما أولهما وهو جينا الثالث والعشرون فاسمه " بارسواناث " وقد ولد في القرن التاسع قبل الميلاد ومات في القرن الثامن، وقد أسس نظاما رهبانيا شدد فيه بضرورة الرياضيات الشاقة المتعبة، وجعل أتباعه قسمين: خاصة وعامة، فالخاصة هم الرهبان والمتبتلون الذين التزموا الرياضة الشاقة والحرمان، وتركوا الأهل والمسكن، وأخذوا يجوبون الأقطار ويطوفون في القرى والأمصار، وهذا القسم هو عمود النظام، والعامة هم الذين يؤيدون النظام بأموالهم ويمدون الرهبان بحاجاتهم، مع بعد عن الفواحش وانشغال بالمكاسب من غير عنف ولا إضرار بأحد، مقتدين بالرهبان ما وسعهم ذلك.
وجاء مهاويرا وهو جينا الرابع والعشرون، فاعتنق مبادئ " بارسواناث " وزاد عليها من فكره وتجاربه وإلهامه، وعلا شأنه، واشتهرت الطريقة باسمه، وعرف النظام بلقبه، فلا تعرف الجينية إلا منسوبة إليه (١).

عقائد الجينية

يقول أحد الفلاسفة الهنود (٢) عن الجينية: هي حركة عقلية متحررة

---

(١) هذه المعلومات خلاصة دراسات وأبحاث كثيرة نشرها فلاسفة الهند عن الجينية، اقرأ كذلك
History of Budd ist Thought by Edward Thomas
(٢) مولانا محمد عبد السلام الرامبوري: " الجينية " ضمن مقالاته وأبحاثه القيمة عن " فلسفة الهند القديمة ".
(م - ٨ أديان الهند)

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

من سلطان الويدات، مطبوعة بطابع الذهن الهندوسي العام، أسس بنيانها على الخوف من تكرار المولد والهرب من الحياة اتقاء شائماتها، منشؤها الزهد في خير الحياة فزعا من أضرارها، عمادها الرياضة الشاقة والمراقبات المتعبة، ومعولها الجمود للملذات والمؤلمات، وسبيلها التقشف والتشدد في العيش، وطريقها الرهبانية ولكن غير رهبانية البرهمية، وقد داوى الجينيون الميول والعواطف بإفنائها، ووصلوا في ذلك إلى إخماد شعلة الحياة بأيديهم، وافتقدوا النجاة في وجود من غير فعلية، وسرور من غير انبعاث.

ذلك موجز القول في عقائد الجينية، وسنعطي فيما يلي من دراسات، بعض التفاصيل العقائد الجينية:

الجينية والإله:

سبق أن ذكرنا أن الجينية كانت نوعا من المقاومة للهندوسية وثورة على سلطان البراهمة، ومن هنا لم يعترف مهاويرا بالآلهة، فالاعتراف بالآلهة قد يخلق من جديد طبقة براهمة أو كهنة يكونون صلة بين الناس والآلهة، وقرر أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون، ومن هنا سمي هذا الدين دين إلحاد، واتجهت الجينية إلى الاعتقاد بأن كل موجود انسانا كان أو حيوانا أو نباتا أو جمادا يتركب من جسم وروح، وأن كل روح من هذه الأرواح خالدة مستقلة؟ جرى عليها التناسخ الذي اتفقت فيه الجينية مع الهندوسية (١).

هذا هو أساس الفكر الجيني تجاه الإله، غير أن الجينية دين مسالم، يبالغ كل المبالغة في البعد عن العنف حتى أنه يكره قتل الهوام والحشرات الصغيرة، وعدم العنف عهد من العهود الأربعة التي وضعها " بارسواناث "

---

(١) ٣١٧. The Peoples and Religions of India p: Weech

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وهو جينا الثالث والعشرون، وبسبب هذه المسالمة اعترف الجينيون بآلهة الهندوس فيما عدا الثالوث (برهما – وشنو – سيفا)، وكانوا في بادئ الأمر – كما يظهر من كتبهم – يعترفون بآلهة الهندوس للهندوس، ويحترمونها للمجاملة والمسالمة، ولكنهم عادوا فأجلوها لذاتها، وإن لم يصلوا في إجلالها إلى درجة الهندوس بطبيعة الحال (١).

غير أن العقل البشري يميل إلى الاعتراف بإله، ويحتاج الالحاد إلى أدلة أكثر من الأدلة التي يحتاجها إثبات الآلهة، ومن هنا وجد فراغ كبير في الجينية بسبب عدم اعتراف مهاويرا بإله يكمل به صورة الدين الذي دعا إليه، وكان من نتيجة ذلك أن اعتبره أتباعه إلها، بل عدوا الجيناوات الأربعة والعشرين آلهة لهم، ولعلهم بذلك كانوا متأثرين بالفكر الهندي الذي يميل في الأكثر إلى تعدد الآلهة.

والجينية تتفق مع الإسلام في جزء يسير يتعلق بروح الإنسان، ذلك هو استقلال كل روح عما عداها، وخضوعها للثواب أو العقاب لما يرتكبه صاحبها، وإن اختلف الإسلام مع الجينية في طريق الثواب والعقاب.

وعدم الاعتراف بالإله استتبع عند الجينيين اتجاهات مهمة سلبية تتعلق بالعقائد، فهم لا يقولون بالصلاة، ولا بتقديم القرابين، ولا يعترفون بالطبقات، ولا بما تدعيه الطبقة العليا في النظام الهندوسي وهي طبقة البراهمة من امتيازات ومزايا. ولكن خلق المسالمة الذي دفع الجينيين إلى الاعتراف بآلهة الهندوس كما ذكرنا آنفا، دعاهم هنا إلى الاعتراف بالبراهمة، وأن من الواجب احترامهم المطلق، وليس معنى هذا وجود طبقة براهمة في الجينية. بل المقصود احترام براهمة الهندوس كطائفة

---

(١) أنظر: " مهاويرا، مؤسس الجينية " في ثقافة الهند (ديسمبر سنة ١٩٥١) ص ١٠.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

لها مكانتها في الدين الهندوسي، أما الطبقات في الجينية فلم تتعد ما وضعه " بارسواناث " من تقسيم الجينيين إلى خاصة وهم الرهبان وعامة وهم من يؤيدون النظام من غير الرهبان، ولم تجعل الجينية للرهبان امتيازات كما فعلت الهندوسية، بل إن الجينية جعلت الرهبنة مشقة وتضحية وتكليفا. وسنشرح ذلك فيما بعد.

الكارما والتناسخ:

سبق أن شرحنا الكارما والتناسخ عند الهندوس، وقد قلنا إن أديان الهند تسير غالبا في فلك الهندوسية، ومن هنا قالت الجينية بالكارما والتناسخ، ولكن الجينية لم تعتقد ما اعتقده الهندوس من أن الكارما أمر اعتباري يحقق قانون الجزاء الذي يحمل الإنسان تبعة أعماله، ويجزيه عليها عن طريق تناسخ الأرواح، بل قالت الجينية بأن الكارما كائن مادي يخالط الروح كأنه يمسك بتلابيبها أو يحيط بها كما تحيط الشرنقة بالفراشة، ولا سبيل لتحرير الروح من ربقة هذا الكائن إلا شدة التقشف والحرمان من الملذات في كل مرحلة من مراحل الحياة، فهذه وحدها هي وسيلة تحرير الروح وحياتها حياة أبدية حرة، وفي ذلك تقول النصوص الجينية المقدسة " كما تتحد الحرارة بالحديد، وكما يمتزج الماء باللبن، كذلك يتحد الكارما بالروح، وبذلك تصير الروح أسيرة في يد الكارما " (١).

وللوصول إلى تخليص الروح من الكارما يظل الإنسان يولد ويموت حتى تطهر نفسه وتنتهي رغباته، وإذ ذاك تقف دائرة عمله ومعها حياته المادية فيبقى روحا خالدا في نعيم خالد، وخلود الروح في النعيم

---

(١) حامد عبد القادر: بوذا الأكبر ص ٢٨.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

بعد تخلصها من المادة يسمى عند الجينيين " النجاة "، وهو ما يعادل الانطلاق في الهندوسية والنرفانا في البوذية.

الحسنة والسيئة:

الحسنة عند الجينيين هي فعل الخيرات كإطعام المساكين ومساعدة المحتاجين، وبخاصة فما يتصل بالرهبان الجينيين، وقسم الجينيون الحسنات تسعة أقسام، وذكروا أن الحسنات تجزى باثنين وأربعين طريقا، منها ما هو في حياة الإنسان الحالية كالبركة والغنى والصحة، ومنها ما هو في حياة قادمة، وأما السيئة فهي ارتكاب الأعمال الخبيثة والفواحش، وقسموها ثمانية عشر نوعا، منها الكذب والسرقة والفسق والفجور والخيانة والجشع وما إلى ذلك، وأشد أنواع الجنايات وأفظعها لدى الجينيين هو الاعتداء على الحياة والعنف والتشدد، ووضعوا كفارات خاصة لكل نوع من السيئات، منها الفقر والتناسخ في أشخاص تعساء أو في قوالب الحيوانات والجمادات (١). وتختلف الحسنات والسيئات باختلاف طبقتي الجينية اللتين سبق أن تحدثنا عنهما وهما طبقتا الخاصة والعامة، على ما يشبه في الفكر الإسلامي الأثر القائل " حسنات الأبرار سيئات المقربين " فما يجوز للعامة لا يجوز صدوره من الخاصة، ويطلب من العامة الخلق الحسن وعمل الحسنات، ويكافئون عليها بما يضمن لهم حياة أو حيوات طيبة، أما " النجاة " فالسبيل إليها شاق عسير، وهي من خصائص الخاصة، وسنتكلم عنها فيما يلي:

النجاة وسبل الوصول إليها:

النجاة هي غاية الكون، وهي التطهر من أوساخ العواطف والشهوات الحيوانية، والتخلص من قيود الحياة، ومن تكرار المولد والموت، وهي

---

(١) محيي الدين الألوئي: الفلسفة الجينية ص ٢٠ بتصرف.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

التمسك بالخير، والتخلي عن ارتكاب الشر، و " النجاة " طور من الوجود يختلف عن أطوار الحياة الدنيا الفانية. وهي الفوز بالسرور الخالد الذي لا يشوبه ألم ولا حزن ولا هم، ولا تكون للأرواح الناجية مطامع خاصة ولا أهداف تستميلها، والشخص الناجي ليس بذي جسم مادي، وليس بطويل ولا قصير، ولا لون له، يحيط بكل شئ، مطلق من جميع القيود، يكون دائما في سرور وطمأنينة واستقرار ونعيم مقيم، مكانه فوق الخلاء الكوني، وليس للنجاة نهاية فهي أبدية سرمدية. ولا تحصل النجاة إلا بعد عبور المرحلة البشرية بما فيها من عوائق ومتاعب. ولا نجاة بالمعنى الحقيقي إلا للبشر كما قال مهاويرا في وصفه للحياة والنجاة (١)، ولا توصف النجاة بوصف نعلمه، ولا بحال نتعقله.

والسبيل إلى " النجاة " شاق عسير كما قلنا من قبل، ولا يطمع فيها إلا الخاصة من الرهبان. وللوصول للنجاة يتحتم على الناسك ألا يوقع أذى بإنسان أو حيوان، وعليه أن يدرك أن احترام الحياة أقدس ما عني به مهاويرا، وعلى هذا يحرم عليه قتل الحيوان وبالتالي أكل اللحوم، ولعل لهذا صلة بصوم المسيحيين عما فيه روح، فأغلب الظن أن صوم المسيحيين على هذا الوجه انحدر لهم من الفكر الجيني، ويبالغ الرهبان في الحيطة والحفاظ على ما فيه روح، فيمسك بعضهم بمكنسة ينظف بها طريقه أو مجلسه خشية أن يطأ حشرة فيها روح فيؤذيها أو يقتلها، ويضع بعضهم غشاء على وجهه يتنفس خلاله حتى لا يستنشق أي كائن حي وهو يلتقط أنفاسه.

ولا بد للنجاة كذلك من قهر جميع المشاعر والعواطف والحاجات، ومؤدى هذا ألا يحس الراهب بحب أو كره، ولا بسرور أو حزن،

---

(١) أنظر المرجع السابق ص ٢٠ - ٢١.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ولا بحر أو برد، ولا بخوف أو حياء، ولا بجوع أو عطش، ولا بخير أو شر. والجيني بذلك يصل إلى حالة من الجمود والخمود والذهول فلا يشعر بما حوله، ودليل ذلك أن يتعرى فلا يحس بحياء وينتف شعره فلا يتألم، لأنه لو أحس بما في الحياة من خير وشر أو نظم متفق عليها، فمعنى هذا أنه لا يزال متعلقا بها خاضعا لمقاييسها، وهذا يبعده عن النجاة. ولما كان أبرز ما في هذا التنظيم هو العرى، والجوع حتى الموت، سميت الجينية دين العرى ودين الانتحار.

العرى والانتحار في الجينية:

وعن فكرة العرى يقول أحد علماء الجينية في محاضرة له عنها (١):

يعيش الرهبان الجينيون عراة، لأن الجينية تقول: ما دام المرء يرى في العرى ما نراه نحن، فإنه لا ينال النجاة، فليس لأحد أن ينال نجاة ما دام يتذكر العار، فعلى المرء أن ينسى ذلك بتاتا ليتمكن من اجتياز بحر الحياة الزاخر، فطالما تذكر الإنسان أنه يوجد خير أو شر، حسن أو قبح. فمعناه أنه لا يزال متعلقا بالدنيا وبما فيها فلا يفوز ب " موشكا " أي النجاة، ويبين هذا خير بيان الحكاية المعروفة عن طرد آدم وحواء من الجنة، فقد كانا يعيشان فيها عاريين بطهر كامل، لا يعرفون هما ولا غما، خيرا ولا شرا، حتى أراد عدوهما الشيطان أن يحرمهما مما كانا فيه من البهجة والسرور والسعادة، فحملهما على أن يأكلا من شجرة العلم بالخير والشر، فأخرجا من الجنة، فالذي حرمهما من الجنة هو علمهما بالخير والشر وبأنهما عاريان (٢)، ويرى الجينيون أن الشعور بالحياء يتضمن تصور الإثم، وعلى العكس من ذلك فعدم الشعور

---

(١) نقلا عن ثقافة الهند (ديسمبر سنة ١٩٥١) ص ١٣ - ١٤.

(٢) هذا هو رأي الجينيين، ونرى نحن المسلمين أن خروجهما كان لعصيان آدم أمر ربه " وعصى آدم ربه فغوى ".

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

بالحياء معناه عدم تصور الإثم وذلك زيادة في النقاء، فعلى كل ناسك يريد أن يحيا حياة بريئة من الإثم أن يعيش عاريا، ويتخذ من الهواء والسماء لباسا له.
أما الانتحار فقد كان نتيجة للتخلي عن كل عمل، وترك كل ما يغذي الجسم لعدم الاحساس بالجوع، ولقطع الروابط بالحياة، وللتدليل على أن الراهب أو الراهبة لم يبق له اهتمام بهذا الجسد الفاني، فهو يجيعه، وينتف شعره، ويعرضه لظواهر الطبيعة القاسية حتى الموت. وقد انتشر الانتحار بالجوع بين رهبان الجينيين قديما (١).
ويعتبر الانتحار غاية أو جائزة لا تتاح إلا لخاصة الرهبان الذين اتبعوا النظام الجيني الذي سنشرحه عند الكلام عن فلسفة الجينية، وإتاحة الفرصة للانتحار معناها قطع الأعمال التي هي مظنة إلحاق الضرر بأي كائن ذي روح، ولا يكون ذلك إلا بعد قضاء اثنى عشر عاما أو ثلاثة عشر عاما داخل الناموس الصارم المرسوم للرهبان الجينيين.
أليس تناقضا عجيبا أن يحرص الجينيون بالغ الحرص على الحياة لكل حشرة وكل دابة، ثم يجعلون انتحار الرهبان جوعا قربى من القربات؟ مهما قيل من الأسباب فإني أراه إيذاء للإنسان وقضاء على حياته، مع أن الجينية لا تلحق الأذى بأحد ولا تقر القضاء على الحياة، ويظل تساؤلنا هذا قائما مع تذكرنا أنهم يعملون ذلك رغبة في الخلود أو النجاة، أو نتيجة للخمود والجمود.

---

(١) هذه المعلومات نظمت على هذا النسق بعد جهد، وجمعت من المراجع الآتية:
أ - خطب جينا.
ب - أعداد كثيرة من " ثقافة الهند ".
ج - تاريخ الإسلام في الهند للأستاذ عبد المنعم النمر.
د - The peoples and Religions of India: Weech
ه - Religions of the World: Berry في عدة صفحات.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ولنعد للعامة من الجينيين، هؤلاء لا يلزمهم أن يقوموا بكل هذه المناسك والسبل، ولكن عليهم أن يقوموا ببعضها في حدود طاقتهم، فعليهم ألا يوقعوا الأذى بإنسان أو حيوان، وعليهم ألا يقتلوا النفس وألا يأكلوا اللحم وأن يقهروا رغباتهم، ولكن لا إلى درجة الجمود والخمود والذهول التي يتبعها الرهبان.

فلسفة الجينية من كتبهم المقدسة

المصادر المقدسة لدى الجينيين هي خطب مهاويرا ووصاياه ثم الخطب والوصايا المنسوبة للمريدين والعرفاء والرهبان والنساك الجينيين، وقد انتقل هذا التراث المقدس من جيل إلى جيل عن المشافهة، ثم خيف ضياع هذا التراث أو ضياع بعضه أو اختلاطه بغيره فاتجهت النية إلى جمعه وكتابته، واجتمع لذلك زعماء الجينية في القرن الرابع قبل الميلاد في مدينة " باطلى بترا " وتدارسوا هذا الأمر وجمعوا بعض هذا التراث في عدة أسفار، ولكنهم اختلفوا بعضهم على بعض في بعض المصادر، كما لم ينجحوا في جمع الناس حول ما اتفقوا عليه، ولذلك تأجلت كتابة القانون الجيني حتى سنة ٥٧ م فدونوا آنذاك ما استطاعوا الحصول عليه بعد أن فقد كثير من هذا التراث بوفاة الحفاظ والعارفين، وفي القرن الخامس الميلادي عقدوا مجلسا آخر بمدينة " ولا بهى " حيث تقرر الرأي الأخير حول التراث الجيني المقدس.

أما لغة هذا التراث فكانت اللغة المسماة " أردها مجدي " فلما اتجهت النية إلى حفظة وتدوينه اختيرت اللغة السنسكريتية لهذا الغرض، وكانت لغة " أردها مجدي " هي لغة هذا التراث قبل الميلاد، أما اللغة السنسكريتية فقد حلت محلها في القرون الميلادية الأولى.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وسنختار من هذا التراث المقدس بعض نماذج تشرح لنا أهم اتجاهات الفلسفة الجينية:

اليواقيت الثلاثة:

يقول الجينيون: إن الحياة الدنيا تعاسة مستمرة وشقاء متصل، نعيمها زائل والعيش فيها باطل، نطمح فيها إلى الخير فننال شرا، ونبتغي السعادة فتصيبنا الشقاوة حتى نموت ولم تنته حسراتنا! ثم نحيا حياة قد كسبتها أيدينا، خيرها تهلكة فكيف بشرها، وتدوم عجلة الموت والحياة فيا لنا من خاسرين، ولا دواء إلا بأن ننزع عنها، ونزهد في الحياة وترفها، ولكن هناك شيئا يجعلنا نتمسك بالحياة، ويزين لنا باطلها، ما هو؟ إنه الغواية (Mittyaiaua) التي تخلق العقائد الفاسدة والأخلاق السيئة، والجهل المشين، وهذه تكسو الروح بظلام، ويتراكم الظلام فتعمى الروح وتسير على غير هدى، تحب الحياة وشهواتها، وتسير في طريق الضلال، وتظل الروح على هذا الوضع بين الموت والولادة، حتى ينبثق النور إما من أعماق الروح بطريق الصدفة أو الالهام، وإما بقيادة العرفاء والمبشرين وهدايتهم، وليس هذا النور إلا السبيل المثلث أو اليواقيت الثلاثة التي من اتبعها وصل إلى بر السلامة، وهذه اليواقيت هي:

١ – الياقوتة الأولى الاعتقاد الصحيح: وهو رأس " النجاة "

ويقصدون به الاعتقاد بالقادة الجينيين الأربعة والعشرين، فإن ذلك هو المنهج المعبد والصراط السوي، ولا يكون الاعتقاد الصحيح إلا إذا تخلصت النفس من أدران الذنوب اللاصقة بها، والتي تحول دون وصول الروح إلى هذا الاعتقاد.

٢ – الياقوتة الثانية العلم الصحيح: ويقصد به معرفة الكون من ناحيتيه المادية والروحية والتفريق بين هذه وتلك، وتختلف درجة المعرفة باختلاف

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

قوة البصيرة وصفاء الروح، ويستطيع الشخص الذي يفصل أثر المادة عن قوته الروحية وإشراقها أن يرى الكون في صورته الحقيقية، وتتكشف لديه الحقائق، وترتفع عنه الحجب الكثيفة فيميز الحق من الباطل والظن من اليقين، ولا تشتبه عليه الأمور، ولا يكون العلم الصحيح إلا بعد الاعتقاد الصحيح.

٣ – الياقوتة الثالثة الخلق الصحيح: ويقصد به التخلق بالأخلاق الجيتية من التحلي بالحسنات والتخلي عن السيئات، وعدم القتل وعدم الكذب وعدم السرقة، والتمسك بالعفة، والزهد في المملكية.

واليواقيت الثلاثة مرتبطة بعضها ببعض، وإذا اكتملت في إنسان فإنه يجد لذة لا تعدلها لذة وسعادة ليس مثلها سعادة.

المبادئ الأساسية لطهارة الروح:

وضع الجينيون سبعة أصول رئيسية لتطهير الروح، وتعتبر هذه الأصول أمهات المبادئ الجينية. وهي:

١ – أخذ العهود والمواثيق مع القادة والرهبان بأن يتمسك المريد بالخلق الحميد ويقلع عن الخلق السيئ.

٢ – التقوى، وهي المحافظة على الورع، والاحتياط في الأقوال والأعمال، وفي جميع الحركات والسكنات، وتجنب الأذى والضرر لأي كان حي مهما كان حقيرا.

٣ – التقليل من الحركات البدنية، ومن الكلام، ومن التفكير في الأمور الدنيوية الجسمانية، حتى لا تضع الأوقات والأنفاس الثمينة في صغار الأمور.

٤ – التحلي بعشر خصال هي أمهات الفضائل ووسائل الكمال وهي: العفو والصدق والاستقامة، والتواضع والنظافة، وضبط النفس والتقشف الظاهري والباطني، والزهد واعتزال النساء والإيثار.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

٥ – التفكير في الحقائق الأساسية عن الكون وعن النفس، وبعض أمور الكون وأمور النفس يتوصل لها بالحواس الخمسة المادية، وبعضها لا يتوصل إليها إلا بمنظار الذهن ومن هنا لزم استعمال الحواس المادية واستعمال الفكر كذلك.

٦ – السيطرة على متاعب الحياة وهمومها التي تنشأ من الأعراض الجسمانية أو المادية، كمشاعر الجوع والعطش والبرودة والحرارة، وسائر أنواع الشهوات المادية، وعليه أن يضرب حصنا متينا حوله للتخلص من هذه الأعراض والحواس والتأثر بها.

٧ – القناعة الكاملة والطمأنينة والخلق الحسن، والطهارة الظاهرية والباطنية.

وتدعي الجينية أن هذه المبادئ تطلق الإنسان من الوثاق الذي يشده بالحياة، ويسلب عنه الراحة الذهنية والطمأنينة القلبية، وإذا اتصف أحد بهذه الصفات السبع فإنها تخرجه من الظلمات التي تحيط به بسبب هموم الدنيا ومشاكلها العديدة، حتى تصير روحه حرة طليقة تنساب في سماء المعرفة والنور العلوي، وتحيط بالعلوم الربانية والكشف الباطني، فتكون في سرور دائم ولذة معنوية مطلقة، وهذه هي الطريقة الجينية للنجاة.

درجات العلم في الفلسفة الجينية:

تقسم الفلسفة الجينية العلم خمسة أقسام حسب مصادره، وتكثر الفلسفة الجينية من التفريعات لكل قسم، ولنكتف هنا بإيراد الأقسام الخمسة الرئيسية:

١ – الادراك بطريق الحواس أو بطريق الذهن، ويشمل هذا الادراك عن طريق القياس والاستقراء المبنيين على المشاهدة، كما يشتمل على الفهم

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

والحفظ والاحساس، ويستلزم هذا العلم حضور الأشياء المعلومة للحواس أولا حتى يتم إدراكها.

٢ – العلم عن طريق الوثائق المقدسة، ويعرف هذا القسم بالعلم غير المباشر لتوسط المستندات والوثائق بين من يعلم وما يعلم، وتدعي الجينية أن كتبهم المقدسة لم تغادر صغيرة ولا كبيرة.

٣ – العلم بالوجدان المحدود، وهو إدراك ذي الصورة من الأشياء الموجودة، بطريق الروح، فالمدرك هنا موجود يمكن أن يرى، ولكن لبعده مثلا لا تراه العين، وتراه الروح في هذه المرحلة من مراحل العلم. وللوصول إلى هذه المرحلة لا بد من تطهير الروح من الأدران والأوساخ والسمو بها عن الوساوس والأوهام.

٤ – العلم بالوجدان المحيط، وهو إدراك بطريق الروح لما ليست له صورة الآن، فهو إدراك يتخطى مسافات الأزمنة والأمكنة، يعلم ما في السماء وما في الأرض من ظاهر وباطن وما كان فيهما، وهي مرحلة أعلى طبعا من سابقتها وتستلزم مزيدا من الطهر والصفاء.

٥ – العلم بمخبأت الضمائر والتصورات في السرائر، فهو علم بما لم يوجد إلا من حيث أنه خاطر في الذهن، وهو أرقى درجات العلم، ولا يتم إلا للذين هجروا الأهل والوطن وطهروا أنفسهم بالرياضة الشاقة (١).

---

(١) هذه المعلومات مستقاة من مراجع متعددة بعد جهد واسع في المقابلة والتنقيح والتنظيم وأهمها دراسات الأستاذ مولانا محمد عبد السلام الرامبوري عن " فلسفة الهند القديمة " والأستاذ محيي الدين الألوئي عن الفلسفة الجينية ودراسات Weech و Ryland عن The Peoples and Religions of India ودراسات Allen عن The Buddha s Philosophy

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

لمحة تاريخية

كانت الجينية فرقة واحدة طيلة حياة مهاويرا، ولم يحدث بها إلا خلافات غير عميقة الجذور سرعان ما كانت تلتئم، وبعد وفاة مهاويرا حدث انقسام خطير شطر الجينية إلى فرقتين تسمى إحداهما ديجامبرا Digambara أي أصحاب الزي السماوي أي الذين اتخذوا السماء كساء لهم (والمقصود بهم العراة)، والثانية تسمى سويتامبرا Svetambara أي أصحاب الزي الأبيض، وعن هاتين الفرقتين حدثت فرق أخرى كثيرة غير مهمة، ويلاحظ أن تعدد الفرق لم يمس الفلسفة الأصيلة للجينية أو العقائد الرئيسية التي سبق أن تحدثنا عنها، وإنما اتصل بأمور ونقاط غير مهمة، وتحدث عن تفاصيل الأساطير وممارسة التقشف، ففرقة دبجامبرا ترى أن مهاويرا حملت به أمه " ترى سالا " من بدء الأمر لا أنه استل جنينا من رحم ديوننداا البرهمية ثم ألقى به في رحم " ترى سالا " كما تعتقد فرقة سويتامبرا، وتنفي فرقة ديجامبرا عن مهاويرا ما تراه غير لائق به، فتقول إنه لم يتزوج قط، وإن هجر البيت والدنيا منذ مطلع حياته غير مبال بعواطف والديه، ويعتقدون أن العرفاء الكاملين لا يقتاتون بشئ، ويقولون إن من يملك شيئا من متع الدنيا ولو كان ثوبا واحدا يستر به عورته لا ينجو، ويرون أن النساء لاحظ لهن في النجاة ما دمن في قوالب النساء، أي إلا إذا دخلت أرواحهن في قوالب أخرى في حياة من الحيوات المتكررة، ويعتقدون أن التراث الديني المقدس للجينية قد ضاع كله، وأما ما تتلوه فرقة سويتامبرا فموضوع ومختلق.

أما فرقة سويتامبرا ففرقة معتدلة، ترى أن مهاويرا وإن كان ميالا من وقت أن بدأ شعوره إلى هجر الدنيا وقطع العلائق، إلا أنه لم يفعل ذلك في حياة والديه احتراما لإحساسهما، ويروون عنه قوله في ذلك:

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

" لا يليق بي وأنا الابن البار أن أنتف شعري وأقبل على حياة التقشف والحرمان تاركا البيت والأسرة احتراما لعواطف والدي، وهم يبيحون الطعام للعرفاء، ويرون إمكان لنجاة للنساء.

وهناك افتراق حدث للجينيين بسبب مجاعة شديدة نزلت بموطنهم الذي كانوا يتجمعون فيه في بلاد مكدا، فلجأ عدد كبير منهم إلى الهجرة طلبا للعيش وتخفيفا للعب ء عن سكان المنطقة، وذهب هؤلاء إلى الجنوب بزعامة بدرا باهو Bhadra Bahu وأقام النصف الباقي تحت رقابة استولا بدرا Sthula Badra (١).

وقد سبق أن ذكرنا أن الجينية فرقتان: خاصة وهم الرهبان المنقطعون للتبتل، وعامة وهم الذين يؤيدون النظام الجيني، ويساعدون الرهبان ماديا، ويباشرون حياة العمل، مع تخلقهم ما استطاعوا بأخلاق الفكر الجيني، وقد كان لهؤلاء وأولئك نصيب في تاريخ الجينية، ومن أهم ما قالت به الجينية، مما حبب هذا الدين للحكام والملوك، أن الجينية مع أنها لا توقع أذى بذي روح توجب أن يطيع الشعب حاكمه، وتقضي بذبح من يعصي الملك أو يتمرد عليه، ولعل هذا هو الذي جعل الملوك والرجاوات يقبلون على الجينية يعتنقونها ويؤيدونها سواء في وادي الإندوس أو في الدكن (٢).

وفي ابتداء العصور الوسطى حصلت للجينية رعاية من كثير من السلاطين، وأصبح للرهبان الجينيين نفوذ كبير في بلاط كثير من الملوك والحكام، لا سيما في بلاط الملك سدراج والملك كماربلا، وبعد سقوط إمبراطورية ديجانكر بقي في الجنوب حكام صغار من الجينيين إلى أن

---

(١) الرامبوري: فلسفة الهند القديمة ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) ٣١٧. The Peoples and Religions of India p: Weech

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ظهرت سلطة الإنجليز، وفي عهد الحكم الإسلامي نالوا كذلك الاحترام والتقدير، واستخدمهم الملوك المسلمون في بلاطهم وفي كثير من الأعمال، وجاء الإمبراطور الشهير أكبر (١٥٥٦ - ١٦٠٥ م). الذي أدار ظهره للإسلام واتجه إلى خلق دين جديد مزيج من جميع الأديان، وبخاصة أديان الهند الأصلية فاحتضن الجينية، وخلع على المعلم الجيني " هيراويجيا " لقب (معلم الدنيا) ومنع ذبح الحيوانات أيام أعياد الجينيين في المناطق التي يوجد بها أتباع لهذه الطائفة (١).

والجينيون من طبقة العامة، أي الطبقة التي تباشر الأعمال وتساعد الرهبان، يكثر أن يعرضوا عن الزراعة خوفا مما تستلزمه من قتل بعض الديدان وإلحاق الضرر بما فيه روح، ويتجه هؤلاء غالبا إلى التجارة وإقراض النقود وأعمال البنوك مما يقل فيه الاعتداء على ذوي الأرواح، وقد ضمنت لهم هذه الأعمال نصيبا كبيرا من الثراء والرقي الاقتصادي، حتى أصبح معظمهم من أغنى الأغنياء وأنجح الناس في التجارة والمعاملات المالية، وقد مكنهم ثراؤهم من أن يلعبوا دورا هاما في خدمة الثقافة الهندية والتراث العلمي والفني على العموم.

وللجينيين أياد واضحة بصفة خاصة في خدمة فن المعمار، فقد برعوا في النحت وإقامة التماثيل وتشييد العمائر والمعابد براعة فائقة، وقد نحتوا الكهف العظيم المسمى " هاتي كنبا " في منطفة أوريسة في القرن الثاني قبل المسيح. والكهوف الجينية كثيرة ومنتشرة في مختلف أنحاء الهند، والجينيون مولعون بتعمير المعابد، والمعبد ضروري للمجتمع الجيني، كما أن تعميره فرض ديني لديهم (٢).

---

(١) أنظر بحثا عن " الطائفة الجينية في ثقافة الهند " سبتمبر سنة ١٩٥٦ ص ٦٩ - ٧٠.

(٢) المرجع السابق ص ٧٠.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وعن معابد الجينيين يقول غوستاف لوبون (١): ولا تجد ديانة تعتد بالمعابد اعتداد الجينية، ولا تجد ديانة شادت من المعابد الكبيرة الفخمة أعظم مما شادته الجينية، فالحق أن معابد الجينية في كهجورا وجبل آبو هي عجائب فن البناء في الهند، والحق أنه يخيل إلى الناظر في أروقتها شبه المظلمة، اهتزاز قوم من الخلائق الغريبة المنقوشة على الحجر يشعون حياة ويكتنفون أحد الجيناوات البادي هادئا رزينا متربعا في جلوسه على العموم، وهو في حالة عري كامل.

ويبلغ تعداد الجينيين الآن حوالي المليون، وكلهم في الهند، فالجينية كالهندوسية لم تخرج من الهند، ومستواهم الاجتماعي والثقافي راق في الغالب، وعنايتهم بالثقافة لا تقل عن عنايتهم بالمال والفنون.

وعلى الصفحات التالية نماذج من رسوم وصور للعمائر الجينية والفن الجيني.

---

(١) حضارة الهند ص ٦٢٣.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ذكرنا من قبل أن البوذية كانت أحد الاتجاهات الفكرية التي نبعت في القرن السادس، وذكرنا كذلك أنها كالجينية سارت في إطار الفكر الهندي في أكثر مبادئها، وذكرنا أيضا أنها كالجينية كانت رد فعل لعسف البراهمة واستبدادهم مما أثار عليهم الطبقات الأخرى وبخاصة طبقة الكشتريا، حيث الأمراء والمحاربون: وقد انتهينا من الحديث عن الجينية إحدى الحركتين الفكريتين المتعاصرتين، فلنبدأ الآن في الحديث عن البوذية.

بيت بوذا وحياته

مولده ونشأته:

في الناحية الشرقية من الهند، وبجانب مملكة كوسالا Kausala بين مدينة بنارس وجبال الهملايا، شمال نهر الكنج المقدس، حيث تقع الآن آجام كثيفة على حدود نيبال، كانت تمتد أرض خصبة محضرة يانعة فارعة الأشجار طيبة الخمائل، وكانت هذه الأرض موطن قبيلة ساكيا (Sakya) من الطبقة الكشترية، وكان أمراء القبيلة هم أصحاب السيادة على هذه البقعة، وسلاطينها المسموعي الكلمة، النافذي الرأي.

وكان سدودانا (Suddhodana) أحد نبلاء هذه القبيلة، يقطن قرية تدعى كبيلاواثو Kapilavathu، له فيها ضياع فسيحة، وزروع نضرة، وقصور شاهقة، وجاه عريض، وكان متزوجا من نبيلة اسمها مايا (Maya) يعيش معها في هذا النعيم المقيم والمجد العظيم.

وفى سنة ٥٦٣ قبل الميلاد (١) أنجب هذا الأبوان طفلا أطلقا عليه

---

(١) هذا التحديد ذكره Edward Thomas وبناه على عمر بوذا عند وفاته في سن الثمانين سنة ٤٨٣ ق. م وعلى عمليات حسابية أخرى تجعل هذا التحديد أقرب إلى الدقة (أنظر:: The Life of Buddha p ٢٧.)

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

سذهاتا (Siddharta) وماتت أمه في الأسبوع الأول من ولادته فحضنته خالته مهاياباتي (Mahayapati)، وشب الطفل في هذا النعيم العظيم كما يشب أترابه من أبناء السادة والملوك، ووجد الدنيا كلها تحت أمره، والنعيم رهن إرادته، وتهيأت له مفاتن الحياة، وانبسط الأمل أمام عينيه، وتدفقت المسرات تحفه من كل جانب، وبلغ مطلع الشباب وهو يرفل في هذه النعمة، كلمته مسموعة، ورأيه مطاع، وسارع أبوه فزوجه من ابنة أحد الأمراء واسمها يا سودهرا ولم يطل الوقت حتى ولد له ابن سموه راهولا (Rahula)

كان من الممكن أن يعبر سذهاتا الحياة كما عبرها ويعبرها آلاف مثله من الأمراء والملوك، وكان من الممكن أن تنسيه مفاتن الحياة التي نعم بها تلك الآلام التي يعانيها البؤساء والأشقياء، وكان من الممكن أن يلهيه شبابه عن هرم الشيوخ، وصحته عن آلام المرضى، وحياته المرحة عن صور الموت والفناء، كما لها سواه وشغف بالحياة، كأن الشباب لا يهرم والصحة لا تنحل والحياة لا تزول (١)

كان من الممكن أن يحصل هذا ولكن سذهاتا لم يستسلم للملاذ والشهوات، ولم يفرغ لنفسه ويستغرق في شهواته، وإنما عاش فردا في مجموعة يفكر فيها ويحس بإحساسها، لا بل الحق أن نقول إن سذهاتا جذبه جانب الشر والألم في الحياة أكثر مما جذبه جانب النعيم والسرور، فلم يرضخ للحياة التي رسمت له، وإنما رسم هو لنفسه حياة من طراز آخر على ما سيأتي تفصيله فيما بعد.

أفكار سذهاتا وفلسفته:

تروي الأقاصيص أن سذهاتا التقى مرة بشيخ عجوز واهن يتوكأ على

---

(١) The Peoples and Religions of India p: Rylands. A. G . ٣١٨ .

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

عصاه ويوشك أن ينكفئ على صدره. وقد احدودب ظهره وتقوس، وثقل عليه رأسه فلا يطيق حمله، فاضطرب له سذهاتا وتألم له، فقال له رفيقه شانا (Channa): هكذا نهج الحياة ولا مفر لنا من هذا المصير، وتروي قصة أخرى أن سذهاتا رأى مريضا يتلوى من المرض، ويئن من الألم، ويشكو من العناء، وأهله حوله لا يستطيعون إيقاف الألم، بل لا يرون الداء، ولا يحسون بالعناء، فقال له شانا: هكذا نهج الحياة، وتروي قصة ثالثة أن سذهاتا شاهد جثة أمعن فيها البلى، وانبعثت منها رائحة مؤذية ونتن كريه، فاستغرق في التفكير، فقال له شانا: هكذا نهج الحياة.

وفكر سذهاتا في هذا العناء وهذا الشقاء، ما مصدره؟ وكيف يمكن التخلص منه؟ وبخاصة أن كل إنسان لا بد أن يعاني المرض يوما، ولا بد أن يعاني سكرات الموت، وكثيرون من الناس يمتد بهم العمر فيعانون الهرم والشيخوخة.

وأحس والده باتجاهه، فحاول مقاومة هذا الاتجاه، بأن يبعد مناظر الألم عن ابنه، وأن يسبغ عليه مزيدا من اللذات والمسرات لتجذبه عن التفكير في الآلام والشجون، ولكن هذه الأحاسيس كانت قد تمكنت من فكر سذهاتا، فلم يكن من السهل أن ينثني عنها، ثم إن سذهاتا عمق فيه هذا الطابع، وكان اتجاهه صدى لأحاسيس نفسية قوية، ولهذا فإن إبعاده عن هذه المناظر لم يأت بأية ثمرة (١).

واستقر رأى سذهاتا على أن يدع صخب الحياة وأن يبدأ حياة الزهد والفكر لعله يصل إلى معرفة سر الكون، وفي إحدى الليالي حيث كان القصر يموج بالبشر والمسرات بسبب ولادة ابنه، قال سذهاتا: وهذه رابطة أخرى علينا أن نفصمها، وحزم سذهاتا أمره على أن يفارق هذه الملاذ وأن يبدأ تأملاته، وفي هجعة القصر بعد ما شاهده من مرح وغناء، ألقى سذهاتا

---

(١) من رأى Edward Thomas مؤرخ البوذية أن الفترة الأولى من حياة غوتاما غامضة، وأن ما كتب عنها ليس إلا من الأساطير التي حاكتها أقلام تلاميذه ومريديه بعد أن حصل على المعرفة وبدأ دعوته (أنظر: The Life of Buddha ص ٣ - ٥).

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

نظرة أخيرة على زوجته وطفله، وتسلل من القصر، وامتطى جواده، وانطلق إلى مرحلة جديدة، وكانت سنه آنذاك تسعة وعشرين سنة (١).

سار سذهاتا في تلك الليلة شقة بعيدة، حتى إذا أسفر الصبح توقف خارج أراضي عشيرته على ضفة نهر رملية، وهناك ترجل، وقطع بسيفه ذوائبه المتهدلة، وأماط عنه كل حلية، وأرسلها مع حصانه وسيفه إلى منزله، ثم واصل سيره حتى التقى براهبين من البراهمة، فبقي معهما وتتلمذ عليهما، وأراد عن طريقهما أن يصل إلى غايته، ولكن بعد فترة تأكد له أن ما يعيشان فيه من زهادة وتقشف شئ مقصود لذاته، كأنه الغاية التي يتطلعان إليها، وكان سذهاتا يريد الزهادة وسيلة لمعرفة أسرار الكون، ولذلك هجرهما سذهاتا، وقرر أن يسعى بنفسه لنيل المعرفة وكشف أسرار الكون، وقد سلك من أجل هذا وسائل متعددة كالتصوف والفلسفة (٢)، ثم انجذب نحو دنيا الرهبنة، فبدأ حياة الترهب، لذلك يحسن بنا في هذه المرحلة من حياته أن نسميه غوتاما Gautama أي الراهب (٣)، أوغوتاما أسير الفلسفة الهندية.

وقبل أن نسترسل في هذه المرحلة من حياة سذهاتا يحسن بنا أن نتساءل: لماذا اتجهت فلسفة جوتاما إلى الآلام والأشجان حتى أصبحت الحياة كلها في نظره جحيما لا يطاق ونسي ما في الحياة من معروف وخير وتخفيف ضر وتحقيق أمل؟ ثم لماذا اتخذ التقشف والانقطاع والتبتل سبيلا للوصول إلى كشف الحجاب عنه؟.

---

(١). ٥٤. The life of Buddha p: Edward Thomas

(٢) ٤٣. Religions of the World p: Berry.

(٣) هذا ما نرجحه، وتذكر بعض المراجع أن " غوتاما " كان اسم أسرته، ومن الألقاب التي أطلقت عليه أيضا لقب " موني " أي المنفرد المنعزل عن الناس فكان يقال عنه " ساكيا موني " أي المتبتل المنعزل من قبيلة ساكيا

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

كل هذه الأسئلة تدفع الباحث إلى الاعتقاد أن غوتاما كان على الأقل في هذه الفترة أسير الفلسفة الهندوسية، قرأها، وعرف اتجاهاتها وتأثر بميولها إلى العزلة والزهد والانقطاع عن الناس لمن يفكر ولمن لا يفكر، فلما رأى غوتاما منظر المرض والشيخوخة وجثة الميت ضعف دافع المقاومة في نفسه، ورجح عنده الميل إلى سلوك نفس الطريق الذي سلكه الهندوس من قبل.

غوتاما في تقشفه:

لجأ غوتاما إلى العزلة والتقشف، وخلع ثيابه، واكتفى برقاع أو أوراق شجر يستر بها عورته، وألقى بجسمه بين الأشواك، والحصا، وأهمل الطعام والشراب والملاذ، ويقال إنه كان يتبلغ بمقدار ضئيل جدا من الطعام بلغ أحيانا حبة من الأرز في اليوم، واتخذ ذلك طريقا رجاء أن تكشف له أسرار الحياة. ويعرف السبيل للنجاة من عنائها، وقام بألوان من الرياضات النفسية رغبة في أن يطهر نفسه حتى تصل إلى سر الكون، وقد كلفته هذه الأعمال اضمحلالا في جسمه وانحلالا في قواه، وزامله في هذه الفترة القاسية خمسة من النساك، وكانوا يرونه أكثرهم قسوة على نفسه، وأصبرهم على الآلام، ولذلك وضعوه في موضع الزعامة بينهم، إذ كانت الزعامة في ذلك الحين لمن يستطيع أن يكون أشد صرامة وقسوة على جسمه. وأمضى غوتاما سبع سنين في هذا الصراع العنيف لم يحس في أثنائها ولا في نهايتها بأي أثر يسير به إلى غايته، وأدرك أن ما يفعله ما هو إلا جهاد لجسمه لا يغني فتيلا، وهنا أقدم غوتاما بشجاعة على ما لم يكن معهودا في نساك عصره، هؤلاء النساك الذين يرون محاربة الجسم كأنها غاية وليست وسيلة، ويستمرون في هذه الحرب حتى الفناء، وربما عدوا قديسين بسبب ذلك الموقف، أما غوتاما

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

فكان كما قلنا قد اتخذ الزهد وسيلة، ثم رأى أنها وسيلة غير مجدية، فأعلن تمرده على هذه الطريقة، وعاد إلى طعامه وشرابه وكسائه، وقرر أن يتوقف عن قتل شهوات نفسه بالجوع، وأعلن أن خير ما يوصله إلى غايته عقل يتغذى في جسم سليم. وقد خيب فعله هذا أمل أتباعه فيه، ففارقوه آسفين على ما آل إليه أمره.

الإشراقة والكشف عن الأسرار:

على أن غوتاما – وإن كان قد عدل عن إماتة نفسه وتعذيبها – فإنه لم يعدل عن تفكيره، ومن الواضح أن الإنسان يستطيع فجأة أن يغير أحواله المادية من صوم إلى طعام، ومن تقشف إلى بذخ، ولكنه لا يستطيع بسهولة أن يتخلى عن تفكيره وفلسفته، وبينما كان يمشي وحيدا موحشا مال إلى شجرة في غابة أو رويلا (Uruvala) ليتفيأ ظلالها ريثما يتناول طعامه، ولكن المقام طاب له في ظل هذه الشجرة، ويقال إنه أحس برغبة في البقاء تحتها بعض الوقت، فاستجاب لهذه الرغبة وبقي تحت الشجرة، وفي هذا المكان حدث ما تمناه غوتاما ويقول غوتاما واصفا هذه المرحلة:

" سمعت صوتا من داخلي يقول بكل جلاء وقوة: نعم في الكون حق، أيها الناسك، هنا لك حق لا ريب فيه، جاهد نفسك اليوم حتى تناله.

" فجلست تحت تلك الشجرة في تلك الليلة من شهر الأزهار، وقلت لعقلي وجسدي: اسمعا، لا تبرحا هذا المكان حتى أجد ذلك الحق، لينشف الجلد، ولتتقطع العروق، ولتنفصل العظام، وليقف الدم عن الجريان، لن أقوم من مكاني حتى أعرف الحق الذي أنشده، فينجيني ".

وتم له في هذه الجلسة الإشراقة التي كان يترقبها (١)، ويراها بعض الباحثين الغربيين وحيا (٢)، ويصورها بوذا بأنها صوت حادثه وسنروي هذا الحديث عند الكلام عن النرفانا (٣).

---

(١) The Life of Buddha p: Edward Thomas .٨٠

(٢) The History of the World p: Rene Sedillot .٦٢

(٣) ص ١٥٩

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وهنا ننقل عبارة مولانا محمد عبد السلام الرامبوري (١) وهي: " وكان مستغرقا في تأمله خائضا في تفكره إذ أخذته نزعة سماوية، فغاب عن نفسه وعن كل ما حوله، وطفق يطرأ عليه حال بعد حال، ويلحقه طور وراء طور، ثم عاد شعوره يتجلى رويدا رويدا، فأشرق الكون لديه وأصبح العقل يتجرد عن شوائب المادية، فانشرح صدره، ورأى العالم في تكوناته وتقلباته ومباديه ومناحيه، وقد غلب اللاهوت وتنور اللاهوت، فذاق سرورا ما خطر بباله قبل، ووجد قوة ما استشعر بها قط، فأبصر ينابع الحياة وأحاط بمنابع الآلام واستوعب منابت البؤس، واكشف مقاليد السرور، ورأى سبيلا يهدي إلى تلاشي الأحزان وزهوق الآلام، فأدرك متمناه ونال مبتغاه، وتخلص من تقلبات الحياة، ونجا من حزازات الآلام، وتيقظ شعوره، وتنورت بصيرته، واستوى على عرش البوذية وصارا بوذا (Buddha) أي العارف المستيقظ والعالم المتنور "

ومن الآن سنطلق على بطل هذه الديانة (بوذا) وهو الاسم أو اللقب الذي حصل عليه عندما انكشف عنه الغطاء، ويحسن بنا هنا أن ننقل العبارة التي سجل بها بوذا هذه اللحظة التي يعتبرها هو ويعتبرها أتباعه لحظة إشراق وفوز. يقول بوذا " لما أدركت هذا تحررت من الهوى، تحررت من شرور الكون الأرضي، تحررت من شرور الخطأ، تحررت من شرور الجهل، وتيقظ في المتحرر شعور التحرر وشعور عدم تكرر المولد، قد انتهى الصراط المقدس، قد تمت الفريضة، فلن أرجع إلى هذه الدنيا رجعة أخرى قد أبصرت هذا " (٢).

ترى ما هذه الإشراقة التي حصل عليها بوذا؟ وما هذا السر الذي كشف له؟ وما هذه الأنوار التي أحاطت بنفسه؟ وما تلك الوسائل التي استطاع بها أن يحل مشكلات الحياة؟ ويوقف المرض والشيخوخة والموت؟!!

---

(١) فلسفة الهند القديمة ص ٨٩ - ٩٠.

(٢) محمد عبد السلام الرامبوري: فلسفة الهند القديمة.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

على كل حال لنسر الآن شوطا آخر قبل أن نتحدث عن الإشراقة أو ما يسميه البوذيون " النرفانا " وهي السر أو الحل لكل هذه الآلام.
ونحب هنا أن نوضح بعض الأسماء والظاهر الجديدة التي حدثت مع حدوث البوذية، ومن أهمها إطلاق لقب (بوذا) أي العارف المستنير على غوتاما كما ذكر آنفا، واللفظ في الأصل وصف، ولكن غلب إطلاقه على غوتاما، فأصبح علما عليه، وجاز بذلك استعماله من غير " أل " التعريفية، وبوذا هو الاسم الذي سنستعمله منذ الآن في الحديث عن سذهاتا الأمير أو غوتاما الراهب:
أما الشجرة التي كان بوذا يجلس تحتها عندما تم له الكشف فقد سميت شجرة العلم، أو الشجرة المقدسة، وقد احتلت عند البوذيين مكانة سامية، مثل مكانة الصليب عند المسيحيين، وإذا كان المسيحيون قد نشروا الصليب في حياتهم ورسموه على حليهم وأجسامهم، فإن البوذيين يرون في الشجرة المقدمة شيئا يجب أن يسعى له الناس لا أن يسعى هو للناس، ولهذا زرعوا في كل قطر شجرة واحدة من نوع الشجرة المقدمة يحج الناس إليها، في مناسبات مختلفة، وفي معبد بروبو دور بالقرب من جوكجا كرتا بإندونيسيا توجد الشجرة الوحيدة في جاوة من هذا النوع، والبوذيون يسعون إليها للتبرك والزيارة، وتحميها إدارة المعبد بسور حولها خوف أن يلتقط البوذيون أوراقها أو أغصانها للتبرك، أو يعبثوا بجذعها في تقربهم لها واحتكاكهم بها ويعلق Wells على عناية البوذيين بهذه الشجرة بقوله:
ومن سوء الحظ أن تلاميذ جوتاما عنوا بحفظ شجرته أكثر من عنايتهم بالحفاظ على أفكاره التي أساءوا منذ البداية فهمها وشوهوها ومسخوها (١)
أما غابة أورويلا فقد فقدت منذ ذلك التاريخ هذا الاسم واتخذت اسما جديدا يتناسب مع هذا الحدث الجلل الذي حدث بها وهذا الاسم هو بوذاكيا (Budphagya).

---

(١) معالم تاريخ الإنسانية: المجلد الثاني ص ٤٧٢

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

تمثال بوذا كما يبدو في أكثر المعابد الغوذية
(م – ١٠ أديان الهند)

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الدعوة للبوذية وإعداد دعاتها:

وبعد أن كشف عن بوذا الحجاب وأدرك منيته وقف مترددا بعض الوقت وسائل نفسه: أيقنع وحده بهذا النعيم الذي انغمس فيه. ويستمتع وحده بهذا السر الذي انكشف له؟ أم يبشر به ويذيع أمره بين الناس حتى ينعموا معه بتلك السعادة وذلك السرور؟ وفكر بوذا في قصور البشر عن إدراك هذه الحقائق السامية، وخشي أن يكذبه الناس ويرموه بالافتراء أو الجنون، فأوشك أن يكتفي بهذا السر لنفسه، غير أن جانب الخير - كما يقول - غلب عليه، والميل إلى الايثار رجح في نفسه، ورأى أن عليه أن يدعو الناس، وليس عليه أن يفكر في النتيجة، إنه يريد الخير لهم والهداية، فإن لم يستجيبوا فقد أدى واجبه وأرضى ضميره (١). ويعد البوذيون هذا الاتجاه من بوذا مطلع خير لهم وللبشرية جمعاء، وهم يصلون ويكبرون ويعلنون سرورهم واغتباطهم كلما وصلوا في قصة بوذا إلى هذه النقطة (٢).

وعند ما استقر رأى بوذا على أن ينشر دعوته ترك غابة بوذا كيا إلى مدينة بنارس حيث كان يعيش رفاقه الخمسة الذين زاملوه في فترة جهاده وتقشفه، ولما دعاهم لمذهبه لم يبدو أية مقاومة، فقد كان ماضيهم معه يدعوهم لقبول دعوته، ثم خطا بوذا خطوة أخرى فجمع حوله مجموعة من الشبان بلغ تعدادهم الستين، وعلمهم مبادئه ولقنهم دعوته، ووكل إليهم القيام بنشرها ريثما يكمل هو رحلته ليرى أسرته، وقد حاولت أسرته أن تكفه عن هذه الدعوة التي رأوها خيالات تبدت إليه، ولكنه لم يكف، ولم يغيره بريق المال وضروب الرخاء والسعادة. وعاد إلى

---

(١) هذه الانفعالات والتردد سجلتها مراجع البوذية بدقة (انظرها في The Life of Buddha ص ٨١ - ٨٣).

(٢) ٣١ - ٣٠. Philosophy p: Allen Buddha s. F. G

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

أتباعه، حيث بدأت مظاهر النجاح تبدو له، فالتف حوله عدد كبير من الرجال والنساء والشيب والشبان، وكانوا جميعا يتخذون من بوذا مثالا لهم، وكان هو يحيطهم بعنايته ويشملهم جميعا بحدبه ورعايته.

واشتهرت دعوته بتسميتها " النظام " أو " عجلة الشريعة " وقد ظل بوذا يدفع عجلة الشريعة إلى الإمام أكثر من أربعين عاما حتى وصلت سنه الثمانين، واختار حياة المبشر المتسول مع كل ما تشتمل عليه من صعوبات وحرمان، وسخرية ومقاومة، ولم يكن بوذا وحده هو الذي يدعو " للنظام " وإنما اختار – كما سبق القول – نخبة من أتباعه ليقوموا بالدعوة لها في مختلف النواحي، وتدلنا المراجع الرئيسية على أن بوذا كان يختبر الذين سيقومون بالدعوة اختبارا دقيقا قبل أن يرسلهم لهذا الغرض، ونسوق هنا مثالا من هذا الاختبار:

كان أحد المريدين واسمه " بورنا " يريد أن يذهب إلى قبيلة " سرونا بارانتا " لدعوتهم، وكان بوذا يعلم أن هذه القبيلة معروفة بالشراسة والخشونة، ولا ينجح معها إلا الثابت الضليع، فأراد أن يعرف مدى استعداد مريده لتحمل ما قد يلم به من عناء، فقال له: إن رجال هذه القبيلة قساة سريعوا الغضب، فإذا وجهوا إليك ألفاظا بذيئة خشنة، ثم غضبوا عليك وسبوك فماذا كنت فاعلا؟

فأجاب بورنا: أقول: لا شك أن هؤلاء قوم طيبون، لينو العريكة، لأنهم لم يضربوني بأيديهم، ولم يرجموني بالحجارة.

– فإن ضربوك بأيديهم ورجموك بالأحجار، فماذا كنت قائلا؟

– أقول إنهم طيبون لينون إذ لم يضربوني بالعصي ولا بالسيوف.

– فإن ضربوك بالعصي والسيوف؟

– أقول إنهم طيبون لينون إذ لم يحرموني الحياة نهائيا.

– فإن حرموك الحياة؟

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

– أقول إنهم طيبون لينون إذ خلصوا روحي من سجن هذا الجسد السيئ بلا كبير ألم.
فقال له بوذا: أحسنت يا " بورنا " إنك تستطيع بما أوتيته من الصبر والثبات أن تسكن في بلاد قبيلة سرونا باراننا، فاذهب إليهم، وكما تخلصت فخلصهم، وكما وصلت إلى الساحل فأوصلهم معك، وكما تعزيت فعزهم، وكما وصلت إلى مقام النيرفانا الكاملة فأوصلهم إليها مثلك.
فذهب بورنا إليهم وكانت النتيجة أن آمنوا كلهم بالبوذية واتبعوها (١).
ومثل هذا ما ترويه الأساطير والقصص عن دعوة قطاع الطرق لدخول " النظام "، فهؤلاء الذين فروا من الحكومات والسلاطين ولجأوا للغابات قد وصلتهم الدعوة، وأنذرتهم، بأنهم إن فروا من جنود الحكومة، فلن يستطيعوا الفرار من الهرم والموت والذنوب. وطالما استجاب هؤلاء للدعوة، وسجدوا لها، واتبعوها، ليتحرروا من قيد الخوف، وليعيشوا في صفاء، ولم تصل لهم هذه الدعوة إلا بعد إعداد المريدين إعدادا عجيبا جعلهم يسخرون من كل المتاعب، ويقدمون على نشر الدعوة ببطولة نادرة وشجاعة عديمة المثال (٢).
وكان بوذا يودع مريديه الذين يتخذون طريقهم إلى الدعاية والارشاد بقوله: اذهبوا وانشروا " النظام " في البلاد رحمة بسائر الخلق، وإيثارا لمصلحة الكثيرين على راحتكم، ولا يذهبن اثنان منكم في طريق واحد،

---

(١) فريد وجدي: دائرة المعارف ج ٢ ص ٣٨٩ – ٣٩٠.
(٢) أنظر بحثا عن " كيف كان بوذا يصطاد الرجال ويرشدهم " وثقافة الهند ديسمبر سنة ١٩٦١ " ص ٥٦ – ٧٥.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

بل يسلك كل واحد سبيلا غير سبيل أخيه، بشروا بهذه الدعوة، النبيلة في مبدئها، النبيلة في وسطها، النبيلة في غايتها.
وبهذا الاصرار من بوذا ومريديه استطاعت الدعوة أن تنجح وتنتشر.
نجاح بوذا وانتشار البوذية:
شهد القرن الخامس قبل الميلاد نهاية اثنين من عظماء القادة والمفكرين، كان بوذا أولهما، وكان سقراط ثانيهما، وكل منهما هاجم المعتقدات والطقوس وسخر من الأفكار التي كان الناس يتبعونها في عهده، ولم يكن بوذا بأقل من سقراط معارضة وسخرية، فقد قال بإلغاء الطبقات، ولم يعترف بالآلهة الويدية، ولكنا مع هذا نجد أن سقراط يصادف كثيرا من العناء والتعذيب، بل الحكم بالاعدام وتنفيذ هذا الحكم، ولكن بوذا عاش هادئا، ومات هادئا، ورأى بنفسه نجاحه وذيوع دعوته، فما السر في هذا النجاح الذي صادفه بوذا دون كبير عناء؟
الإجابة عن هذا السؤال سهلة يسيرة سبقت الإشارة إليها عند مطلع الكلام عن البوذية، وهي أن اضطراب الناس وحيرتهم في الهند كانا داعيين لقبول أي مذهب يرد أو فكرة تخطر بالبال، ثم إن الغريزة الهندية أكثر احتمالا للتجديد الديني من الغريزة اليونانية.
على أن نجاح بوذا اشتركت فيه بالإضافة إلى الطبيعة الهندية عوامل أخرى من أهمها قوله بإلغاء الطبقات، فقد كان ذلك داعيا إلى أن يتبعه كثيرون ممن انحطت طبقاتهم أو ممن كانوا يحسون بثورة ضد هذه الطبقات المتعددة المتفاوتة السيادة في الهند، وسنتحدث فيما بعد عن موقف بوذا من الطبقات ونتائج هذا الموقف.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ثم كان لصفات بوذا الشخصية أثر كبير فيما صادفه من نجاح، ومن أبرز صفاته عداؤه للتعصب الديني. واعتباره التعصب أعدى أعداء الدين، وقد رأى مرة أحد تلاميذه غارقا في نقاش حاد مع برهمي كان يرمي بوذا بالإلحاد وقلة الورع، وكان يطعن نظام التسول الذي أسسه بوذا، ولما رأى بوذا حماسة تلميذه وحدته أنكر عليه ذلك وقال: أيها الإخوان، إن كان هناك من يقدح في ذاتي أو في ديني أو في " النظام " فليس لكم أن تغضبوا أو تحزنوا أو تحقدوا، لأنكم بهذا تعرضون أنفسكم لخطر الخسارة الروحية أولا. ثم لا تتمكنون في ثورة الغضب من تمحيص أقوال القادح ثانيا.

وكما كان عدوا للتعصب الديني كان عدوا للغضب والطيش، فلم يعرف عنه أنه سب، أو سخط، أو نطق لسانه بكلمة جارحة أو قاسية، وكان يرى الدنيا جاهلة غافلة، لا شريرة خبيثة.

كل هذا جمع الأصدقاء حول بوذا. وسبب لدعوته النجاح الذي حظيت به دون كثير من العناء والجهد (١).

وفاة بوذا:

بلغت عناية الأدب الهندي الحديث ببوذا والبوذية درجة كبيرة، وبين يدي مقال رائع أشبه بقصيدة رقيقة، يصور نهاية بوذا، ومن هذا المقال نقتطف بعض فقرات (٢):

عاشت ياسودهرا زوجة غوتاما منذ خرج زوجها، في كوخ مثل كوخه على مدخل مدينة (راج غاها) ولما احتشدت الجمعية في ظل التل الصغير هناك قبيل انهيار الأمطار، وكان السيد يحرك عجلة الارشاد أمام الجمع، جلست

---

(١) The Life of Buddha pp: Edward Thomas. ٩٧ - ٩٩

(٢) ثقافة الهند (مارس ١٩٥٠) ص ١٢٤ وما بعدها.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ياسودهرا وحدها مختفية بين ذلك الحشد العظيم، تسمع كلام المبارك، وكان راهولا ابنها الوحيد يكلمها مرة واحدة كل سنة، أما السيد فكانت لا تراه.
وعند ما توجه السيد إلى التل، وليس معه إلا آنندا ابن عمه ومريده الأول، أسر إليه السيد قائلا: يا آنندا، لقد حانت الساعة التي تجتاز فيها ياسودهرا العين (أي أنها على وشك أن تنقل لعالم الروح حيث تصبح غير مرئية بالعين، وذلك كناية عن الموت)، فانتهز آنندا هذه الفرصة وأجاب وهو يرتعد: ألا يرى السيد أن يتكلم معها؟
فأبدى السيد موافقته دون أن يفوه بكلمة.
وفي الكوخ وجدا عجوزا شمطاء حليقة الرأس ذابلة، عيناها كالسراج الذي نضب زيته، خائرة القوى، ترتعد، وهتفت لزوجها قالة: قد أطاعت الأمة سيدها، ودخلت النظام منذ أذن لها، والحمل الثقيل الذي حملته أضعه الآن على الأرض، إنه لم يبق في نفسي بذر للحياة.
وسقطت فاقدة الحياة.
قال آنندا: إنها وصفت حملها بأنه ثقيل، هل كان لها أن تتكلم بمثل هذا إن كانت قد نالت النجاة؟
وأجابه كانا أحد المريدين: إنها ماتت حيث تولد من جديد.
واستأنف بوذا سيره ومعه تلاميذه ومريدوه، وظهر التعب والاعياء على السيد، فخاطب تلاميذه قائلا:
كل شئ يؤول إلى الانحلال. وأنا كذلك أيها التلاميذ قد شخت وأو شكت أن أموت، جدوا لتحرير أرواحكم بكل ما أوتيتم من الحول، وفي خلال الشهور القادمة سأموت، إن أجلي قد حان، وإن حياتي يجب أن تنتهي، وآن لروحي أن تلقي حملها، أيها الرهبان، عليكم

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

بالتيقظ والتبصر، لتكن أفكاركم سليمة، راقبوا قلوبكم، وصونوا نفوسكم، ولا تغفلوا، لتكن إرادتكم طاهرة قوية، واجتازوا بحر الحياة غير آسفين ولا متحسرين (١).

وواصل السيد سيره بين القرى والآجام، وكان آنندا قلقا، فقال له السيد: قل، ما الذي يختلج في صدرك؟

فأجاب آنندا بعد تردد. إن السيد يمشي في بلاد غير عامرة، ليس بها إلا الأكواخ، وأرى أنه لا يستحسن أن يموت السيد في مكان كهذا، ليكن ذلك في مدينة عظيمة حيث يراه الكثيرون ويؤمنون ويهتدون...

فأجاب السيد: في مثل هذا المكان يا حبيبي آنندا شعرت بأعمق السكينة في نفسي، هذه الشجيرات هي التي تنشرح روحي بجوارها.

ودخل السيد الغابة وتعمق هو ومريدوه حتى وصلوا مكانا ترتفع أمامه قمم هماليا الشاهقة المكللة بالثلج، واختار السيد مكانا بين دوحتين باسقتين، واستلقى على جنبه في إجهاد ظاهر وتعب واضح، وأحس آنندا بأن السيد يقرب من النهاية، فانتحى ناحية وأخذ يبكي، فطلبه السيد، فجاء وجلس بجواره، وقال له السيد: ألم أقل لك مرة بعد مرة إن الأشياء كلها لإثبات لها، ألم أبين لك أن الأشياء التي نهواها لقربها منا هي التي يجب أن نقطع علاقتنا بها، لأن زوالها أو الحرمان منها يورثنا الألم والحزن.

وبات السيد تلك الليلة كلها يحرك عجلة العرفان أمام تلاميذه راقدا رقدة الأسد تحت الشجرتين، وقد جاءه كثير من الناس وتلقوا العلم عنه.

---

(١) النص الكامل في The Life of Buddha by Edward Thomas ص ١٥٣ - ١٥٤.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وعند فلق الصبح قال المبارك: " قد يقول بعض منكم قبل نهاية اليوم، لقد ذهب السيد عنا، وليس لنا معلم: كلا، لا تقولن ذلك، فإني أترككم على المنهاج المعبد المستقيم المنور. اسمعوا، معلمكم بعد ذهابي، هو الشريعة والجمعية ".
ثم استوى جالسا يرنو إلى الجبال الشاهقة البيضاء. وقد سمعوه يتنفس الصعداء، والطمأنينة بادية على وجهه، وبعد قليل أخذ ينشد " أنشودة البيت المتضعضع ":

" من بيت وراء بيت سجنني، ومن رسالة إلى رسالة أرسلني، ولادة بعد ولادة، وأنا أدور في دائرة متعبة، باحثا عن صانع هذه الخيمة. إن البيت قد ارتجفت أركانه. سقفه يرحب بمطر الموت في داخله: وجدرانه من الغبار تنتظر النهاية، كانت الولادة بعد الولادة أليمة. الخجل والعذاب يتبعني وأنا أتيه في بيداء لا نهاية لها... الآن يقوم السجين متحررا... يا صانع البيت...
لقد رأتك العين... ها.. تهدم السقف، وسقطت الجدران، وانهارت الأركان. يا شاطر،... طال اختفاؤك... ها قد وجدتك ومسكتك مسكا قويا لا تنفلت من يدي أبدا... حان لي أن أتخلص من العذاب...
لقد خمدت هذه النار إلى الأبد! "

عاد بوذا بعد ذلك إلى رقدته الأسدية متعبا. وقد ثقل تنفسه. ومع ذلك تكلم:

" أيها النساك، كل شئ زائل، مار كمر السحاب. تذكروا هذه الحقيقة، واسعوا لحريتكم بالتواضع والجد، ناظرين إلى النهاية ".

سكت السيد وأغمض عينيه ودخل في التفكير العميق لا يحرك ساكنا ولا يبدو عليه أنه يشعر بما حوله.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

" لقد مات السيد! " قال آنندا أخيرا.
زجره بعض الإخوان قائلا: " كلا! إنه لم يمت بل طرأت عليه حالة التفكر الذي لا يبقى معها حس ".
ولكنهم علموا بعد أن راقبوه مدة أن كل شئ قد انتهى. فما كان من بعض الإخوان الذين ما زالوا فريسة للأوهام، أن ألقوا أنفسهم على الأرض، يتمرغون في الغبار وينتحبون.
إلا أن آنندا وأصحابه الذين تحرروا من الأوهام قالوا لهم:
كل شئ زائل، أيها النساك والعقل الذي تحرر من الهوى يعرف ذلك، ويعرف أيضا أنه كان لزاما أن يفارقنا المبارك، وما كان يمكن أن يكون غير ذلك ".
سمع الرهبان المنتحبون هذا الكلام، فرجعوا عن سلوكهم المخجل، وأعلن في البلاد أن السيد قد مات.
وعلى شاطئ النهر، وعلى الأرض الرملية الفسيحة أحرقوا الجثة، وأخذ كل واحد منهم يطوف حولها ثلاث مرات، جامعا كفيه إزاء صدره. ثم يقف عند قدم المبارك وينحني احتراما وإجلالا. وقد اجتمع أهالي " كوسي نارا " القرويون، فاحتفلوا بموت السيد كما يحتفل بموت الملوك، لأنهم تذكروا أنه كان ابن الملك!
ثم جمع رماد السيد، وقسموه إلى ثمانية أجزاء، وأرسلوا كل جزء منها إلى الجهة التي رأوها لائقة به، فبنيت فوق الرماد بنايات عظيمة في الجهات الثمانية.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

معبد بروبودور بالقرب من جوكجا كرتابجارة (إندونيسيا)
حيث ترقد حفنة من رماد بوذا

(١٥٥)

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

أخلاق بوذا:
يصور علماء الهند صورة رائعة لبوذا فيقررون أنه كان شديد الضبط، قوي الروح، ماضي العزيمة، واسع الصدر، عزوفا عن الشهوة، بالغ التأثير، بريئا من الحقد، بعيدا عن العدوان، جامدا لا ينبعث فيه حب ولا كراهية، ولا تحركه العواطف ولا تهيجه النوازل، بليغ العبارة، فصيح اللسان، مؤثرا بالعاطفة والمنطق، له منزلة كبيرة في أعين الملوك، ومجالسه ملتقى العلماء والعظماء.
ومن القصص التي تروى لتدل على تواضعه أن أحد تلاميذه قال له مرة:
إنني أيها السيد أو من بكل قلبي أنه لم يوجد قط، ولا يوجد الآن، ولن يوجد إلى آخر الدهر مرشد أعظم قدرا وأكثر عقلا من مرشدنا المبارك.
فأجاب بوذا: هل أنت قد عرفت كل العارفين الذين سبقوني؟ وهل عرفت كل العارفين الذين يأتون بعدي؟
فأجاب التلميذ: لا يا سيدي فلم يتيسر لي ذلك؟
قال بوذا: هل عرفتني كل المعرفة؟ وتوغلت في نفسي كل التوغل؟
فقال التلميذ: لا يا سيدي وكيف لي ذلك؟
فقال بوذا: فلم إذا أسرفت في قولك وجعلتني خير الناس وأنت لا تعرفني ولا تعرف الناس؟
من أقوال بوذا
أوردنا فيما سبق بعض أقوال بوذا في مناسبات مختلفة، ونورد فيما يلي مزيدا من أقواله التي تشرح لنا فلسفته واتجاهاته:
(أ) ناموس الطبيعة ودورنا معه:
إن ناموس الطبيعة هو الذي يسيطر على كل شئ، وهو يتمضى ألا يدوم العذاب والجحيم إلى ما لا نهاية، فلا تدوم الجنة ولا النعيم، ومهما طال

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

عهدهما فإنهما زائلان أخيرا. متى وكيف يتم ذلك؟ هذا يتوقف علينا نحن، كل محرك سافل يجب أن نقهره، كل إرادة مهينة نضبطها، كل ضعف معيب نتغلب عليه، ولكن ليس معنى هذا أن نغمض عيوننا عما يعانيه البشر من الفقر والشقاء زاعمين أنهم استحقوه بما جنته نفوسهم، إذ كل من يفكر هكذا ولا يتمسك بالأخوة العامة والمحبة الشاملة مع سائر الخلق، فلا شك أن ناموس الطبيعة يعاقبه أشد العقاب، لأنه خارج عليه بعدم بذله الجهد الذي يسبب العفو والمرحمة، هذا وإن ناموس الطبيعة ليس بخاضع لذات قدسي، يتصرف فيه كيفما يشاء، بل ذلك الناموس مستقل بذاته، نافذ بنفسه، لا يتأثر بمؤثر بشري أو إلهي أبدا.

(ب) في التناسخ:

الإنسان مركب جسدي، يملك قوى يتحرك بها، وآلات يشعر بها، فهو يحس، ويلمس، ويبصر، ويسمع، ويشم، ويدرك، وهو بهذه الحواس والمشاعر يتصل بالعالم الخارجي، أما طبعه فيشتمل على النزعات والكفاءات المنتجة من الماضي فهي – حسنة كانت أو قبيحة – إرث له من الحياة التي عاشها في الماضي، وهي التي تكيف شخصيته التي تبدأ بها حياة جديدة، وذلك أن الحياة الداخلية للشخص ليست إلا سلسلة من الخيالات والرغبات والعواطف، فإذا انفصلت الأواصر المادية بالموت تقمصت قوى المادة الأولية جسدا جديدا، ولا تزال هذه القوى متواصلة إن لم يكن ماديا فنفسيا، فيسعد الشخص الجديد أو يشقى حسبما تهيأ له من السلوك السابق، والعناصر التي تشكل شخصا جديدا لا تزال في تبدل مستمر، ولكنها لا تتلاشى كلية، حتى تفنى تلك القوة التي تتمسك بها وتدفعها إلى الميلاد الجديد.. وليست تلك القوة إلا الرغبة – الرغبة في الوجود المنفرد.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

(ج) نار الشهوة وكيف تطفأ:
" إن الحياة كلها من الولادة إلى الموت، لهيب وحريق، إنها نار الشهوة، ونار البغض والعداء والهوى. ومن هم أولئك الخدم الذين يشعلون هذه النيران؟ العواطف الستة والحواس الستة: إن العين ترى الأشياء الجميلة مزخرفة اللون، والأذن تسمع الأصوات الحلوة، والأنف يشم الروائح الطيبة، واليد تشعر بنعومة الريش أو الحرير، والفم أو الحلق يقول إن ثمر المانجو هذا لذيذ حقا، والقلب يتأثر بالأشياء المرغوبة – هؤلاء هم العبيد الستة الذين يسعون لتنفيذ أوامر سيدهم، فيجمعون الحطب، فتزداد النيران اشتعالا.
" ولكن هناك طريقا لإخماد هذه النار. اتبعوا الصراط السوي النير.
إن هذا الصراط مستقيم لا عوج فيه. أما بابه، فهو تطهير الذهن، ونهايته السلام والحنان لكل الخلق من الأحياء. إن الذي يسلك هذا الصراط، لا يقول، إنني أنا، وذلك الإنسان غيري، ولذلك ففي نفعه خسارتي! كلا! بل هو يقول " يجب على أنا الذي فزت بالبصيرة، أن أشعر بالحب والحنان لكل الخلق الذين قيدوا بهذه الأغلال، أغلال العلة وتعدد الحياة، ولقد كسرت أنا هذه الأغلال بنفسي بقلع الشهوة من قلبي، فيجب علي الآن أن أسعى للكل وأجعلهم أحرارا ".
النرفانا
تكلمنا من قبل عن الانطلاق في الهندوسية وعن النجاة في الجينية، أما في البوذية فنتكلم عن " النرفانا "، والكارما والتناسخ أساس لأديان الهند كما سبق القول (١)، والطريق واحد تقريبا في هذه الأديان للتخلص من تكرار

---

(١) عن مزيد من الدراسة حول الكارما والتناسخ أنظر:
The Buddha s Philosophy p: Allen. F. G .٣٦ - ٣٧

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

المولد، وهذا التخلص هو أسمى ما يتطلع له الهنود، وذلك الطريق يتمثل بوجه خاص في قتل الشهوات والرغبات والتوقف عن عمل الخير والشر، وإذا استطاع الإنسان أن يجتاز هذا الطريق، وصل إلى الانطلاق أو النجاة أو النرفانا التي لا تختلف مدلولاتها اختلافا ذا بال، فالمدلول في الجميع هو التخلص من تكرار المولد، والحصول على اللذة الصادقة والسعادة الدائمة، ولنعد إلى النرفانا بالشرح والايضاح.

تحدثنا من قبل عن " الإشراقة والكشف عن الأسرار (١) " وذكرنا أن غوتاما وهو تحت الشجرة المقدسة، تمت له الإشراقة، وانجلت له عقدة الكون، وبوذا نفسه يصف هذه الإشراقة فيقول: كلمني صوت من داخلي قائلا: إن الهوى هو أصل الحزن. والنفس هي التي تجلب الشقاء، وذلك أن المرء يقول دائما: أنا أنا، ويقول أيضا: زوجتي وأولادي، فهم أيضا نوع من أنا، أما من سواهم فليسوا أنا (٢)، فيهوى ما يرى فيه شهوة نفسه، وإذا خاب شقى، بهذه الفكرة يذهب الناس في الدنيا كالحريق العظيم المدمر، فيؤذون ويقتلون، ويكونون لعنة على الخلق.

قال بوذا للصوت: إن قبلت قولك فهل أنال الحرية؟

فأجاب الصوت: نعم نعم، إنه يجلب لك الحرية أيها الناسك (٣).

فهل هذه هي النرفانا؟ هل هي القضاء على الأنانية والتحرر من الهوى وسلطان النفس؟

نعم، هذا هو اتجاه بعض الباحثين، وعبارتهم في ذلك هي: إن شقاء الحياة وعناءها وضجرها تنبعث من رغبات النفس، وإن الإنسان يستطيع أن يكون سيد رغباته لا عبدا لها، وإن في مقدوره الافلات من هذه الرغبات بقوة الثقافة الروحية الداخلية ومحبة الآخرين (٤).

---

(١) ص ١٤٢.

(٢) ٤٢. The buddha s Philosophy P: Allen

(٣) ثقافة الهند (مارس ١٩٥٠) ص ١٣٣.

(٤) حبيب سعيد: أديان العالم الكبرى (ملخص عن الإنجليزية) ص ٥

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

واتخذ تلاميذ بوذا هذا الاتجاه أحيانا نظرية لهم توصل للنجاة أو للنرفانا، وتقى من تكرار المولد، وقد حدث أن سأله تلاميذه مرة عن مريد له مات حديثا: هل نجا من تكرار المولد؟ فأجاب بالايجاب، ولكن أحد البراهمة سمع ذلك فاعترض على هذا الغموض، فعاد بوذا يعلم تلاميذه ألا يعنوا بالنظريات والعقائد، وألا يتكلموا عما بعد الموت، وأن يوجهوا عنايتهم للعمل، وكلماته في ذلك هي: أيها التلاميذ، لا تسألوا أسئلة كهذه، فإنها عارية من كل نفع، ولا يقدر أحد على جوابها، هل تكلم يوما الذي مات؟ إن السؤال عن الغيب وتجدد الحياة لا يجدي نفعا. ولكنه يعذب العقل وينهك القوى، عليكم بالسبيل النير الشريف. فإنه يوصلكم إلى السلام في هذه الحياة. واتركوا ما بعده هذه الحياة إلى اليد التي تولته من أول الكون (١).

وعلى هذا عادت النرفانا إلى الغموض، ويزيد هذا الغموض عند قراءة ما نسب إلى بوذا عنها وهو قوله لمريديه: أيها المريدون، هي طور لا أرض فيه ولا ماء، لا نور فيه ولا هواء. لا فيه مكان غير متناه، ولا عقل غير متناه، ليس فيه خلاء مطلق، ولا ارتفاع الادراك واللا إدراك معا، ليس هو هذا العالم، وذاك العالم، لا فيه شمس ولا قمر، أيها المريدون، هي طور لا أقول عنه بإتيان ولا بذهاب ولا بوقوف، لا يموت ولا يولد، هي من غير أساس، من غير مرور، من غير انقطاع، ذلك نهاية الحزن (١).

ويقول العلامة رادها كرشنن إن بوذا رفض أن يشرح النرفانا، وعلى

---

(١) ثقافة الهند: (مارس سنة ١٩٥٠) ص ١٢٩.

(٢) نقلا عن محمد عبد السلام الرامبوري: فلسفة الهند القديمة ص ١٣٤

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

هذا لا يجدي نفعا أن نحاول فهمها، بل ربما كانت اللغات البشرية لا تستطيع شرح النرفانا (١).

ولكن لا تزال لدينا معلومات تقودنا إلى أسلم طريق لإيضاح النرفانا، ويبدو مما لدينا من مراجع أن النرفانا مرت بمراحل تاريخية، فقد كان مفهومها عند بوذا أول الأمر أنها الاندماج في الله والفناء فيه، ولكن أفكار بوذا تغيرت بالنسبة للتفكير في الله، فقد تخلى عن القول بأن هناك إلها، بل أنكر وجود الإله كما سيأتي، وبناء على هذا الانكار لم تعد النرفانا الاندماج في الله، بل اتخذت لها معنى جديدا أو قل أحد معنيين متلاحقين هما:

١ - وصول الفرد إلى أعلى درجات الصفاء الروحاني بتطهير نفسه، والقضاء على جميع رغباته المادية، أو بعبارة أخرى فناء الأغراض الشخصية الباطلة التي تجعل الحياة بحكم الضرورة دنيئة أو ذليلة مروعة، ويصبح المقياس هو: كل من شاء منا أن ينقذ حياته عليه أن يخسرها.

٢ - إنقاذ الإنسان نفسه من ربقة الكارما، ومن تكرار المولد، بالقضاء على الرغبات والتوقف عن عمل الخير والشر.

وبناء على المعنى الأول يصل الإنسان إلى النرفانا وهو حي. وبناء على المعنى الثاني ترتبط النرفانا بالموت وبالتخلص من هذه الحياة على ألا يعود لها (٢).

---

(١) بحث بثقافة الهند (ديسمبر سنة ١٩٥٢) ص ١٨.

(٢) مراجع كثيرة أسهمت في إيضاح هذا المعنى منها:

أ - بوذا الأكبر للأستاذ حامد عبد القادر ص ٨٠ - ٨١.

ب - A Popular History of Philosophy p: Kaunitz and ٤٠ ٤١.

ح - ١٩٠ - ١٥٠. The Life of Buddha p: Edward Thomas p.

ى - The History of Buddhist Thought p: Edward Thomas p. ١١٩ - ١٢١

ه - ٤٧٤. The outline of History p: Wells. G. H

(م - ١١ الهند)

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

فلسفة البوذية
يعتقد بوذا – ككل المذاهب الهندية – في مبدأ التناسخ، وأهم ما تعمل له البوذية هو – كما سبق – التخلص من تكرار المولد والوصول إلى النرفانا، والخطاب الأول الذي ألقاه بوذا على رفاقه في بنارس عقب أن تلقى الإشراقة يحوي أهم عناصر الفلسفة البوذية، ونحن ننقل نصه فيما يلي من " لليتاوشتار " كتاب البوذيين المقدس:
أيها الرهبان، هذه هي الحقيقة المقدسة عن الألم: المولد ألم، الهرم ألم، المرض ألم، الموت ألم، الاجتماع بغير المألوف ألم، الافتراق عن المألوف ألم. عدم ظفر الرجل بما يهوي ألم.
أيها الرهبان، هذه هي الحقيقة المقدسة عن مصدر الألم، الظمأ، والشهوة، والهوى، والرغبة في التلذذ، في التكون، في القوة، ذلك الهوى، وتلك الشهوة تجر من مولد إلى مولد، ومن ألم إلى ألم. ويسوق بوذا سلسلة قضايا تؤدي إلى هذه الحقيقة وهي أن الهوى أصل الألم، فهو يقول: إذا وجدت الشهوة والهوى وجد التحديد والتخصيص، وإذا وجد التحديد والتخصيص وجد الجهل، وإذا وجد الجهل وجد الخطأ، وإذا وجد الخطأ وجد الحزن، فالحزن نتيجة للهوى والشهوات (١).
أيها الرهبان، هذه هي الحقيقة المقدسة عن إعدام الألم: إعدام الشهوة والهوى والظمأ والرغبة إعداما باتا.
أيها الرهبان، هذه هي الحقيقة المقدسة عن سبيل إعدام الألم:
سلوك الطريق المثمن (ذي الثماني شعب): الاعتقاد الصحيح، العزم

---

(١) Religions of the World p: Berry .٤٤

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الصحيح، القول الصحيح، العمل الصحيح، العيش الصحيح، الجهد الصحيح الفكر الصحيح، التأمل الصحيح (١).

ونستطيع من هذا الخطاب الذي يعد فاتحة تبشير بوذا أن نستخلص ما يسميه البوذيون: الحقائق الأربعة (٢) وهي:

الحقيقة الأولى: الألم موجود: فالولادة والمرض والموت ومتاعب الحياة من فراق أحبة أو لقاء أعداء كلها تأتي بالألم.

الحقيقة الثانية: لهذا الألم سبب: وعلة الألم هي الشهوات والرغبات لأنها التي تنمي فينا الرغبة في اللذة والتملك والشوق إلى عالم مستقبل (٣).

الحقيقة الثالثة: هذا السبب قابل للزوال: ويبطل الحزن متى بطلت الشهوة وانتفى الظمأ إلى الأشياء.

الحقيقة الرابعة: الوسيلة لزواله موجودة: ولإبطال الألم طريق واحد هو اتباع الشعب الثماني التي سبق ذكرها، والتي يصوغها بعض الكتاب في عبارة أخرى الآراء السليمة – الشعور الصائب – القول الحق – السلوك الحسن – الحياة الفضلى – السعي المشكور – الذكرى الصالحة – التأمل الصحيح (٤).

---

(١) Buddha s Philosophy p: Allen. F. G .٣٦

(٢). Richard Card p. Buddhism Ed .٩٤

(٣) يقتبس Wells شرحا لهذه الحقيقة من دراسة ما أسماه " إنجيل بوذا " فيقول: إن الآلام ترجع إلى الذاتية الجشعة المتلهفة، وإلى العذاب الناشئ عن الشهوة النهمة، وإلى أن يستطيع المرء أن يكبح كل ما في نفسه من نوازع الاشتهاء والتلهف الشخصي تظل حياته عناء واضطرابا، ويصبح ختامه أسى وعذابا، وهناك ثلاثة أشكال أساسية يتخذها التلهف على الحياة وهي كلها شر: أولها الرغبة في اشباع الحواس وهي الرغبة الشهوانية، وثانيها الرغبة في الخلود الشخصي، وثالثها الرغبة في النجاح والثراء والاهتمام بأمور الدنيا، ولا بد من التغلب عليها كلها، أعني أن الرجل يجب أن يكف عن أن يعيش من أجل نفسه، فإذا كف عن ذلك تيسر الصفاء والسكينة فمحو كلمة " أنا " من أفكار الشخص الخاصة يدفع المرء إلى الحكمة العليا والسعادة الخالدة وصفاء الروح والسكينة وهو ما يعرف عند بوذا بالنرفانا (أنظر معالم تاريخ الإنسانية المجلد الثاني ص ٤٧٤.

(٤) Buddha s Philosophy p: Allen. F. G .٣٦

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وهناك قيود عشرة تحول دون بلوغ الإنسان درجة النجاة والسلام، وتلك القيود هي:

١ – الوهم الخادع في وجود النفس.
٢ – الشك في بوذا وتعاليمه.
٣ – الاعتقاد في تأثير الطقوس والتقاليد الدينية.
٤ – الشهوة.
٥ – الكراهية.
٦ – الغرور.
٧ – الرغبة في البقاء المادي.
٨ – الكبرياء.
٩ – الاعتداد بالبر الذاتي.
١٠ – الجهل.

ومن الممكن تحطيم هذه القيود لمن يؤمن بالحقائق الأربعة ويعمل في ضوء هديها. وتتحطم هذه القيود شيئا فشيئا على درجات أربع:

١ – فمجرد الإيمان بالحقائق الأربعة يحطم القيود الثلاثة الأولى، لأن الإيمان بها هو اتباع لأفكار بوذا، وذلك يستلزم عدم الشك فيه وعدم الاعتقاد في الطقوس والتقاليد الدينية (الهندوكية وغيرها) واتباع بوذا في فكرته عن التناسخ وأن الإنسان حلقة في سلسلة متتابعة وليس له وجود مستقل.

٢ – وعندما يؤمن الإنسان بالحقيقة الثانية وهي أن علة الألم هي الرغبات والشهوات تخف حدة الشهوة والكراهية والغرور في نفسه.

٣ – فإذا اتبع الحقيقة الثالثة وتأكد أنه لا بد للقضاء على الألم من القضاء على الشهوة تحطمت قيود الشهوة والكراهية والغرور تحطيما نهائيا.

٤ – فإذا اتبع الحقيقة الرابعة واتبع الشعب الثماني وتخلق بها تهدمت باقي القيود العشرة، وبذلك يصل الإنسان إلى الهدف السامي الذي يطلبه وهو النرفانا أو النجاة.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وهكذا ترى البوذية أن الكون أزلي مستمر ليس له مبدأ ولا نهاية، وترى أن المولد الفردي، هو منشأ الآلام التي تملأ حياة الفرد، وليس هذا المولد إلا نتيجة للشهوات والرغبات والعواطف والميول الفردية المتقدمة لفرد قد سبق هذا الفرد، فتجددت حياة هذه النفس لتلاقي جزاء ما خضعت للشهوات والرغائب من قبل، ثم تكون للنفس في دورها الجديد شهوات أخرى ورغائب، فتجدد مرة أخرى لنفس السبب، وهكذا إلى نهاية، فالشهوات والعواطف هي سبب هذا التسلسل الذي سيمتد إلى ما لا نهاية، ولا تنتهي السلسلة المشئومة حتى تعدم بذورها من الشهوات والرغبات والعواطف والميول، فينتهي الميلاد فالهرم والموت وسائر أوجاع الحياة وحسراتها.

وما بعثت البوذاوات في الكون إلا لإعدام بذور الآلام والحسرات، قال بوذا: " لولا ثلاثة في الدنيا لما ظهر في الكون الكامل المقدس الأعلى بوذا ولا الشريعة، ولا أشرق في الكون التعليم الذي يعرضه الكامل، وما هذا الثالوث إلا المولد والهرم والموت، وما تبشير بوذا إلا الدعوة إلى النجاة من الآلام والحسرات باجتثاث شأفتها وقلع أصولها.

وأهم شئ في التعليم البوذي هو الحقائق الأربع التي سبق ذكرها، فمن آمن بها واتبعها كتبت له النجاة والسعادة ومن لم يعلمها ولم يؤمن بها ظل في شقائه وآلامه يموت ويحيا ثم يهرم ويهلك فيولد من جديد، ولا تنقطع هذه السلسلة حتى يعرف هذه الحقائق ويتبعها.

وقد كشفت الأسرار لبوذا فعرف هذه الحقائق وآمن بها واتبعها ولذلك يقول: " لقد أحرزت علم هذه الحقائق الأربع المقدسة، وأحرزت فهمها بانجلاء تام فصرت على يقين بأني قد ظفرت بالبوذية الكبرى، وقد عرفت أنه قد ضمنت لي النجاة بروحي، ومولدي هذا آخر مولد، وليس لي بعد هذا من ولد مستأنف ".

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وإتماما للفلسفة البوذية تذكر الوصايا العشر التي تنسب إلى بوذا، وهي
١ – يجب ألا تقضي على حياة.
٢ – يجب ألا تأخذ ما يعطى إليك.
٣ – يجب ألا تقول ما هو غير صحيح.
٤ – يجب ألا تستعمل شرابا مسكرا.
٥ – يجب ألا تباشر علاقة جنسية محرمة.
٦ – يجب ألا تأكل في الليل طعاما نضج في غير أوانه.
٧ – يجب ألا تكلل رأسك بالزهر وألا تستعمل العطور.
٨ – يجب ألا تقتني المقاعد والمساند الفخمة.
٩ – يجب ألا تحضر حفلة رقص أو غناء.
١٠ – يجب ألا تقتني ذهبا أو فضة (١).

الله في التفكير البوذي

يقول العلامة رادها كرشنن نائب رئيس الجمهورية الهندية (٢): إن بوذا لا يقرر العقائد ولا يؤسس مذاهب فلسفية ولا يزعم أنه جاء إلى الأرض بحكمة خصوصية ملكها من الأزل، بل يعلن بكل جلاء أنه كسب هذه الحكمة بجهود جبارة فيما سبق له من الحياة على هذه الأرض دهورا وأحقابا بتعدد المواليد، وهو يرشد أتباعه إلى نظام يضمن الرقي الأخلاقي، ولا يدعوهم إلى دين كسائر الأديان، إنه يرى أتباعه سبيلا ولا يقرر عقيدة، لأنه يرى أن قبول عقيدة يصد عن البحث وراء الحق، فكثيرا ما ترفض الحقائق لأنها تخالف عقيدة تمسك بها الذين جاءت لهم هذه الحقائق.

---

(١) Religions of the world p: Berry .٤٦
(٢) ثقافة الهند (ديسمبر سنة ١٩٥٢) ص ٢، وما بعدها.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

فبوذا يؤسس دعوته على حصوله على المعرفة أو بعبارة أخرى على تجربته الروحية التي لا يمكن بيانها بالألفاظ، فدعوته حكاية عن تجربته وعن الطريق المؤدي إليها، وهو يقول إن الحق لا يعرف بالنظريات، بل بالسير في طريقه.

وعلى هذا لم يعن بوذا بالحديث عن الإله، ولم يشغل نفسه بالكلام عنه إثباتا أو إنكارا، وتحاشى كل ما يتصل بالبحوث اللاهوتية وما وراء الطبيعة أو عن القضايا الدقيقة في الكون، إذ كان يرى أن خلاص الإنسان متوقف عليه هو لا على الإله، ويرى أن الإنسان صانع مصيره. ومن كلماته في ذلك: كونوا لأنفسكم جزائر قائمة بنفسها، وكونوا لأنفسكم موائل وكهوفا، ولا تعتصموا بملاذ خارجي، ولا تحتموا بغير أنفسكم (١).

وكان ينهي أصحابه وزواره أن يخوضوا في هذه الأبحاث، ويوبخهم على سؤالهم عن قضايا دقيقة مجردة، ويأمرهم بالخوض في أعمالهم ودواعيها وميولهم وعواطفهم وعواملها، وقد سأله أحد مريديه مرة: هل الذات موجودة؟ فسكت، فسأله: هل الذات ليست موجودة؟ فظل ساكتا. فسأله: هل هذا الكون دائم أم غير دائم؟... وأخيرا قال بوذا لهذا المريد. هل قلت لك جئني أعلمك عن الذات وعن الكون؟ لا، لم أقل هذا، أيها المريدون لا تفكروا كما يفكر الناس، بل فكروا هكذا: هذا ألم. هذا مصدر الألم، هذا إعدام الألم. هذا سبيل إعدام الألم..

ولكن بوذا اتجه أحيانا إلى جانب الانكار أكثر من اتجاهه إلى جانب الاثبات، فقد وقف في إحدى خطبه يسخر ممن يقولون بوجود الإله، وكان مما قاله في ذلك: إن المشايخ الذين يتكلمون عن الله، لم يروه وجها

---

(١) هداة الإنسانية في الشرق ص ٦٣.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

لوجه، فهم كالعاشق الذي يذوب كمدا وهو لا يعرف من هي حبيبته، أو كالذي يبني السلم هو لا يدري أين يوجد القصر، أو كالذي يريد أن يعبر نهرا فينادي الشاطئ الآخر ليقدم له (١)، وسنعود لهذا التفكير بالنقد فيما بعد:

ومن أجل إهمال الإله أو الاتجاه إلى نكرانه أحيانا اتجه براهمة عصره إلى أن يصموه بوصمة الالحاد.

والإيمان بإله، اتجاه نفسي قوي لا يقل عن قوة الغرائز في البشر، وإهمال هذا الاتجاه يحدث ارتباكا واضطرابا، ومن أجل هذا نجد أتباع بوذا من بعده يفكرون في الإله، ويعملون على الوصول إليه أو التعرف عليه. ولما كان بوذا قد ترك هذا المجال خاليا، فقد لعبت بهم الأهواء، فاتجه بعضهم إلى الاعتقاد أن بوذا ليس انسانا محضا، بل إن روح الله قد حلت به. وهذه العقيدة تشبه عقيدة الحلول التي يعتنقها بعض المسيحيين في السيد المسيح، فيقولون إن شخصيته ثنائية: لاهوتية وناسوتية، وإن الشخصية اللاهوتية حلت بالناسوت. وتسربت هذه العقيدة أيضا إلى " مدعي التشيع " فقالوا بها فيما يتعلق بعلي بن أبي طالب، بل ذهب بعض البوذيين إلى القول بأن بوذا كائن لاهوتي هبط إلى هذا العالم لينقذه مما فيه من شرور (٢).

بقي موضوع خطير يتصل بالإله عند بوذا، فاتجاهات البوذية الخلقية واللا عقائدية سببت سرعة انتشار البوذية في الهند لسهولة هذه الاتجاهات

---

(١) العلامة رادها كرشنن في بحثه السابق ص ٦.

(٢) عن هذا الموضوع أنظر:

أ - حامد عبد القادر: بوذا الأكبر ص ٩٦، ١٢٠، ١٣٠.

ب - دكتور أحمد شلبي: المسيحية ص ١١٥ - ١١٧.

ج - دكتور أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ج ٢ ص ١٢٨ وما بعدها من الطبعة الرابعة.

٣١٨ - ٣١٩. p. The Peoples and Religions of India p: Rylands

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ولعدم تعارضها مع آلهة الهندوس، وعلى هذا كان كثير من الهنود يتبعون البوذية في أخلاقها ويظلون مع ذلك على ولائهم لآلهة الهندوس، ومن هنا بدأت البوذية تختلط في مظاهرها بالهندوسية، وبدأ البوذيون الذين يقوم مذهبهم على عدم الاعتراف بالإله يعترفون بالآلهة الهندوكية ويتقربون إليها، لذلك لم تكن مظاهر البوذية خالصة لها، بل كانت خليطا منها ومن الهندوسية، ومن هنا أخذت البوذية تتلاشى من الهند شيئا فشيئا. ويندمج أتباعها في تقاليد الهندوسية وطقوسها وآلهتها، ووضع البوذيون – الذين قالوا بأن بوذا كائن إلهي – تمثال بوذا بين آلهة الهندوس، ولم يعارض الهندوس لأن العقل الهندي – كما قلنا من قبل – لا يضيره أن ينضم إله جديد إلى ما يعترف به من آلهة، وبمرور الزمن ذاب تمثال بوذا بين الآلهة الكثيرة وذاب أتباع البوذية بين الهندوس، فلم يعد للبوذية شأن في شبه القارة الهندية (١)، وبجوار تمثال بوذا انتعش آلهة آخرون في البلدان الأخرى التي دخلتها البوذية، فظهر في اليابان تمثال الإله شنتو Shinto وفى الصين ظهر تمثال الإله تاوسيم Tao sim (٢).

البوذية وفلسفة اليوجا

وذوبان بوذا في آلهة الهندوس ليس إلا عودا إلى تفكير الجنانا يوجا الذي يرى في كل الديانات وفي كل الفلسفات حقا، ولكن هذا الحق ليس سوى ذرة من الحق الأعظم الكامل، فهذا المذهب لا يعترض على دين أو فلسفة، ويرى أن أي دين أو فلسفة ليس هو كل شئ وليس هو كل الحق، و معتنق هذا التفكير لا ينتمي إلى دين أو مذهب لأنه يرى أتباع كل الديانات المختلفة إخوة له مهما اختلفوا، فجنانا يوجا مذهب يتسع لمعتقدات الجميع، ويأبى أن يتقيد بقيود أي منها (٣)

---

(١) عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام في الهند ص ٥٤ – ٥٥ بتصرف

(٢) Religions of the World p: Berry .٤٧

(٣) فلسفة اليوجا تأليف يوجي راما شاراكا ص ١٩٨ من الترجمة العربية.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

اليوجا خدعة للمسلم:
ويجب أن نقرر بشدة أن إثارة هذا المذهب والدعاية له ترمي إلى محاربة الإسلام بطريق غير مباشر، وقد رأيت هذه المحاولات في عدة بلاد، فالإسلام هو القوة التي قهرت المبشرين المسيحيين والبوذيين، فإذا صرفوا الناس عنه بطريق أو بآخر ولو باسم جنانا يوجا التي تتسع لكل المعتقدات ولا تتقيد بقيود أي منها، فإن هذا كسب لهم عظيم، وبعد أن يصرف المسلم عن الإسلام بهذه الحيلة البارعة يمكن نقله إلى التشكيك، فجذبه إلى دائرة أخرى، فليحذر المسلم اليوجا ومداخلها ودعاتها.
تعاليم البوذية
١ – هل البوذية دين أو فلسفة؟:
إن الإجابة عن هذا السؤال تتوقف على فهمنا لمعنى الدين ومعنى الفلسفة، فإذا كان المقصود بالدين الإيمان بقوة علوية محيطة بنا، ومتصرفة في أقدارنا، وقبول طائفة من المعتقدات على أنها حقائق كشفت لنا، فإن بوذا بمقتضى هذا لم يكن صاحب دين، فقد رأيناه لا يتكلم عن الله بل ربما سخر ممن تكلموا عنه، غير أن أتباع بوذا بعده رفعوه إلى درجة الآلهة، وقبلوا كلماته على أنها حقائق لا يتطرق إليها شك، وهم بهذا يرفعون فلسفة بوذا إلى مستوى الدين، ويرون أنه لم يتكلم عن الله لأنه هو الله. فالبوذية بناء على رأي بوذا فلسفة، ولكنها في رأي البوذيين دين.
ونحن نتفق مع بوذا، ونرى أنه لم يكن نبيا، ولا صاحب دين، ولم يتلق وحيا، وإنما هو باحث فيلسوف مفكر عاش على الأرض. وفكر فيما حوله من الأحياء، ورأى ما ينزل بهم من متاعب، وانتفع في تفكيره بما سبقه من فلسفات وأفكار، واهتدى إلى نتائج بعضها من

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

أقوال من سبقوه (١)، ويقول مولانا أبو المكارم آزاد الذي كان وزيرا للمعارف بالهند ما يلي على ذلك الموضوع (٢):

" يبدو لي أن وضع بوذا في صفوف الفلاسفة أسهل من وضعه في صف الأنبياء، وذلك لأنه لم يتعرض في مباحثه لوجود الله، بل حاول حل مسألة الحياة، وانتهى منها دون التحرش بالله وبوجوده، إنه قد قطع كل علاقة له مع الحياة الدينية في الهند التي كانت تدين بآلهة وإلهات لا تعد ولا تحصى، إنه بدأ بحثه وفرغ منه دون أن يلجأ إلى الاعتقاد بالله، وإن الأساس الذي بنى عليه بحثه، أساس فلسفي، فقال إن هدف الجهد الإنساني يجب أن يكون الوصول إلى حل مسألة الحياة، وذلك من المستطاع دون الاستعانة بوجود فوق العقل. أجل، أسرع أتباعه بعد وفاته إلى تحويل تعاليمه إلى مذهب ديني. ولما وجدوا أنه ترك المكان الذي يحتله الله في الأديان فارغا، عمدوا إلى بوذا نفسه، فحملوه ووضعوه فوق عرش الإله الفارغ، إلا أن بوذا ليس بمسؤول عما فعله أتباعه ".

وبعض المفكرين الغربيين يرون البوذية دينا، لأنها ترسم الطريق للتخلص من الذنوب، ولأن فيها جانبا روحيا، ولأن معتنقيها كانوا يمتازون بحماسة قوية لا تتوافر إلا مع الأديان (٣).

٢ – لا عقائد بل عمل:

هذا الموضوع يرتبط بالموضوع السابق، فإذا كنا آنفا قلنا إن بوذا ليس نبيا ولكنه فيلسوف، فإننا هنا ننقل عن العلامة الهندي رادها كرشنن (٤)

---

(١) ١٩٣ - ١٩٢. The life of Buddha p: Edward Thomas p)

(٢) التاريخ الجديد العام للفلسفة (ثقافة الهند: يونيو سنة ١٩٥١) ص ٥٢

(٣) ٤٣. Religions of the World p: Berry

(٤) كان نائبا لرئيس جمهورية الهند سنة ١٩٥٢.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

أن بوذا لم يكن نبيا لأنه لم يقرر عقائد، ولم يكن كذلك فيلسوفا لأنه لم يؤسس مذاهب فلسفية، وإنما أسس دعوته بناء على تجربته الروحية التي لا يمكن بيانها بالألفاظ، فدعوته حكاية عن هذه التجربة، وعن الطريق المؤدي إليها، وبوذا يقول إن الحق لا يعرف بالنظريات، بل يعرف بالسير المتواصل في طريقه. وفي ذلك يقول أيضا: إن عملي ملكي، وعملي ميراثي، وعملي هو الرحم الذي يحملني، وعملي هو الجنس الذي أنتمي إليه، وعملي هو الملجأ الذي ألتجئ إليه.

فأساس النظام الذي وضعه بوذا العمل لا العقيدة، فقد كان يحاول خلق عادة لا إقرار عقيدة، وعلى هذا ليس في تعاليمه إلا القليل الذي يصح أن يوصف بالعقيدة، كما أنه لم يأمر بعبادات ولا رياضيات تقشفية، وكل إلحاحه كان على التدريب الأخلاقي (١).

٣ – أخلاق الجماعة البوذية:

سبق عند الكلام عن الجينية أن ذكرنا أن الجينية فرقتان: خاصة وهم الرهبان المنقطعون للتبتل، وعامة وهم أتباع الجينية من غير الرهبان، أما في البوذية فلم تكن هناك طائفة خاصة من القسس والرهبان، وكان أتباع بوذا جماعة واحدة يتعاون أفرادها على الوعظ والارشاد، ويلتزمون حياة شعارها ضبط النفس من الشهوات، وليست هناك شعائر يتبعها من يريد الالتحاق بالبوذية، وعلى الراغب في الالتحاق بها أن يتنازل عن ماله وعقاره ويحمل مخلاته للسؤال وينضم إلى الجماعة ويتخلق بأخلاقهم، ولعل من الممكن أن نقول إن فكرة التخلص من الأموال قبل دخول البوذية قد تسربت إلى المسيحية، حيث يروي متي ومرقص ولوقا

---

(١) أبحاث لمجموعة من المفكرين الهنود عن غوتاما بوذا نشرت في عدة أعداد من " ثقافة الهند ".

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

عن عيسى أنه قال لشاب غني أراد أن يدخل المسيحية: بع أملاكك وأعط ثمنها للفقراء وتعال اتبعني، فلم يقبل الشاب، فقال عيسى: يعسر أن يدخل غنى ملكوت الله (١).

وليس ضبط النفس وقهر الشهوات بدرجة واحدة بين أتباع بوذا، بل كانوا يتفاوتون في ذلك تبعا لمقدرتهم الخاصة.

والاحترام للحياة، انسانية كانت أو حيوانية، من أهم الأخلاق البوذية، فليس لبوذي أن يقتل حيوانا في لهو كالصيد أو في جد كذبحه للأكل، بل عليه أن يرفق بالحيوان ويعده أخاه في الخلق، ولا يراه خلقا أدنى منه، فالهدوء الروحي والحب لكل نسمة هو ما أرشد له بوذا.

والمحبة الشاملة من أهم وأفضل الأعمال الحسنة لدى الجماعة البوذية، وهي عند بوذا أفضل من الأعمال الحسنة، وقد قال في ذلك: الحسنات على اختلاف أنواعها لا تبلغ سدس فضل المحبة التي تحرر القلب من شوائب الشر، لأن مثل هذه المحبة يتضمن سائر الحسنات، إن المحبة تشرق نورا وبهاء، ترون الأم تحيط بوليدها حتى في الأخطار التي تهدد حياتها، كذلك يجب على كل إنسان أن يغرس في نفسه الحب العميق الصادق لسائر الخلق (٢).

٤ – فلسفة الثروة عند بوذا:

تكلمنا آنفا عن رأي بوذا فيما يتعلق بالمال والعقار، وذكرنا أنه حث من يريد دخول " النظام " أن يتنازل عن أمواله وعقاره ثم يحمل مخلاته

---

(١) متي: الأصحاح التاسع عشر ومرقص الأصحاح العاشر، ولوقا الأصحاح الثامن عشر.

(٢) من بحث للعلامة رادها كرشنن سالف الذكر.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ويلتحق بالجماعة، وذلك هو رأي بوذا تجاه الثروة، ولكنه أورد مزيدا من الشرح الذي يظهر أن هذا الاتجاه هو الغالب لأن الثروة في أكثر الأحيان تستعبد صاحبها، وتجذب نفسه وتصير هدفا لذاتها، أما إذا لم تشغف النفس بالثروة، ولم يكن الإنسان عبدا لها، ولم تكن هدفا لذاتها وإنما تجمع لتنفق في الوجوه الصحيحة، فإن الثروة حينذاك لا تصير نقمة ولا شرا، بل تصبح نعمة وبركة للإنسان. ومثلها الحياة والسلطان.

ومما يتصل بالثروة رأيه في العمل والبطالة، فقد كان واضحا من سياسة " الكشكول " والسؤال أن بوذا يتجه للبطالة، ولذلك سأله أحد الجينيين مرة: هل أنت تدعو إلى ترك الأعمال وهجر الأشغال؟ فأجابه: إني أدعو إلى هجر ما لا يجوز فعله للجسد واللسان والفكر، وكذلك أدعو إلى ترك كل عمل قبيح يجر إلى الشرور، ولكني بجنب هذا أدعو إلى القيام بكل ما هو حسن للجسد واللسان والفكر، وكذلك أدعو إلى الاقبال على كل عمل يؤدي إلى الخير والسعادة. ولكن سلوك بوذا على كل حال كان يناقض حب العمل.

٥ – إلغاء الطبقات:

تحدثنا من قبل عن نظام الطبقات في الهندوسية، ولعل من أهم المبادئ التي نادى بها بوذا هي إلغاء هذا النظام، ومن أقواله في ذلك: اعلموا أنه كما تفقد الأنهار الكبيرة أسماءها عندما تصب في البحر، كذلك تبطل الطبقات الأربعة عندما يدخل الشخص في النظام ويقبل الشريعة، إن ما يدعو إليه بوذا هو الرهبنة، وفي الرهبنة يتساوى سائر البشر.

ولكن يؤخذ على هذا الاتجاه أنه جعل إلغاء نظام الطبقات متوقفا على دخول البوذية. فلم يدع للمساواة في حد ذاتها، أما الإسلام

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

فهتف بالمساواة مبدأ عاما بين البشر، قال تعالى: " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم "، فالآية تنادي الناس ولا تنادي " المؤمنين " فقط، وهي تتكلم عن مبدأ الخلق وأن الناس ينحدرون من أب واحد وأم واحدة فلا معنى للتفاوت والطبقية.
وقد سبق أن قلنا إن البوذية – لأنها لم تتكلم عن الله – سرعان
ما انمحت وذابت في الهندوسية بالهند، وبالتالي سرعان ما ضاعت المساواة إذ ربطها بوذا بدخول البوذية.
٦ – المرأة والبوذية:
يقول العلامة رادها كرشنن نائب رئيس الجمهورية الهندية في بحثه سالف الذكر: إن المرأة الهندية في عصر بوذا لم تكن منعزلة، ولكنا مع ذلك نجد بوذا يتردد كثيرا في قبولها لتكون من أتباع دينه، وقد سأله مرة أجد خاصته وهو ابن عمه آنندا.
كيف نعامل النساء أيها السيد:
فأجاب: لا تنظر إليهن.
– ولكن إذا اضطررنا للنظر إليهن؟
– لا تخاطبهن.
– ولكن إذا خاطبننا؟
– إذا كن على حذر تام منهن.
وكان آنندا من أنصار المرأة، وكان ابن عم بوذا وصفيه،
فما زال يلح على بوذا حتى قبل ضم النساء إلى جماعته وأتباعه، على أنه على الرغم من ذلك كان يرى في هذا خطرا على المجتمع البوذي،

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وقد قال لآنندا مرة: لو لم نضم المرأة لدام الدين الخالص طويلا، أما الآن بعد دخول المرأة بيننا فلا أراه يدوم طويلا.
وقد أثر عن بوذا قوله: " للنظام بعد موتي أن يغير من سننه ما يراه مضرا لمقاصده وحياته " ويرى العلامة رادها كرشنن أن بوذا عنى بهذه الجملة لأتباعه طرد النساء إذا رأوا منهن خطرا على الدعوة.

لمحة تاريخية

الكلام عن تاريخ البوذية يشمل اتجاهين، أحدهما دراسة البوذية من ناحية تطورها الفكري والفلسفي، والثاني دراسة البوذية من ناحية انتشارها، وما صادفته من انكماش وانبساط وعوامل ذلك، وفيما يلي حديثنا عن كل من هذين الاتجاهين:

(١) تطور البوذية الفكري والفلسفي:

صورنا فيما سبق البوذية في حياة مؤسسها، فشهدناها نظاما أخلاقيا، واتجاها تربويا، ولكنها أخذت تتطور من قرن إلى قرن، فدخلتها مسائل عن الإلهيات والكون كان بوذا قد نهى عنها وحذر منها مريديه، ولكنهم بعده بحثوا فيها وأدرجوها في التعليم نفسه، فأصبحت البوذية مذهبا فكريا ومباحث عقلية، وبعدت البوذية الجديدة بذلك عن البوذية القديمة، لقد كانت البوذية القديمة تزكية وتربية فأصبحت البوذية الحديثة فكرا وفلسفة.
وقد قسمها العلماء حسب الطابع العام، إلى البوذية القديمة والبوذية الجديدة.
فالبوذية القديمة صبغتها أخلاقية، وميزتها سذاجة المنطق وإثارة العاطفة، وطابعها الحض على الخضوع لقوانين النظام، والاهتمام بهدي شارعها، وكأنها

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

هي التي دعا إليها بوذا نفسه واتبعها مريدوه وأتباعه الملازمون له.
أما البوذية الجديدة فهي عبارة عن تعاليم بوذا مختلطة بآراء دقيقة في الكون، وأفكار مجردة عن الحياة والنجاة، مؤسسة على نظريات فلسفية، وقياسات عقلية، قد سمحت بها قرائح المتأخرين من الشراح والزعماء، والغالب عليها صبغة الفلسفة (١).
وقد ارتبط التغير الفلسفي البوذي بانتشار البوذية ودخولها أقطارا كثيرة، فإن أتباعها هنا وهناك أكثروا فيها القياس والتأويل حسب عقولهم وثقافاتهم حتى بعدت عن أصلها الساذج البسيط، وسنسوق فيما يلي اتجاهاتها الفلسفية الجديدة، ويلاحظ أن أكثرها اتخذ الاعتراف بالإله أساسا لفلسفته:
– فرقة تقول بوحدانية الله، وأنه أوجد أولا عددا محدودا من الأرواح، ثم ترك الانشاء والتعمير مكتفيا بما وضعه في العالم من قوانين وقوى كالبذور تسير سيرها الطبيعي بلا نهاية، وهذه الأرواح هي التي تخلق الخير والشر.
– وفرقة ترى أنه أودع هذه الأرواح التي أرسلها للعالم قوى تستطيع منها أن تعرف الخير من الشر، ومن أجل ذلك لا يرسل الله رسلا اكتفاء بذلك.
– وفرقة ترى أن الله يفرغ الكمالات الإنسانية في كل زمن على إنسان يتجرد لعبادته، ويبتعد عن إرضاء الشهوات الحيوانية، وهذا الإنسان المختار يحل محل الإله في إظهار الرضا عن بعض الناس أو الغضب عليهم، تبعا لما يأتونه من الأعمال، ويعرفه الناس ويلتفون حوله.

---

(١) محمد عبد السلام الرامبوري: فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند، ديسمبر سنة ١٩٥٣) ص ٩٥.
(م – ١٢ أديان الهند)

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

- وتبالغ فرقة أخرى في تصوير المعنى السابق فتقول إن الله يحل في أية صورة يختارها من صور أفراد الإنسان حلول تطهير وتكميل لا حلول استقرار (كاللاما في بلاد التبت).
- وتتكلم كل الفرق عن التناسخ وارتباطه بالكارما، ولكن بعض الفرق ترى تناسخ النوع الإنساني مقصورا عليه، وتناسخ الحيوان مقصورا عليه، فلا تنتقل روح من إنسان إلى حيوان ولا العكس، وتزيد فرقة أخرى في تضييق دائرة التناسخ، فترى أن روح العالم تنتقل إلى عالم، وروح الملك تنتقل إلى ملك. وروح الصانع تنتقل إلى صانع وهكذا (١).

(ب) انتشار البوذية:

انتشرت البوذية في عهد بوذا انتشارا واسعا بين الطبقات العليا والطبقات الدنيا، أما طبقة الملوك والجنود فقد دخلت البوذية تخلصا من سلطان البراهمة الذين أثاروا - كما سبق القول - سخط جميع الطبقات الأخرى باستبدادهم وتعسفهم، وأما الطبقات الدنيا فقد دفعت بنفسها إلى البوذية لتتخلص مما عانته في رحاب الهندوسية من اضطهاد واحتقار.

ولكن البوذية بدأت تنكمش بعد بوذا، وقد سبق أن ذكرنا أن من أهم أسباب انكماشها أنها لم تعن بالكلام عن الإله، وبعبارة أخرى تركت فراغا كبيرا في نفوس أتباعها، وبمرور الزمن ملأ أتباعها هذا الفراغ بآلهة الهندوس أو بعبادة بوذا نفسه واتخاذه إلها، ويتصل بهذا أيضا أن بوذا لم يبن معابد، ولم يأمر أتباعه بممارسة أي لون من ألوان العبادة،

---

(١) هذه الدراسة موجزة عن:
أ - محمد فاضل: الحراب في صدر البهاء والباب ص ١٠٣
ب - حامد عبد القادر: بوذا الأكبر ص ١٢١ وما بعدها.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وبسبب هذا لجأ أتباع بوذا إلى معابد الهندوس فوضعوا فيها تمثال بوذا، وأصبح كل ما زاد هو إله جديد أضيف إلى آلهة الهندوس المتعددة، والعقل الهندي يرحب بمزيد من الآلهة. وهكذا أخذت البوذية تتلاشى في الهندوسية، وأخذت الهندوسية تمتصها أو تمتص أتباعها يوما بعد يوم.

وكان من أسباب ضعف البوذية في الهند بالإضافة إلى ما سبق، أن البوذية اهتمت بإصلاح الباطن، أي إصلاح الأخلاق، فحاربت الشهوة والغرور والكبرياء، وألزمت بالشعب الثماني من رأي سليم وشعور صائب وسلوك حسن... ولكن الهندوسية قنعت بأشياء ظاهرية كالغسل في الأنهار المقدسة والأخذ بالطقوس والقرابين... ومعالجة الظاهر أيسر وأسهل من معالجة الأمور الباطنية، ولهذا تخلى البوذيون يوما بعد يوم عن صراعهم مع نفوسهم، واكتفوا بقربان يقدمونه أو مظهر يظهرون به كما ترى الهندوسية، وما ساعد على ذلك تأصل نظام الطبقات الذي رفضته البوذية، واحتواء الهندوسية على تقاليد القوم وعاداتها مما جرهم إليها يوما بعد يوم (١).

هذا ما آلت له حال البوذية في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، ففي داخل الهند، كانت البوذية تضعف وتنكمش، ولم تكن البوذية قد عرفت بعد طريقها إلى خارج الهند، وجاء الملك العظيم آسوكا والبوذية على وشك أن تنهار، فاعتنقها وبعث فيها الحياة مرة أخرى، ودفع بها إلى الخارج، والمؤرخون يعدونه للبوذية شبيها بالقديس بولس أو قسطنطين الأكبر بالنسبة للمسيحية. تعال بنا نقص طرفا من حديث هذا الملك العظيم.

---

(١) ٣١٩. The Peoples and Religions of India p: Rylands

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

آسوكا وانتشار البوذية:

كان الإسكندر المقدوني قد استولى على السند في زحفه نحو الشرق، ولكنه لم يتقدم نحو نهر الكنج، ولم يسيطر على باقي الهند لأن المقدونيين رفضوا أن يسيروا معه في ذلك العالم المجهول، وألف المقدونيون مملكة صغيرة في هذا الركن من الهند، وفي سنة ٣٢١ ق. م تمكن الأمير شاندراجوبتا Chandragupta الذي ينحدر من الأسرة المورية أن يجمع حوله قبائل عديدة بمنطقة التلال، وأن يستولي على المملكة الإغريقية بالبنجاب، ويزيل عن الهند آخر آثار الحكم الإغريقي، وجاء ابنه بعده فبسط رقعة مملكته، فلما جاء حفيده آسوكا وجد نفسه حاكما على الأقاليم الممتدة من أفغانستان إلى مدراس، وسار آسوكا (٢١٤ - ٢٢٧ ق م) في مطلع حياته سيرة أبيه وجده في محاولة التوسع عن طريق الحرب.

وبينما كان آسوكا في قمة انتصاراته الحربية، أحس باشمئزاز من هول الحروب وقسوتها، فتخلى عن الحروب، وكره النصر عن طريقها، وزهدت نفسه فيها تماما، وتبنى مذهب البوذية، ثم أعلن أن فتوحه ستكون منذ ذلك الحين في ميادين الدين، وتروي الأساطير أن هذا التحول كان بسبب ما ناله من حيرة، وبسبب تأنيب ضميره لقتله إخوته وعددهم تسعة وعشرون، أو حرقه زوجاته وجواريه وكن خمسمائة (١).

ودام حكم آسوكا ثمانية وعشرين عاما تعتبر أزهى فترة في تاريخ البشرية المضطرب، فقد قام في الهند بحركة عظيمة للخير والثراء، حفر الآبار، وزرع الأشجار، وأسس المستشفيات والحدائق العامة والبساتين التي تربى فيها الأعشاب الطبية، واهتم بأهالي الهند الأصليين، واتخذ العدة لتعليم النساء، وخصص هبات خيرية هائلة لهيئات التعليم

---

(١) The History of the World p: Rene Sedillot .٦٢

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

البوذية، واتجه آسوكا إلى خارج الهند فأرسل البعوث الدينية إلى كشمير وسيلان والإمبراطورية اليونانية وجبال همالايا وفارس والإسكندرية (١).
وهكذا انتقلت البوذية من مذهب ضمن المذاهب الدينية الهندية إلى دين عالمي، وسرعان ما لبى أهل سيلان دعوة آسوكا فاعتنقوا الدين الجديد، ولعل مما سبب ذلك ما كان بين حاكمها وبين آسوكا من روابط الصداقة. ويروى أن أهل الجزيرة أرسلوا بعثة إلى الهند لتتعلم البوذية، وأن آسوكا أرسل مع إحدى بعثاته إلى سيلان فسيلة لشجرة المعرفة التي نال بوذا تحت ظلالها المعرفة والبصيرة، وغرست هذه الفسيلة في سيلان. وبمرور الزمن أصبحت دوحة عظيمة، ولا تزال باقية إلى الآن وهي أقدم شجرة على الأرض.
وأقام آسوكا المسلات في عدة أمكنة حيث دون عليها تعاليم البوذية، وأنذر من يميلون للعصيان، ووعد البررة بالهبات والخيرات.
وتنازل آسوكا عن ممتلكاته ولم يستبق إلا ثمانية أشياء ضئيلة هي أردية ثلاثة صفراء، ونطاق يشدها به، وإبرة لترقيع الأردية، وموسى لحلق شعره، وغربال لتصفية الماء قبل شربه حتى لا يبلغ نفسا.
وندب آسوكا رجالا يتجولون في البلاد، يرغبون الناس في النسك والورع، ويعلمونهم مكارم الأخلاق، وحثهم أن يكونوا قدوة للناس، ليسهل على الناس الافتداء بهم، فيجاروهم في سيرتهم الرشيدة، وصبرهم على الشدائد، وعهد إليهم كذلك النظر في الأعمال الخبرية وإدارة شؤونها ليزيد نفعها وخولهم بعض السلطة فكان لهم إطلاق سراح المسجونين إذا اقتنعوا ببراءتهم، وكانوا يراقبون الناس ليتحققوا أنهم يلتزمون سبل السلام ويحترمون القانون ويراعون حق الفقراء والأكابر (٢).

---

(١) ١٢٧ - ١٢٦. p. A short History of the World p: Wells
(٢) محمد عامر الأنصاري: آسوكا الإمبراطور الهندي العظيم ص ٨٢ - ٨٣.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ومات آسوكا وقد انتشرت البوذية في الهند وفي البلاد المجاورة لها، ولكن البوذية في الهند عادت بعد قليل تصارع الهندوسية كما فعلت من قبل، ولم تستطع البوذية أن تثبت في هذا الصراع، فالهندوسية كانت أثبت وأكثر صلة باتجاهات السكان وميولهم، فاضمحلت البوذية أمامها، وأخذت تنحدر حتى انحسرت عن الهند تقريبا. أما في البلاد المجاورة فإن البوذية سارت بنجاح وانسابت في اتجاهات متعددة في شرقي آسيا حتى أصبح أتباعها حوالي خمسمائة مليون نسمة ينتشرون في بورما وتايلاند والصين واليابان وإندونيسيا ونيبال والتبت وسيلان.

والبوذية القديمة أي العميقة الصلة ببوذية بوذا، والتي يتجلى فيها الطابع الأخلاقي والتربوي، تسمى المذهب الجنوبي، وهي تنتشر في بورما وتايلاند وسيلان وكتبها المقدسة مكتوبة باللغة البالية وهي لغة هندية قديمة.

أما البوذية الجديدة فهي التي اختلطت بالآراء والنظريات الفلسفية وتسمى المذهب الشمالي، وتنتشر في الصين واليابان والتبت ونيبال وإندونيسيا، وكتبها المقدسة مكتوبة باللغة السنسكريتية، وأتباعها أكثر من أتباع المذهب الجنوبي.

والبوذية في الصين بوجه خاص لها طابع يجعلها بعيدة عن البوذية الحقيقة، فقد صبغها الصينيون بثقافتهم وحياتهم فجعلوا آلهتها ثلاثة وثلاثين على نحو ما كانوا يعملون قبل البوذية، وأقاموا لها المعابد الجذابة، التي تزينها الفنون الجميلة، ومما سبب إقبال الصينيين على البوذية أنها دخلت بلادهم بعد أن أصبح بوفا إلها، وأصبح تمثاله وثنا يعبد، وتقدم له القرابين وتقام له الصلوات، وقد كان لهم مع آلهتهم الأولى مظاهر للتقديس ليست بعيدة عن هذه المظاهر، ومما سبب إقبالهم على

---

(١) Chu - See Buddism in China by Chao Pu

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

البوذية كذلك أنها دين إنقاذ وطهر، يمنح بالنرفانا اللذة والسعادة في الحياة وبعد الموت، وبحث على الرحمة، ويغري بالخير، ويقضي على الشهوات الظالمة، ويبعد عن الشرور (١).

مراحل انتشار البوذية:

ولنسر خطوة خطوة مع التاريخ نسجل انتشار البوذية الذي سبق أن أشرنا إليه معتمدين على مرجع هام خصص لهذه الدراسة (٢).

إن التاريخ الاجمالي للبوذية يقرر أن هذه الديانة واصلت سيرها طوال خمسة وعشرين قرنا، وفي خلال هذه الفترة الطويلة تطورت البوذية سواء من ناحية العقيدة، أو التطبيق، أو الأدب، أو المؤسسات المرتبطة بها كالمعابد والمعاهد، وقد اقتحمت البوذية حوالي ثلاثين قطرا في آسيا، وكان تأثيرها عظيما في آداب هذه الأقطار وفي اتجاهاتهم الدينية، ومنذ القرن التاسع عشر اتصل الفكر البوذي ببعض دول أوربا فأصبح للفكر البوذي أثره في الفلسفة الغربية والأدب الأوربي والموسيقى وغيرها من الفنون الثقافية.

ذلك مجمل القول نحو تمدد البوذية وانتشارها، ولكن إعطاء تفاصيل عن هذا الانتشار يكاد يكون أمرا متعذرا لقلة المادة الدقيقة عنه، ومن الممكن على كل حال لو قسمنا عمر البوذية إلى خمسة مراحل، كل مرحلة خمسة قرون، أن نعطي أبرز التطورات عن البوذية في كل من هذه المراحل:

---

(١) ٤٨ - ٤٧. p. Religions of the World p: Berry

(٢) ١٥ - ٢. p. Richard Card p. Ed, Buddhism

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

شهدت الفترة الأولى [من مطلع البوذية حتى القرن الأول الميلادي] تحولا كبيرا في العقيدة البوذية فيما يتصل ببوذا، فقد كان في أول هذه الفترة يعد معلما ورجلا عظيما ورائدا عالميا، ثم أصبح بمرور السنين رجلا مقدسا فمعبودا فإلها، ولم يكن ذلك التطور الواسع باتفاق الجميع، ولذلك عقدت عدة مؤتمرات للتوفيق. ولكنها لم تستطع أن تقنع الجماهير بترك مكان الإله شاغرا كما أراده بوذا أن يكون، فظل الخلاف قائما.

وفي خلال هذه الفترة ظهر الإمبراطور آسوكا الذي دفع بالبوذية إلى خارج حدود الهند كما سبق القول، وبدأت البوذية تبني المعابد وتضع فيها الآلهة، كما بدأت تقيم الجمعيات التي ترعى الحياة الاجتماعية وتشرف على شؤون الدين وبخاصة في الهند وسيلان.

وفي الفترة الثانية أي من القرن الأول حتى القرن الخامس الميلادي أخذت البوذية تنتشر تجاه الشرق إلى البنغال، وتجاه الجنوب الشرقي إلى كمبوديا وفيتنام، وتجاه الشمال الغربي إلى كشمير، وفي القرن الثالث اتخذت طريقها تجاه الشرق إلى الصين وأواسط آسيا، وكان دخولها إلى الصين بطريق البحر أيضا، ومن الصين اتجهت إلى الشمال الشرقي فدخلت كوريا، وكان لنشاط الحجاج الصينيين الذين زاروا الهند وسيلان وجاوة بين سنة ٣٩٩ وسنة ٤١٤ م أثر كبير في نشر البوذية في هذه البقاع، وكانت البوذية في هذه البقاع تتعاون تعاونا كاملا مع النظام الملكي الذي كان مسيطرا خلال هذه القرون على هذه الأقطار، وبواسطة هذا الارتباط بين الدين والسياسة انتشرت البوذية وكثر تابعوها وشهدت هذه المدة؟ قدما واضحا في الثقافة البوذية التي أخذت تقيم المعاهد وتنشر تراثها على أتباعها.

وفي المدة التالية أي من القرن السادس إلى العاشر الميلادي استمرت البوذية في التقدم والانتشار، وبخاصة من كوريا والصين إلى اليابان، ومن الهند إلى نيبال، ثم إلى التبت، وزادت مواكب الحجاج في هذه

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الفترة، وكثر نشاطهم وتنقلهم بين البلاد التي دخلتها البوذية، ويلاحظ في هذه الفترة أن الارتباط بين القصور الملكية الحاكمة وبين البوذية لم يكن دائما وطيدا وكان انتشار البوذية أو تقلصها يتوقف على قوة الارتباط وضعفه، وتعد هذه الفترة من أزهى فترات البوذية من الناحية الثقافية. فقد اتضح تأثير البوذية على الآداب والفنون في جميع البلدان التي دخلتها.

وفي المدة التالية أي من القرن الحادي عشر إلى الخامس عشر ضعفت البوذية واختفى كثير من آثارها وذلك لعودة النشاط الهندوسي في الهند ولظهور الإسلام في الهند وفي سواها من الأقطار التي كانت تتربع فيها البوذية، ولكن البوذية اتجهت بنشاطها في هذه الفترة – فارة من الإسلام – تجاه لأوس ومنغوليا وسيام وبورما وكان النشاط الثقافي البوذي عظيم الأثر خلال هذه الفترة في بورما وكمبوديا وسيلان واليابان.

أما الفترة الأخيرة أي من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين فتعتبر فترة دقيقة في تاريخ البوذية، إذ وقفت البوذية وجها لوجه أمام تحدي الفكر الغربي الذي حمله الاستعمار إلى تلك البقاع، فقد أدخل الاستعمار الغربي إلى هذه البلاد اتجاهاته الفكرية وإصلاحاته التربوية وفلسفاته في مختلف الشؤون، ولم تجد البوذية بدا من أن تتعاون طوائفها المختلفة لتقف في وجه هذا الزحف الفكري، وهكذا التقت الفرق البوذية أو قربت بعضها من بعض لتقوى على النضال في معركتها مع المسيحية الغربية والفلسفات الأوربية وقد تبنت البوذية كثيرا من الاتجاهات الغربية، كما تشربت المسيحية بعض الأفكار البوذية، وتبودلت المطبوعات بين المشرفين على هاتين الفلسفتين، وتطور التعليم في المعابد فاقترب من كليات الغرب وجامعاته، وتم تعاون في الخدمات الاجتماعية بين البوذيين والغربيين.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وفي نهاية هذه الفترة اصطدمت البوذية بالشيوعية، وأصبح الحكم في كثير من الأقطار التي تنتشر بها البوذية في أيدي حكومات شيوعية، ولم يتضح بعد مصير البوذية في ظل هذه الظروف الجديدة.

الجيل الجديد بين البوذية والفراغ والمسيحية

كنت على وشك أن أرفع القلم عندما وصلت إلى هذا الحد من الحديث عن انتشار البوذية، ولكني تذكرت أحداثا عشتها سنة ١٩٦٠ بتايلاند أحد مراكز البوذية بالشرق الأقصى. وهذه الأحداث تقرر بما لا يدع مجالا للشك أن الجيل الجديد في أكثر البلاد التي تدين بالبوذية غير قانع بها، وأن طبقة المثقفين على وجه الخصوص تنظر إلى طقوس البوذية بشئ من السخرية. ويراها أكثرهم تاريخا يصعب أن يعيش في الحاضر وأن يجاري مقتضيات الحياة الحديثة، وقد نتج عن ذلك الشعور فراغ في نفوس المثقفين في هذه البلاد، وتحاول المسيحية جاهدة أن تملأ هذا الفراغ، وأن تجذب لها هؤلاء المترددين، وفي سبيل ذلك تتبنى المسيحية بعض طقوس البوذية واحتفالاتها حتى تقرب من هؤلاء الشبان وحتى لا تبدو لهم شديدة البعد عما ألفوه، وما شاهدوا عليه أهليهم وذويهم. ومما يساعد المسيحية في نضالهما هذا ما تغدقه دول الغرب على مراكز التبشير بالمسيحية من مال ومعدات ونفوذ.

ويقف الإسلام – للأسف – من هذا التحول موقفا ضعيفا. فليست هناك جهود على الاطلاق تبذل للتعريف بالإسلام ومحاولة نشره، وأكثر المسلمين في تلك البقاع ثقافتهم ضحلة، ومواردهم ضئيلة، وإمكانياتهم محدودة، ولذلك لا يدخلون هذه المعمعة ويوشكون أن يقفوا منها موقفا سلبيا، وسأورد فيما يلي فقرات من تقرير رسمي كتبته آنذاك، وصفت به ما شاهدت بعيني، ولعلي بذلك أثير الهمم لتدارك الأمر.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

في طريق من إندونيسيا حيث كنت مديرا للمركز الثقافي العربي وأستاذا بالجامعة تخلفت بضعة أيام في تايلاند، وكنت أنزل في أحد الفنادق الكبرى في بانكوك، ووزعت علينا إدارة الفندق كتابا عن أهم معالم المدينة وأمكنتها الأثرية، وأخذت أطالع الكتاب فوجدت بضع صفحات خصصت للمعالم الدينية، وأهمها معابد البوذية ثم مجموعة من الكنائس المسيحية، وأخيرا مسجد واحد، وجاء يوم الجمعة وأنا في بانكوك فقررت أن أصلي الجمعة في هذا المسجد رجاء أن أتعرف على أحوال المسلمين، وذهبت إلى المسجد فوجدت المصلين قليلين، وكان دخولي ملفتا لأنظار البعض، فقد أدركوا أني غريب، واتجه واحد منهم نحوي فألقيت عليه السلام، فأدرك أنني مسلم جئت للصلاة فرحب بي، وحاولت أن أكلمه بما أعرف من لغات ولكن الرجل أدرك أنني أعرف العربية فذهب وعاد ومعه رجل يعرف اللغة العربية إلى حد ما، يحسن فهمها ولكن تعبيره بها ضعيف، وتحادثنا بواسطة هذا الرجل.

سألني من أنا ومن أين أتيت، فأخبرته، فوجدته يعرف اسمي ويستمع كثيرا لإذاعاتنا العربية من إندونيسيا. ورحب بي وطلب مني أن ألقي خطبة الجمعة، وهو شئ لم أكن ألفته من قبل، ولكني أعرفه على كل حال واستجبت لرغبته، وتأخر وقت الصلاة قليلا ليعلنوا أنني سأكون الخطيب ولإعداد مكبر للصوت مزدوج الالتقاط أتحدث أنا في أحد فرعية ويتحدث المترجم في الثاني. والتف الناس حولي بعد الصلاة وتكلمنا طويلا وزرت بيوت بعضهم وفرحوا بي فرحا بالغا وقالوا لي: ابق معنا هنا ننشر بك الإسلام ونهدي الحائرين، وأجبتهم بأني لا أضع الخطط وإنما أسير على خطة توضع لي ولا سبيل لي إلى تغييرها، وكل ما أملكه هو أن أرفع أصواتكم لمن يضع الخطط بالقاهرة.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وأعادوني إلى الفندق في موكب حافل في منتصف الثالثة، ثم همس شاب في أذني بإنجليزية ركيكة: هل تحب أن ترى أعياد البوذية هذا المساء؟ قلت: نعم، وسألته ما أعياد البوذية التي يقصدها؟ فقال لي: إن أعيان البوذية تكاد تكون متصلة، ولكن أهمها هو ما يجري في هذا الموسم، أي موسم الفراغ، فراغ الزراع من العمل لأن الوقت وقت جفاف، وقد زرع الناس أرضهم في موسم الأمطار والعمل الآن بالمزارع قليل، وموسم فراغ عند الطلاب فقد بدأت إجازة الصيف، وفي هذا الموسم يدخل كثير من الناس أديار البوذية ومعابدها لقضاء ثلاثة شهور، وهي عبادة لا بد أن تحصل مرة على الأقل في العمر.

وفي الساعة الرابعة انطلقنا لنشهد هذه الأعياد، وكل مجموعة من القرى تشترك في موكب منها، وكنت أرى الموسيقى تدق في جميع الأرجاء والأغاني تنبعث من مكبرات الصوت في عدة نواح، ورأيت موكبا بهيجا يمشي في طريق عام فاندمجت فيه، كان الناس به يحملون مظلات كبيرة ملونة مزركشة أشبه في حجمها بمظلات الشاطئ، وكانت الموسيقى تصحب الركب، وعلى دقات الموسيقى كان يشترك عدد كبير من الرجال والنساء في رقصات دينية منتظمة، وبينما يسير الموكب في الطريق العام يخرج له من هذه الناحية ومن تلك جماعات أخرى بمظلاتها وموسيقاها وراقصيها فتنضم لهذا الموكب العام وتسير معه، وكانت لحظات الالتقاء بين الموكب العام والمواكب الفرعية بديعة للغاية، فالموسيقى تقرب دقاتها حتى تتلاقى، ووفود الراقصين والراقصات من الجانبين يداعب بعضهم بعضا في نشوة ظاهرة.

وسرت مع الركب حتى غايته بعد أن كبر جدا من كثرة ما تلقى من الجماعات المنضمة إليه من كل جانب، وهناك في النهاية كانت وفود أخرى محتشدة وموسيقى تملأ الأصقاع وراقصون وراقصات يستقبلون الموكب الحافل، ثم هدأت

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الموسيقى وهدأ الرقص قليلا، وتقدم مجموعة من الرجال لا يلبسون إلا ما يستر العورة فجلسوا على صف من الكراسي، وتقدم مجموعة من الحلاقين اجتمعوا لهذه الغاية وفي يد كل منهم موسى حادة فحلقوا شعور هؤلاء الجالسين وكانت النساء تعاون الحلاقين بصب الماء وذلك الشعر بالصابون، وبعد أن تمت الحلاقة ذهنت رؤوسهم بشئ أصفر ثم صب عليهم ماء للاستحمام، وبعد ذلك دخلوا حجرات خرجوا منها بعد فترة وهم يرتدون لباس المعبد، وهو عبارة عن قماش أصفر فاقع اللون يلتفون به، وبعد أن ينال الناس شيئا من الطعام والشراب يستأنف الموكب سيره ليقدم هؤلاء إلى الأديار البوذية والمعابد.

تلك صورة سريعة لهذه الاحتفالات السنوية، وقد حاولت أن أعيش في أعماق هذا الموضوع لا في ظاهره، وساعدني على ذلك الطلاب والطالبات الذين التفوا حولي وحاولوا أن يتحدثوا إلي بما يعرفون من لغة إنجليزية هزيلة، وأشهد أنهم كانوا كراما جدا معي، واشترك الجميع في تكريمي، وقدموا لي ألوانا من المشروبات أخذت منها ما استطعت شربه، ودارت محادثات طويلة بيني وبين الفتيان والفتيات حولي، فقد كان واضحا أن الذين يشتركون بنشاط في الموسيقى والرقص هم من الشيوخ أو من قليلي الثقافة، وأن الذين تقدموا لحلق رؤوسهم كانوا من هذا النوع أيضا، وأما ذوو الثقافة فكانوا مثلي مشاهدين لا غير، قلت لطالب: لماذا لا تتقدم لتلحق رأسك وتدخل الدير؟ وضج الجميع بالضحك. وقلت لطالبة: لماذا لا ترقصين مع الراقصات؟ فضحك الجميع وأخذت زميلاتها يدفعنها إلى الرقص في حركة أشبه بالسخرية من الرقص والراقصات ومن الحلاقة والحالقين. وسألت طالبة أخرى: لماذا لا تدخلين المعبد؟ قالت: إن النساء لا يدخلن، قلت لها: هل الدين للرجل والنساء أو للرجال فقط؟ ولم أتلق إجابة رشيدة، ولكني أدركت بما لا يدع مجالا

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

للشك أن الجيل الجديد في تلك البقاع غير قانع بالبوذية، وأنه في حيرة من أمره، وأنه وإن لم يعلن ثورته فهو يسرها، وربما تجذبه الموسيقى والاحتفالات شأن كل الشبان في العالم، ولكن معالم الدين لا تجذبه وطقوسه لا ترضيه.

هل سيظل هذا الجيل الجديد في شكه وتردده؟ وإلى أي اتجاه سيتجه؟

لقد رأيت أن المسيحية الأوربية قد درست هذا الوضع، ورأيتها تضع الشباك لتصطاد هؤلاء ولتجذبهم إلى حوزتها، بل رأيتها مسيحية يمكن أن نسميها المسيحية البوذية، تتبنى بعض طقوس البوذية حتى لا يحس الناس، بالفارق الكبير بين الدين الذي ألفوه وبين الدين المسيحي الذي يدعوهم، ويجذبهم ويفتح لهم أبوابه، رأيت الدعاة يملأون كل مكان، ورأيت الكنائس تنتشر، ورأيت المستشفيات والمدارس المسيحية تجذب الناس، ورأيت ملايين النسخ من الإنجيل باللغات المحلية توزع مجانا بنشاط كبير، ورأيت الصحف والمجلات والنشرات المسيحية معروضة ها وهناك في وضع جميل وقد كتب فوقها " خذ نسخة مجانا "، وعلى العموم رأيت زحف المسيحية على هذه البقاع لتأخذ مكان البوذية، يالله!

لقد هالني ذلك، ولم يكن الوقت يتسع لي لأكافح لخدمة الإسلام ولم أكن مستعدا لهذه الجولة الطويلة، وأقسم لقد انفرطت من عيني الدموع، وأحسست أن عبئا كبيرا يوضع على عاتقي ولم أجد وسيلة للتخلص منه إلا بكتابة هذه السطور لألقي العبء على من يستطيع حمله وتدبير أمره.

وليس هذا الوضع خاصا بتايلاند، وإنما هو وضع شامل لدول شرقي آسيا، إنك تراه في إندونيسيا وبورما والملايا وسنغافورة والفيلبين مع اختلاف قليل أو كثير، تجد قلوبا فارغة لم تستطع البوذية أن تحتفظ بها ولا استطاعت اللادينية أن تقنعها، وهنا يسهل تقديم ديننا الحنيف،

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ومن الواضح نتيجة لذلك أن نقرر أن جل رسالة الأزهر، وجل رسالة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وشطرا كبيرا من رسالة وزارة التعليم العالي ووزارة التربية يجب أن يتجه إلى هناك إلى تلك البقاع حيث مئات الملايين الذين يقفون على مفترق الطريق، فإذا جذبتهم المسيحية كان ذلك هزيمة لنا وأي هزيمة.

وهنا أسرع فأقرر أن هذه المشكلة ليست دينية فحسب، إنها مشكلة سياسية، فانحياز هذه البلاد إلى المسيحية الأوربية معناه فوز سياسي تسعى له أمريكا وأوربا جاهدتين، فالمشاهد أن الإسلام ليس دينا فقط، وإنما هو عون سياسي واقتصادي لنا في تلك البقاع، لقد اعترفت أكثر دول العالم بإسرائيل وبقيت الدول الإسلامية باسم الإسلام تناضل الدولة الأثيمة وتزعزع أركانها، ثم إن إسرائيل تسهم بنصيب كبير في إبعاد الإسلام عن تلك البقاع، فإبعاد الإسلام معناه دخول نفوذ إسرائيل وقوة الإسلام معناها هزيمة إسرائيل.

وهذا يسلمنا إلى حقيقة هامة هي حسن اختيار المبعوثين الذين يقومون بتأدية هذه الرسالة، فيلزم أن نتذكر أننا نقدم الإسلام لغير المسلمين أي أن مبعوثينا لن يذهبوا ليعلموا الفقه والتفسير وأصول الفقه، وإنما سيذهبون للتبشير بالإسلام، وسيقفون وجها لوجه أمام أساتذة من الرهبان المتخصصين في دراسة اللاهوت والذين لهم اطلاع واسع على جميع الأديان ومعرفة كبيرة بالدين الإسلامي، ولن يقف هؤلاء صامتين أمام دعوة الإسلام ودعاة الإسلام وإنما سيبذلون كل الجهد للتغلب على الدعاة المسلمين، فيجب أن يكون دعاتنا على معرفة واسعة بالفكر الإسلامي وبالديانة المسيحية كما علمها عيسى عليه السلام، وكما تعلمها للكنائس الآن بعد أن أحدث بها بولس انقلابا عظيما في معتقداتها وشعائرها. هذا بالإضافة إلى إجادة لغة أجنبية على الأقل لتكون وسيلة تقديم الدعوة للناس

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الكتب المقدسة لدى البوذيين

يجدر بنا عند الكلام عن الكتب البوذية المقدسة أن نقرر أن البوذيين لا يدعون أنها نزلة وإنما ينسبونها إلى بوذا، وهي عندهم بمثابة كتب الحديث عند المسلمين، وقد حفظ أتباع بوذا عنه أحاديثه وخطبه وأمثاله. ولكن بعد وفاة بوذا ظهر الخلاف بين أتباعه كما ظهر الاختلاق لبعض الأحاديث ونسبتها إليه، فعقد أتباعه مجلسا كبيرا في " راجاجرها " سنة ٤٨٣ ق. م ليزيلوا أسباب الخلاف وليقربوا أو يوحدوا الأتباع عن طريق تحديد ما قاله بوذا وأتباعه، ولما احتشد القوم سألوا " كاسى أبا " Kasyapa أعلم مريدي بوذا أن يقرأ عليهم آراء المبارك عما وراء الطبيعة فقرأها عليهم فتلقوها ورووها عنه، وسألوا " أوبالى " Upali وكان من أسن المريدين الأحياء أن يتلو عليهم شريعة " النظام " فقرأها عليهم فتلقوها ورووها عنه، ثم سألوا " أنندا " Ananda أحب المريدين عند بوذا أن يلقي عليهم ما سمعه من بوذا من حكايات وأمثال ومواعظ ففعل وتلقوها ورووها عنه (١).

وظلت هذه الروايات محفوظة في الصدور يتلقاها جيل عن جيل حتى عهد الملك آسوكا (٢٤٢ ق م). وفي ذلك الحين كان قد ظهر فيها شئ من التحريف والاختلاق في الرواية، فخاف الزعماء والشيوخ على ضياع هذا التراث فاجتمعوا واستقر رأيهم على كتابة هذه المجموعات الثلاث فكتبوها، ويظهر أنهم وضعوا كل مجموعة في سلة خاصة ليعلقوها بعيدة عن الضرر ومبالغة في تقديسها، ولذلك سميت هذه المجموعات بالسلال الثلاث أو البيتكات (Pitakas)، وتحوي السلة الأولى العقائد ولذلك

---

(١) On the Buddhist Councils the reader is advised of see F Allen p. Buddha s Philosophy by G .٢٨

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

سميت سلة العقائد أو (Adhi Dhamma Pitakas). وتحوي السلة الثانية الشريعة، ولذلك سميت سلة الشريعة أو (Vinaya Pitakas). وتحوي السلة الثالثة الحكايات ولذلك سميت سلة الحكايات (Sutta Pitakas). وهذه السلال الثلاث يقال لها القانون البالي. وهي تشمل البوذية القديمة بدون تحريف أو بتحريف قليل، وهي لهذا أهم الكتب المقدسة البوذية (١). وسميت هذه الروايات بالقانون البالي نسبة إلى اللغة البالية (Pali) التي دونت بها هذه الروايات.

---

(١) ٤٦ - ٤٥. Religions of the World p: Berry

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

قلنا فيما سبق إن أديان الهند تسير في فلك واحد، وإن الهندوسية هي الدين الأم، وتتشعب منها الأديان الأخرى، ثم تعود إليها غالبا في صورة أو أخرى، وهكذا تلتقي أديان الهند في الاعتقاد بالكارما وإن اختلفت هذه الأديان في تفسيرها، وتلتقي تبعا لذلك في القول بالتناسخ، وفي محاولة التخلص من تكرار المولد بقتل الرغبات والحرمان، وأديان الهند تتجه للتشاؤم، وتسعى كلها إلى الانطلاق أو النجاة أو النرفانا وليست مدلولات هذه بعيدة الاختلاف.

ويصف Wells (١) الارتباط بين أفكار بوذا وبين سواها من الأفكار بقوله: إن جوتاما لم يكن له أي علم ولا بصيرة بالتاريخ، ولم يكن لديه شعور واضح عن مغامرة الحياة الفسيحة الكثيرة الجوانب في انطلاقها في أرجاء الزمان والفضاء، كان ذهنه محصورا في دائرة فكرات عصره وقومه، وقد جمدت عقولهم حول فكرات التكرار الدائم المتواصل.

وأبرز ألوان الخلاف بين أديان الهند يتضح في مسألة الطبقات، فقد قررتها الهندوسية ووضعت حدودا حاسمة تفصل كلا منها عن الأخرى، ولم تقل بها الجينية ولا البوذية، ولكن أيا منهما لم تستطع أن تتخلص من النظام الطبقي في الحياة العملية.

ومن أوجه الخلاف كذلك مسألة الألوهية، ففي الهندوسية مجموعة كبيرة من الآلهة، وأنكرت الجينية الإله، ورفضت البوذية الحديث عنه، ولكن هذه الهوة لم يطل عمرها، فسرعان ما أله الجينيون مهاويرا والبوذيون بوذا،

---

(١) The Outline of History p .٤٩٢

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

واختلطت التماثيل والآلهة، إذ وجد الجينيون والبوذيون أن التدليل على عدم الإله أصعب من التدليل على وجوده. ومما يتصل بالإله ما تقوله الجينية من عدم الاعتراف بوحدة الوجود، ومن أنها ترى أن كل روح وحدة مستقلة خالدة، وليس مصيرها أن تندمج في روح عام، بل ستبقى مستقلة خالدة، وهي بذلك تخالف الهندوسية.

ولا تعترف البوذية بسلطان الكهنة، ولا بقانون الويدا، وتختلف البوذية عن الجينية في أن الأولى تسعى لإنقاذ المجموع، والثانية لإنقاذ الفرد (١).

ومن الواضح أن أديان الهند – فيما يتعلق بالإله وعلاقته بالكون والإنسان – تختلف عن الأديان السماوية، فالأديان السماوية ترى أن الكون والبشر وكل شئ مخلوق لله، وهناك حد فاصل بين الخالق والمخلوق، فليس الإنسان جزءا من الله وليس الكون جزءا من الله، وهناك حد فاصل كذلك بين الإنسان والإنسان.

أديان الهند في الميزان

الكارما أو قانون الجزاء وما يترتب عليه من تناسخ للأرواح أو تكرار للمولد، أهم المبادئ التي تعد محورا للفكر الهندي، ولا يكاد العقل يقبل مثل هذه الأسطورة، وقد سبق أن أوردنا تردد بوذا في الخوض فيها، وقوله في ذلك: هل تكلم ميت قط؟.

والعقل يقر أنه لا بد من جزاء لما يرتكبه الإنسان من أخطاء، ولكن الإسلام اتخذ طريقا رائعا حيال هذا الموضوع، فجعل الجزاء يتم أحيانا في الدنيا وأحيانا في الآخرة. وكان القرآن الكريم مرشد المسلمين إلى هذا الفكر قال تعالى:

– ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض.

---

(١) Religions of the World p: Berry .٤٣

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

– ولكن الله يسلط رسله على من يشاء عباده.
– وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم.
– فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية.

ولكن الفكر الهندي اتجه هذا الاتجاه الذي لا يمكن التدليل عليه ولا فهمه، وبخاصة بعد أن اضطر الفكر الهندي إلى تقرير أن الروح في الحياة الجديدة مقطوعة تماما عنها في حيواتها السابقة فلا تعرف عتها شيئا، ومعنى هذا أن الروح تنعم أو تشقى دون أن تعرف أسباب النعيم أو الشقاء.

ومما يؤخذ عن الكهانة سواء في ذلك كهانة الوثنيين أو أهل الكتاب الذين صارت بهم تقاليد الجمود إلى حالة كحالة الوثنية في تعليم الصور والتماثيل والتعويل على المعبد والكاهن في كل كبيرة أو صغيرة من شعائر العبادة، أنها تجعل المتدين قطعة من المعبد لا تتم على انفرادها ولا تتم لها ديانة أو شفاعة بمعزل عنه (١)، والتناسخ يخلق وضعا أعمق من ذلك في عدم الاعتراف باستقلال الشخصية ما دام الإنسان حلقة من سلسلة مر بحلقاتها الكائن الحي.

ونرى أن التناسخ يعارض بوضوح نظام الطبقات الدقيق الذي تقول به الهندوسية، فنظام الطبقات يحافظ على العرق والدم، والتناسخ ينقل الروح من طبقة إلى طبقة، بل من إنسان إلى حيوان أحيانا. ولذلك اضطر بعضهم إلى القول أن التناسخ يتم في حدود الصفة التي عليها الإنسان، فأرواح البراهمة تنقل إلى براهمة وأرواح العبيد تنقل إلى عبيد وهكذا، ولكن ذلك يفقد التناسخ قيمته، فالمقصود من التناسخ هو تحقيق الجزاء نظير خير أو شر ارتكبته الروح في الحياة السابقة ولا يتم ذلك ما دام العبد سيبقى عبدا والسيد سيبقى سيدا.

---

(١) الأستاذ العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ٢٠

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

والتناسخ يعارض كل الدراسات العلمية وعلم الأجناس حيث تقرر أن الولد بعض أبويه واستمرار لهما، إنه يماثلهما جسما ويماثلهما روحا ومواهب، فهو يرث عن ذويه لون الجسم والعيون والشعر، ويرث القامة، والصحة والمرض. ويرث المواهب والأخلاق غالبا. ولذلك فالتناسخ شذوذ عن الفكر العلمي والطبيعي.

وإذا كان التناسخ للجزاء فماذا يقول الفكر الهندي عن الطفل الذي يموت عقب الولادة؟ إن الروح به لم تستمتع ولم تعاقب. فليست ولادته إذا وبعث روح شخص آخر به إلا عبثا.

والتناسخ لا يفسر لنا الزيادة المطردة في التعداد. والهبوط الواسع أحيانا في أثناء الحروب من أين تجئ الأرواح الجديدة؟ وإلى أين تذهب أرواح القتلى في الحروب حيث يكون المواليد أقل من الموتى؟

والقول بالتناسخ تفكيك للأسرة وتصوير لها على أنها أشتات من الناس لا روابط بينها. فكل فرد من أفرادها منحدر من فرد لا نعرفه. وعلى ما في هذا من الارتباك الاجتماعي. فهو أيضا يخالف الملاحظ غالبا من تقارب حظوظ أفراد الأسرة الواحدة مما يدل على صلاتها الأسرية لا على أنها أشتات كما يرى مبدأ التناسخ.

وفيما يتعلق بالإله نجد الفكر الهندي يتراوح بين التعدد وبين الانكار أو الاهمال. والعجيب إن موقف الجينيين والبوذيين من الاعتراف بالإله كان رد فعل لسوء تصرف طبقة من البراهمة واستبدادهم فخاف الجينيون والبوذيون أن تتكون عندهم طبقة لاهوتية كالبراهمة إن قالوا بالإله. فأنكروه أو أهملوا الكلام عنه لهذا الغرض. وذلك موقف لا يرتضى. وقد ترتب على إنكارهم للإله أو إهمالهم الكلام عنه – كما سبق القول – أن أله الجينيون مهاوبرا وأله البوذيون برذا. وامتلأت معابدهم بالآلهة. وانحدر الفكر الهندي إلى عبادة

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الأوثان (١) ويعتبر علماء الأديان أن الوثنية نتيجة حتمية لإنكار الإله. فكل دين ينبني على إنكار الإله ينتهي بالفشل. وسبب ذلك أن الناس مفطورون على الإيمان بالآلهة. وهم دائما يفكرون فيمن خلق السماوات والأرض ومن يحيي ويميت. فإذا خلت عقيدة من الإله بادر أتباعها فابتكروا الإله على النحو الذي يتفق مع ثقافتهم ومستواهم العقلي والعلمي.

واستتبع إنكار الإله إنكار العبادات. فإذا لم يكن هناك إله، فلمن تكون العبادة والتضرع والدعاء (٢)؟ ولكن الدعاء شئ من طبيعة الإنسان أيضا. ولذلك نجد أتباع بوذا يقترحون ألوانا من الصلوات والأدعية حتى أولئك الذين لا يقولون بألوهية بوذا. وقد رأيت منها مظهرين في الشرق الأقصى أحدهما أن ينقشوا بعض ألفاظ لاهوتية على عجلات يديرها الهواء أو الماء، وتدور العجلات. وكلما ارتفعت الكلمات إلى أعلى ردد القوم هذه الكلمات في تضرع وخشية.

والمظهر الثاني ينتشر في عيدهم المسمى " ويشك Waigok " وهو يقام في ليلة البدر التي تجئ في شهر مايو من كل عام. ويحتفل به البوذيون بإندونيسيا في المعبد البوذي الشهير " بروبودور " بالقرب من جوكجا كارتا. والبوذيون في هذا العيد يحملون عيدانا من خشب رفيع يشعل الكهنة أطرافها بالنار، ويحركها البوذيون مقابل وجوههم وهم يتمتمون بالأدعية والصلوات.

وفي الحديث عن نقد البوذية نستعير من Wells عنوانا وضعه في هذا المجال وهو " مفاسد البوذية " ومما قاله تحت هذا العنوان ما يلي (٣):

---

(١) للتدليل على وجود الله ووحدانيته وصفاته يراجع كتاب الإسلام (الجزء الثالث من مقارنة الأديان) للمؤلف ص ٥٨ - ٩٨.

(٢) Religions of the World p: Berry .٤٣

(٣) The Outline of History p .٤٧٥

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

.... وفيما عدا إصرار جوتاما على تحري " الآراء الصائبة " وهو المبدأ الذي كان من السهل إغفاله، لم يكن هناك أي تحريم فعال لممارسة الخرافات وإنهاض الأرواح ورفعها والتعازيم والسجود والعبادات الإضافية (النوافل) ومن ثم سرت في العقيدة منذ مراحلها الأولى إضافات وزيادات اطردت وتواصلت على مر الزمان، فإن العقائد الجديدة التقطت معظم الأدواء المعيبة بالديانات الفاسدة التي حاولت أن تحل محلها، فأخذت عنها الأصنام والمعابد والمذابح والمباخر.

واستمرارا لنقد البوذية نقرر أو نكرر ما سبق أن أوردناه أن بوذا لم يوضح النرفانا، وأن ما ذكره عنها يحيط به الغموض ثم إنه يقرر أن قليلين جدا هم الذين يبلغون النرفانا، ومعنى هذا أن أغلبية البشر سيظلون في ظلام وتخبط وحرمان.

والبوذية – ككل المذاهب الهندية – ترى الحياة ظلاما، ونظرتها حافلة بالتشاؤم واليأس، فالعالم عندها كله سوء، والرغبات شريرة، ولا مكان للرغبات والأماني الصالحة، ومما ورد عن بوذا في ذلك قوله: الكون بأجمعه ملتهب، الكون بأجمعه محفوف بالدخان، الكون بأجمعه تحيط به النار، الكون بأجمعه مرتعد.

ويؤخذ على بوذا رفضه قبول النساء في دينه، ثم قبولهن بتردد وخوف، وإشارته إلى خطرهن على النظام، وإمكان إخراجهن منه، وذلك كما ترى تفريق قاس بين الرجل والمرأة، وحيلولة بين المرأة وهي الأم والزوجة والأخت والبنت وبين النور إن كانت البوذية نورا.

وكان بوذا يقبل من يريد أن يدخل " النظام " ولو بدون رأي أبويه، ولكن والد بوذا تضرع له بأن أخذ الابن من أبيه عمل يعد غاية في القسوة، ورجاه ألا يقبل الأبناء إلا إذا أذن لهم آباؤهم، وقد استجاب بوذا لرغبة أبيه وقرر ضرورة الحصول على إذن الآباء لمن أراد دخول " النظام " من

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الأبناء، وأعتقد أن الفكر السليم لا يقبل هذا، ويلزم أن تكون أبواب الأديان مفتوحة لمن يريد أن يدخلها.

وهناك النظم العجيبة التي فرضها بوذا على من يريد أن يدخل " النظام " وهذه النظم هي أن يفرض عليه التبتل ويحظر عليه أخذ الفضة والذهب، وعليه ألا يأكل في اليوم إلا وجبة واحدة في الضحى، ويحمل في يده طبق الاحسان أو " الكشكول " ينتقل به من بيت إلى آخر ليجمع قوت يومه، وتروى الروايات أن بوذا عندما قدم لزيارة والده اتخذت المدينة أهبتها لإستقباله، والتفت حوله الجماهير، وتزين القصر، ولكن بوذا في وسط هذه المظاهر يرفع كشكوله ليجمع الصدقات، وقد اغتاظ أبوه عندما عرف هذا، وأرسل له يؤنبه ويذكره أنه من طبقة الكشتريا المالكة التي تكسب الثروات بالسيف والتي تمنح ولا تستجدي، وقد أرسل بوذا لوالده من يقول له: أجل إنك من طبقة الكشتريا النبيلة، ولكني من طبقة أخرى، أعرق في المجد من سائر الطبقات، إن ألوفا مؤلفة من البوذيين يعيشون بالتسول وكذلك أفعل أنا. وكذلك كانت زوجته بعد أن دخلت في " النظام " تحمل الكشكول وتدور به لتجمع طعامها من الصدقات. وهل يمكن أن يعيش عالم على الاستجداء والصدقات؟ وهل من الطبيعي أن نمتهن النفس هكذا ونعرضها لطلب الصدقة دون حاجة؟ وقد عانى بوذا نفسه من ذلك شر عناء، فطالما أهانه الناس، وردوه دون عطاء. وقد دعت فكرة الاستجداء هذه بعض المفكرين إلى الاعتقاد بأن ما تعانيه البلدان التي سادها الفكر البوذي من كسل أو قلة سعي في ميدان الحياة، وميل إلى القناعة والمسالمة، إنما هو نتيجة هذه العقيدة.

وأخيرا لقد امتهنت أديان الهند الجسم، بل عذبته وحرمته الطعام والشراب والملاذ المباحة غالبا، وعرضته الجينية للعرى وعوامل الجو

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

القاسية، وفكرت فيه أديان الهند على أنه جثة عفنة سريعة العطب والفناء، وكان من الممكن أن تعتبره الهيكل الذي تعيش به الروح المقدسة.

والباحثون الغربيون (١) يمتدحون في البوذية أنها حررت الإنسان من الكهنوت والعقائد ووكلتهم إلى ضمائرهم، فأطلقتهم من عقال التقاليد وشجعتهم على أن يقودوا أنفسهم دون اعتماد على قوى أخرى أو انقياد لما فوق الطبيعة.

وإننا لنتساءل إلى أي مدى استطاع البوذيون أن يقودوا أنفسهم وأن يستغنوا عن الرائد والمعبود، لقد نقلوا بوذا من معلم إلى رائد ثم إلى إله.

ويوضح Wells الفرق الكبير بين ما كانت عليه البوذية أو بين الفكرة التي دعا لها جوتاما و بين ما آلت إليه البوذية بقوله (٢):

والتبت اليوم قطر بوذي، ومع ذلك فلو أن جوتاما بعث من قبره حيا لذهب من أقصى التبت إلى أقصاها باحثا عن تعاليمه بلا جدوى، وسيجد هناك ذلك الطراز العتيق من حكام البشر، وهو الملك الرب متوجا وممثلا في شخص الدالاي لاما (Dalai Lama) الذي هو البوذا الحي، وسيجد في لهاسا (Lhasa) معبدا فخما غاصا بالكهنة والرهبان واللامات، وهو (أي جوتاما) الذي لم تكن مبانيه إلا الخصاص، والذي لم يكن له أي كهنة، وإنه ليشهد فوق هيكل مرتفع صنما ذهبيا ضخما يحمل اسم (جوتاما بوذا) وإنه ليسمع صلوات ترتل أمام ذلك الرب، وتلعب الأجراس والبخور دورها في هذه المراسم المدهشة..

ويدرك العلامة الأستاذ العقاد تحمس الباحثين الغربيين للبوذية فيذكر علته ويفنده بقوله (٣).

---

(١) أنظر: Religions of the World p: Berry .٤٣

(٢) The Outline of History p .٤٩٢ - ٤٩٣

(٣) الله ص ٨٢ - ٨٣

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وعلينا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوربيين بهذه الفلسفة البوذية، لأنهم يتعصبون لكل منسوب إلى الآرية، على اعتبارها عنصر الأوربيين الأقدمين والمعاصرين، فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراء، وزعموا أنها " جرأة العقل الكبرى " في مواجهة المشكلة الكونية، وأنها الخطوة المقتحمة التي لم يذهب وراءها ذو عقيدة في مطاوح التأمل والإقدام. لكنها لا تحسب من الجرأة العقلية بوصف من الأوصاف، فما هي إلا جرأة حسية في أقسى ما تطوحت إليه من الفروض والأظانين، وما البوذية كلها إلا تململا من وطأة الحس والجسد، وما سعادتها القصوى إلا ضيقا بالحس وهربا منه إلى الفناء أو اللاوعي على أحسن تقدير.

فالبوذية فتح في ميدان التصوف أو ميدان " الوجدانيات " والفضائل الخلقية، ولكنها ليست بالفتح الجرئ في معراج الوصول إلى الكمال، كمال الإله.

ويصور الأستاذ العقاد العلاقة بين البرهمية والبوذية أجمل تصوير في قوله:

فالبوذية إنما قامت على أساس البرهمية في كل عقيدة من عقائد الأصول، وإنما تميزت البوذية بتبسيط العقائد لطبقات من الشعب غير طبقات الكهان، فأخرجتها من حجابها المكنون، في المحاريب إلى المدرسة والبيت وصفوة المريدين (١).

أما مكان البوذية في العقائد فيصوره هذا الباحث بقوله:

ولا تعتبر البوذية إضافة في صميم العقائد الدينية، بل إضافة في آداب السلوك وفلسفة الحياة، وإضافة في عرض الآراء على يد غير المستأثرين بها قديما من سدنة الهيكل والمحراب (٢).

---

(١) الله ص ٨٠

(٢) المرجع السابق

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

وقبل أن ندع البوذية يجدر بنا أن نثبت ميزة كبيرة تنسب لها، تلك هي التسامح، فقد كانت البوذية تصل في التسامح إلى حد كبير، وكان بوذا يحذر أتباعه من التعصب المذهبي، ويقرر لهم أن التعصب يعمي عن الحق، وقد أرسل له مهاويرا مرة مريدا من مريديه ليناظره في موضوع الكارما إذ كان لمهاويرا رأي في الكارما يخالف رأي بوذا، وجرت المناظرة فاقتنع مريد مهاويرا برأي بوذا، وطلب أن ينضم إليه، ولكن بوذا نصحه بأن يتريث ويفكر في الأمر، وعاد المريد يذكر أنه فكر وأنه عند رأيه في رغبته في اتباع بوذا، ولكن بوذا طلب إليه أن يعود للتفكير والتدبر، وفي المرة الثالثة نصح بوذا المريد أن يستمر على تبعيته لأستاذه القديم، وصور له كم سيكون صعبا عليه أن يعلم بهذا التحول وبخاصة في هذه المناسبة (١)، ويربط البوذيون بين تسامح الملك آسوكا وبين دخوله البوذية، ويرون أن الانقلاب في حياته من حب للقهر إلى سبل للسلام كان من نتائج دخوله البوذية (٢).

البوذية مصدر مهم من مصادر المسيحية:

ذكرنا في الجزء الثاني من هذه الموسوعة عن المسيحية الحالية أنها اقتبست كثيرا من عناصرها المهمة من مصادر بوذية، وقد كتب Edward Thomas كتابا عن هذا الموضوع (٣) أورد فيه المؤلف مقارنة دقيقة تبين تأثير البوذية في المسيحية، وأورد للتدليل على ذلك نصوصا من الكتب البوذية المقدسة ونصوصا أخرى من الأناجيل، وبين كيف انتقلت الأفكار من البوذية إلى المسيحية، بل أوضح المؤلف أن طريقة الصياغة أيضا تكاد تكون واحدة وهذا يجعل دراسة البوذية مهمة في تاريخ مقارنة الأديان

---

(١) Richard Card pp. Buddhism Ed .٦ - ٧

(٢) المرجع السابق.

(٣) - The life of Buddhaas as Legend and History

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

قضية الألوهية
" نموذج للمقارنة بين قضايا الأديان "

(٢٠٥)

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

مقدمة:
طرق البحث في مقارنة الأديان
دراسة مقارنة الأديان لها طريقان:
١ – الطريق الأول أن تكون المباحث الكبرى بالأديان هي عناوين للدراسات، كأن نكتب كتابا عن " الله "، وندرس به مختلف الاتجاهات عن الإله، ونكتب كتابا آخر عن " النبوة " وثالثا عن " التشريع ".... وهكذا... وقد سار على ذلك المنوال بعض الباحثين مثل Max Mueller في كتابه Essy on Comparative Mythology ومثل الأستاذ العقاد في كتابه " الله ".
ولكن يؤخذ على هذه الطريقة بعض مآخذ أهمها:
أولا – أن مباحث الأديان ليست متشابهة، فمثلا:
– تاريخ اليهود له أثر كبير في عقيدتهم، ومن ثم وجب أن يكون مبحثا مهما عند دراسة " اليهودية "، ولكن التاريخ الإسلامي ليس ذا أثر في العقيدة الإسلامية، ومن ثم فليس ضروريا أن يكون ضمن مباحث كتاب عن " الإسلام ".
– لم يتكلم بوذا عن الإله، ولكن محمدا تكلم عنه وأفاض.
– في البوذية موضوع النرفانا، وفي الجينية موضوع النجاة، وليس في الأديان السماوية ما يماثل هذه المباحث.
– في أديان الهند موضوع التناسخ، وليست كذلك الأديان السماوية.
– يهتم الإسلام بالتشريع، ولا تهتم المسيحية به وهكذا..
وإذا لم تتشابه المباحث كانت المقارنة غير دقيقة، وكانت المباحث التي

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

توجد في دين واحد من الأديان قلقة الموضوع في هذه الدراسة، إذ لا توجد مقارنة بين الأديان عنها.
ثانيا – دراسة مقارنة الأديان على هذا النحو لا تعطي فكرة متكاملة عن كل دين، إذ سترد مباحث كل دين متناثرة هنا وهناك.
على أن دراسة مقارنة الأديان على هذا النحو ينبغي أن تجئ بعد دراسة الأديان نفسها، فإن طبيعة المقارنة أن تتأخر عن استيعاب الأصل، ففي الأدب المقارن يلزم أن ندرس الآداب المختلفة ثم نقارن بينها، وفي الفقه المقارن يلزم أن ندرس التشريعات المختلفة ثم نقارن بينها، وفي مقارنة الأديان يلزم أن ندرس الأديان ثم نعقد المقارنة بين مباحثها.
ويمكن القول إنه – بسبب هذه المآخذ – لم يسر أحد إلى آخر الشوط في دراسة مقارنة الأديان متبعا هذا الطريق.
٢ – الطريق الثاني: هو أن يخصص كتاب لكل دين، تدرس فيه مباحثه العقائدية والتشريعية المختلفة مشفوعة بالمقارنة كلما وجد لها مجال، وهذا الطريق هو الذي يسير عليه أغلب الكتاب، وهو ما اتبعته في " سلسلة مقارنة الأديان " وبه نتحاشى المآخذ التي سبق أن أوردناها على الطريق الأول.
ونحن بعد أن استكملنا دراستنا طبقا لهذه الطريقة نجدنا في وضع يجعل من اليسير علينا أن نقتبس بعض ما كتبناه عن مبحث من أهم مباحث الأديان وهو " قضية الألوهية " ونضع ما اقتبسناه بعضه بجانب بعض حتى تتكون لنا صورة واضحة للاتجاهات حول هذه القضية التي هي أساس الأديان، وبهذا نكون قد عرضنا الطريقين معا في هذه القضية كنموذج لدراسة القضايا الدينية الأخرى دراسة مقارنة، وقد خصصنا " قضية الألوهية " بهذه الدراسة لأنها قمة المشكلات الدينية، وعلى هدى دراستنا فيها يمكن للقارئ أن يكون

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

فكرة عن المقارنة بين كثير من قضايا الأديان التي احتوتها هذه السلسلة.
ونقطة أخرى يتحتم عرضها في هذه المقدمة، هي أننا في دراستنا لمقارنة الأديان اهتممنا بالأديان السماوية لأن صراعا عنيفا يدور بينها، وكان من الطبيعي أن يكون بينها وئام، فأردنا أن نتعرف على ألوان الانحرافات التي وضعت الشقاق مكان الوفاق، والكراهية مكان الحب، أما اهتمامنا بأديان الهند فيرجع لسببين:
أولهما: أن أديان الهند كانت معينا تسربت منه ألوان من الأفكار فوجدت طريقها بين معتقدات المسيحيين والمسلمين، فالشعار المسيحي " تثليث في وحدة ووحدة في تثليث " منحدر من الهندوسية وكانت البوذية أهم مصدر اقتبست منه المسيحية كثيرا من مبادئها كما ذكرنا آنفا، وقال بعض المسلمين بالتناسخ ووحدة الوجود تأثرا بثقافة الهند.
والسبب الثاني: أن البوذية تعتبر من أديان الدعوة، أي من الأديان التي لها دعاة ينشرونها ويحاولون جذب الأتباع لها، ومن هنا تدخل البوذية في صراع مع الإسلام في منطقة الشرق الأقصى، ولا بد من التعرف على عناصر هذا الصراع ليمكن تقدير نتائجه.
وفي ترتيب الأديان التي درسناها في هذه السلسلة ابتدأنا بالأديان السماوية بترتيبها التاريخي، لأنها الأصل في هذه الدراسة، ثم درسنا أديان الهند في الجزء الرابع، ولكنا في عرضنا لقضية الألوهية سنبدأ بأديان الهند، لأن منها تسربت بعض الأفكار – كما قلنا – لمعتقدات المسيحيين وقلة من والمسلمين.
وفي ضوء هذا التقديم نبدأ عرض قضية الألوهية:

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

قضية الألوهية

الله في التفكير الهندوسي:

يتجه التفكير الهندوسي فيما يختص بالإله إلى نزعة التعدد غالبا، وقد بلغ التعدد عند الهنود مبلغا كبيرا، فقد كان عندهم لكل قوة طبيعية تنفعهم أو تضرهم إله يعبدونه ويستنصرون به في الشدائد كالماء والنار والأنهار والجبال وغيرها، وكانوا يدعون تلك الآلهة لتبارك لهم في ذريتهم وأموالهم من المواشي والغلات والثمار وتنصرهم على أعدائهم.

ويقول غوستاف لوبون: وهيهات أن تجد هندوسيا لا يعبد عددا من الآلهة، فالعالم عنده زاخر بها حتى أنه يصلي للنمر الذي يفترس أنعامه، ولجسر الخط الحديدي الذي يصنعه الأوربي، وللأوربي نفسه عند الاقتضاء (١).

ولكن بعض الهنود في وسط هذا التعدد كانوا يميلون أحيانا للتوحيد أو اتجاه قريب منه، فقد كانوا إذا دعوا إلها من آلهتهم أو أثنوا عليه أو تقربوا إليه بقربان، أقبلوا عليه بكل عواطفهم وجل ميولهم حتى يغيب عن أعينهم سائر الآلهة والأرباب (٢)، ويصير إلههم هو ذلك الإله لا غير، فيسمونه بكل اسم حسن ويصفونه بكل صفة كمالية، ويخاطبونه برب الأرباب وإله الآلهة، وتعظيما وإجلالا لا تحقيقا وإيقانا، وإذا عطفوا إلى إله غيره أقاموه مقام الأول وجعلوه رب الأرباب وإله الآلهة، فهذا التعبير " رب الأرباب أو إله الآلهة " كان أولا يدل على العظمة والجلال، فلما مضت القرون على هذا النحو

---

(١) غوستاف لوبون: حضارة الهند ص ٣٦٨

(٢) ٦. by Lowis Renon p, Ed, Hinduism
(الهند ١٤)

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

أصبح هذا التعبير ثابت المعنى، أي أنهم اعتقدوا فعلا أن في صف الآلهة رئيسا ومرءوسين وآمرا ومأمورين، وأن الرئيس والآمر هو وحده رب الأرباب وإله الآلهة، وهذا وصف ثابت له لا ينتقل إلى سواه والكائنات كلها تحت يده وسائر الآلهة تحت أمره (١).

التثليث في الفكر الهندي:

وحوالي القرن التاسع قبل الميلاد وصل فكر الكهنة الهنود إلى رأي تشبهه عقيدة التثليث الحالية عند المسيحيين، فقد جمعوا الآلهة في إله واحد، وقالوا إنه هو الذي أخرج العالم من ذاته، وهو الذي يحفظه إلى أن يهلكه وبرده إليه، وأطلقوا عليه ثلاثة أسماء، فهو براهما من حيث هو موجد، وهو فشنو من حيث هو حافظ، وهو سيفا من حيث هو مهلك (٢). وفتح الكهنة الهنود الباب للمسيحيين فيما يسمى: تثليث في وحدة موحدة في تثليث

عبادة البقرة:

ومن بين المعبودات المتعددة عند الهنود حظيت البقرة بأسمى مكانة، وهي من المعبودات الهندية التي لم تضعف قداستها مع كر السنين وتوالي القرون، ففي الويدا حديث عن قداستها والصلاة لها، ولا تزال البقرة حتى الآن تستمتع بهذه القدسية، ففي الأدب المنسوب للمهاتما غاندي تفسير لما حظيت به البقرة قديما وحديثا من نفوذ ديني، وفي عدد نوفمبر (سنة ١٩٦٣) من مجلة

---

(١) محمد عبد السلام الرامبوري: فلسفة الهند القديمة.

(٢) دكتور إبراهيم مدكور ودكتور يوسف كرم. دروس في تاريخ الفلسفة ص ١٢.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

Bhavan s Journal التي تصدر في بومباي بالهند، عدة مقالات عن عبادة البقرة، وسنقتبس هنا خلاصة هذه المقالات، وأول ما نقتبسه نشيد من " ساما ويدا " (١) نشرته المجلة في صفحة مستقلة، داخل رسم تخطيطي للبقرة (٢) والترجمة العربية للنشيد هي:

صلاة إلى البقرة:

أيتها البقرة المقدسة، لك التمجيد والدعاء، في كل مظهر تظهرين به أنثى تدرين اللبن في الفجر وعند الغسق، أو عجلا صغيرا، أو ثورا كبيرا، فلنعد لك مكانا واسعا نظيفا يليق بك، وماء نقيا تشربينه، لعلك تنعمين هنا بالسعادة.

أما رأي مهاتما غاندي في عبادة البقرة فقد أثبته مفصلا في المجلة السابقة واقتبسناه في كتابنا عن " أديان الهند الكبرى " (٣) وفيما يلي لمحات منه:

عندما أرى بقرة لا أعدني أرى حيوانا، لأني أعبد البقرة وأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع... وإن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعباد والاجلال وإنا أعد نفسي واحدا من هؤلاء الملايين.

الله في التفكير الجيني:

كانت الجينية نوعا من المقاومة للهندوسية وثورة على سلطان البراهمة، ومن هنا لم يعترف مهاويرا بالآلهة، فالاعتراف بالآلهة قد يخلق من جديد طبقة براهمة أو كهنة

---

(١) قسم من أقسام الويدا وهو كتاب الهندوس المقدس.

(٢) انظره بكتاب أديان الهند الكبرى ص ٣١.

(٣) ص ٣٢

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

يعدون أنفسهم صلة بين الناس والآلهة، وقرر أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون، ومن هنا سمي هذا الدين دين إلحاد.

غير أن العقل البشري يميل إلى الاعتراف بإله، ويحتاج الالحاد إلى أدلة أكثر من الأدلة التي يحتاجها إثبات الآلهة، ومن هنا وجد فراغ كبير في الجينية بسبب عدم اعتراف مهاويرا بإله يكمل به صورة الدين الذي دعا إليه، وكان من نتيجة ذلك أن اعتبره أتباعه إلها، بل عدوا الجيناوات الأربعة والعشرين آلهة لهم، ولعلهم بذلك كانوا متأثرين بالفكر الهندي الذي يميل في الأكثر إلى تعدد الآلهة.

الله في التفكير البوذي:

لم يعن بوذا بالحديث عن الإله، ولم يشغل نفسه بالكلام عنه إثباتا أو إنكارا، وتحاشى كل ما يتصل بالبحوث اللاهوتية، وما وراء الطبيعة، وما يتحدث عن القضايا الدقيقة في الكون، وكان ينهى أصحابه وزواره أن يخوضوا في هذه الأبحاث ويوبخهم على سؤالهم عن مثل هذه القضايا.

ولكن بوذا اتجه أحيانا إلى جانب الانكار أكثر من اتجاهه إلى جانب الاثبات فقد وقف في إحدى خطبه يسخر ممن يقولون بوجود الإله، وكان مما قاله في ذلك: إن المشايخ الذين يتكلمون عن الله، ولم يروه وجها لوجه، كالعاشق الذي يذوب كمدا وهو لا يعرف من هي حبيبته، أو كالذي يبني السلم وهو لا يدري أين يوجد القصر، أو كالذي يريد أن يعبر نهرا فينادي الشاطئ الآخر ليقدم له (١).

ومن أجل إهمال الإله أو الاتجاه إلى نكرانه أحيانا اتجه براهمة عصره إلى أن يصموه بوصمة الالحاد.

---

(١) العلامة رادها كرشنن (أنظر أديان الهند ص ١٦٨).

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

والإيمان بإله، اتجاه نفسي قوي لا يقل عن قوة الغرائز في البشر، وإهمال هذا الاتجاه يحدث ارتباكا واضطرابا، ومن أجل هذا نجد أتباع بوذا من بعده يفكرون في الإله، ويعملون على الوصول إليه أو التعرف عليه، ولما كان بوذا قد ترك هذا المجال خاليا، فقد لعبت بهم الأهواء فاتجه بعضهم إلى الاعتقاد أن بوذا ليس انسانا محضا، بل إن روح الله قد حلت به، وهذه العقيدة تشبه عقيدة الحلول التي يعتنقها بعض المسيحيين في السيد المسيح، فيقولون إن شخصيته ثنائية: لاهوتية وناسوتية، وإن الشخصية اللاهوتية حلت بالناسوت، وتسربت هذه العقيدة أيضا إلى " مدعي التشيع " فقالوا بها فيما يتعلق بعلي بن أبي طالب، وعاقبهم رضي الله عنه بما يستحقون، بل ذهب بعض البوذيين إلى القول بأن بوذا كائن لاهوتي هبط إلى هذا العالم لينقذه مما فيه من شرور (١). وقد تسربت هذه العقيدة كذلك لبعض الطوائف المسيحية.

الله عند اليهود:

لم يستطع بنو إسرائيل في أية فترة من فترات تاريخهم أن يستقروا على عبادة الله الواحد الذي دعاه له الأنبياء، وكان اتجاههم إلى التجسيم والتعدد والنفعية واضحا في جميع مراحل تاريخهم، وعلى الرغم من ارتباط وجودهم بإبراهيم إلا أن البدائية الدينية كانت طابعهم، وتعد كثرة أنبيائهم دليلا على تجدد الشرك فيهم، وبالتالي تجدد الحاجة إلى أنبياء يجددون الدعوة إلى التوحيد، وكانت هذه الدعوات قليلة الجدوى على أي حال، فظهروا للتاريخ بدائيين يعبدون الأرواح، والأحجار، وأحيانا مقلدين يعبدون معبودات الأمم المجاورة التي كانت لها حضارة وفكر قلدهما اليهود. ويقول Shotwell، J (٢) إن اليهود كانوا في مطلع ظهورهم على مسرح التاريخ بدوا رحلا تسيطر عليهم الأفكار البدائية كالخوف من الشياطين، والاعتقاد في الأرواح، وكانوا يعبدون

---

(١) حامد عبد القادر: بوذا الأكبر ص ٩٦، ١٢٠، ١٣٠.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

الحجارة والأغنام والأشجار، ويقول Reinach إن اليهود اتخذوا في بيوتهم أصناما صغيرة كانوا يعبدونها ويتنقلون بها من مكان إلى مكان (١)، وقد طل بنو إسرائيل على هذا الاعتقاد حتى جاء موسى وخرج بهم من مصر.
ولكن بني إسرائيل كما يقول ول ديورانت (٢) لم يتخلوا قط عن عبادة العجل والكبش واللحم، ولم يستطع موسى أن يمنع قطيعه من عبادة العجل الذهبي لأن عبادة العجول كانت لا تزال حية في ذاكرتهم منذ كانوا في مصر، وظلوا زمنا طويلا يتخذون هذا الحيوان القوي آكل العشب رمزا لإلههم، وتقرر التوراة قصة العجل الذي عمله لهم هارون فعبدوه بعد أن تأخر موسى في العودة إليهم وكيف خلعوا ملابسهم وأخذوا يرقصون عراة أمام هذا الرب، وقد أعدم موسى ثلاثة آلاف متهم عقابا لهم على عبادة هذا الوثن (٣)، وقد بقيت عبادة العجل تتجدد في حياة بني إسرائيل من حين إلى حين، فقد عمل يربعام بن سليمان عجلي ذهب ليعبدهما أتباعه حتى لا يحتاجوا إلى الذهاب إلى الهيكل (٤)، وقد عبد أهاب ملك إسرائيل الأبقار بعد سليمان بقرن واحد (٥).
وهكذا كان اتجاه اليهود ماديا في الغالب ولم تجد الاتجاهات الروحية عندهم أرضا خصبة في أكثر الأوقات، وقد عبرت يائيل ديان ابنة القائد العسكري موشي ديان عن ذلك بقولها على لسان أحد أبطال روايتها " طوبى للخائفين " ما يلي:

---

(١) History of Religions p .١٧٦
(٢) قصة الحضارة ج ٢ ص ٣٣٨
(٣) خروج ٣٢: ١٨ - ٢٦ والقرآن الكريم يقرر أن السامري هو الذي عمل العجل
(٤) الملوك الأول ١٢: ٢٦ - ٢٨
(٥) ول ديورانت ج ٢ ص ٣٣٩

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

أيام زمان حين كنا يهودا في روسيا وغيرها كان من الضروري بالنسبة لنا أن نطيع التعليمات، ونحافظ على ديننا، فقد كان الدين اليهودي لنا وسيلتنا لنتعاون ونتعاطف ونزود عنا الردى، أما الآن فقد أصبح لدينا شئ أهم، هو الأرض أنت الآن إسرائيلي، ولست مجرد يهودي.
إني قد تركت في روسيا كل شئ ملابسي ومتاعي وأقاربي وإلهي، وعثرت هنا على رب جديد. هذا الرب الجديد هو خصب الأرض وزهر البرتقال (١).

الله في التفكير المسيحي:

عندما نصل إلى الحديث عن الله في التفكير المسيحي نحتاج إلى مزيد من الصبر لنرى التحول الخطير الذي أصاب الفكر المسيحي في هذه القضية الهامة:

تقرر الأناجيل المسيحية وأعمال الرسل ثلاث قضايا مهمة:

أولاها: أن الله واحد لا شريك له.

والثانية: أن عيسى رسول الله وليس أكثر من رسول.

والثالثة: أن عيسى رسول لبني إسرائيل فقط.

وعن القضية الأولى نورد النصوص التالية من هذه الأناجيل:

- يروي متي عن عيسى قوله: أن أباكم واحد الذي في السماوات (إصحاح ٢٣ الفقرة ٨).

---

(١) يائيل ديان: طوبى للخائفين (أنظر القصة كاملة بكتاب اليهودية ص ١٧٦ - ١٧٧)

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

- ويروي مرقص قول عيسى: الرب إلهنا إله واحد وليس آخر سواه (١٢: ٣٠ - ٣١).
- ويروي يوحنا عن عيسى قوله: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم (٢٠: ١٨).

وعن القضية الثانية نورد من الأناجيل النصوص التالية:
- جاء في إنجيل متي قوله: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل (٢١: ١١).
- وجاء في لوقا: قد خرج فينا نبي عظيم (٧: ١٦).
- ويروي يوحنا: إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم (٦: ١٤ و ٧: ٤٠).
- ويروي يوحنا كذلك عن عيسى قوله: وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله (٨: ٤٠).
- ويروي لوقا عن عيسى قوله عندما أحس بقرب نهايته بسبب مؤامرات اليهود عليه:

ينبغي أن أسير اليوم وغدا وما يليه، لأنه لا يمكن أن يهلك نبي خارج أورشليم، يا أورشليم يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين.

وعن القضية الثالثة نورد النصوص التالية:
- جاء في متي ما نصه: ثم خرج يسوع من هناك، وانصرف إلى نواحي صور وصيدا وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت قائلة: ارحمني يا سيد يا ابن داود ابنتي مجنونة جدا، فلم يجبها بكلمة

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

فقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين اصرفها لأنها تصبح وراءنا، فأجاب وقال: لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة (متي ١٥: ٢١ - ٢٤).
- وفي متي كذلك أن عيسى عندما حدد الحواريين الاثني عشر أوصاهم قائلا: إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بني إسرائيل الضالة (متي ١٠: ٥ - ٦).
وفد خاصم اليهود بطرس لأنه دخل على غبر اليهود وتكلم معهم. (أعمال الرسل ١١ الفقرة الأولى).
وورد في عبارات بطرس قوله لغير اليهود. أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودي أن يلتصق بأحد أجنبي أو يأتي إليه (أعمال الرسل ١٠: ٢٨).
والقرآن الكريم يقرر هذه الاتجاهات الثلاث في المسيحية، قال تعالى:
- وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم (سورة المائدة الآية ٧٢).
- لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد (سورة المائدة الآية ٧٣).
- ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل (سورة المائدة الآية ٧٥).
- ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم (سورة المائدة لآية ١٧)

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

- ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ورسولا إلى بني إسرائيل (سورة آل عمران الآيتان ٤٨ - ٤٩).

ومن أجل هذا كان نقل المسيحية من الوحدانية إلى التثليث، ونقل عيسى من رسول إلى إله، والقول بأن المسيحية رسالة عامة، والقول بأن عيسى هو ابن الله نزل ليضحي بنفسه للتفكير عن خطيئة البشر، وأنه عاد مرة أخرى إلى السماء ليجلس على يمين أبيه، كان هذا كله عملا جديدا على المسيحية التي جاء بها عيسى. كيف انتقلت المسيحية من حال إلى حال؟ ومن الذي قام بذلك؟ ومتى؟.

هذا ما سنحاول إبرازه فيما يلي:

ترتبط هذه الأمور بشخصية مهمة في المسيحية، هي شخصية شاءول (بولس)، ولذلك يرى الباحثون الغربيون أن المسيحية الحالية بهذه العناصر الجديدة هي من صنع هذا الرجل، ويقول Berry (١) إن بولس هو في الحقيقة مؤسس المسيحية، ويقول Wells (٢) إن كثيرا من الثقات العصريين يعدونه المؤسس الحقيقي للمسيحية.

وبولس كما يقول عن نفسه " يهودي فريسي ابن فريسي على رجاء قيامة الأموات " (أعمال الرسل ٢٣: ٦) وكان عدوا للمسيحيين وفي ذلك يقول: سمعتم بسيرتي قبلا في الديانة اليهودية، إني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها، وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثيرين من أترابي في جنسي إذ كنت أوفر غيرة في تقليدات آبائي " (غلاطية ١: ٢٠ - ١٤).

---

(١) أنظر رأي Rerry في كتاب " المسيحية " ص ٦٩ وما بعدها وبخاصة ص ٧٣

(٢) ٦٩٥. Outline of Historyvol ٣ p

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

ويبدو أنه كان من وسائل بولس لتدمير المسيحية أن يحطم معتقداتها واتجاهاتها المقدسة، ووضع لذلك طريقة تكفل له الوقوف في وجه معارضيه عندما يظهر بأفكاره الجديدة، فادعى شاءول أن السيد المسيح – بعد نهايته على الأرض – ظهر له وصاح فيه وهو في طريقه إلى دمشق قائلا: لماذا تضطهدني؟ فخاف شاءول وصرخ: من أنت يا سيد؟ قال: أنا يسوع الذي تضطهده. قال شاءول: ماذا تريد أن أفعل؟ قال يسوع: قم وكرز بالمسيحية.

ويقول لوقا في ختام هذه القصة جملة ذات بال غيرت وجه التاريخ هي:

" وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح أنه ابن الله " (أعمال ٩: ٣ – ٢٠).

وهكذا وضع بولس لنفسه سياجا يحتمي به لأنه كان يدرك أن معارضة قوية ستهب في وجهه وتنكر هذه المعتقدات الجديدة التي جاء بها، وهي القول بتعدد الآلهة وأن عيسى ابن الله نزل ليضحي بنفسه للتكفير عن خطيئة البشر، وأنه عاد مرة أخرن إلى السماء ليجلس على يمين أبيه فأعلن أنه تلقى المعتقدات الجديدة من عيسى مباشرة، وأنه الوحيد الذي أؤتمن عليها وفي ذلك

يقول: وأعرفكم أيها الأخوة، الإنجيل الذي بشرت به أنه ليس بحسب إنسان لأني لم أقبله من عند إنسان ولا علمته، بل بإعلان يسوع المسيح. (غلاطية ١: ١١ – ١٢)، ويقول كذلك إنه الوحيد الذي أؤتمن على المسيحية الصحيحة (تيطس ١: ٣) وعلى إنجيل مجد الله المبارك (تيموتاوس الأولى ١: ١١).

وقد عارضه الحواريون معارضة شديدة، وهبوا في وجهه يصارعونه في عناد طويل مرير، وحققوا عليه كل نصر، فانفض الناس من حوله تماما، ولم يبق معه إلا قلة قليلة جدا، وهو يقرر ذلك بقوله:

– أنت تعلم أن جميع الذين في آسيا ارتدوا عني (تيموتاوس الثانية ١: ١٥).

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

– بادر أن تجئ إلى سريعا لأن ديماس قد تركني إذ أحب العالم الحاضر وذهب إلى تالونيكي، وكريسكيس إلى غلاطية وتيطس إلى دلماطية، لوقا وحده معي، إسكندر النحاس أظهر لي شرورا كثيرة ليجازه الرب حسب أعماله، فاحتفظ منه أنت أيضا، لأنه قارم أقوالنا جدا، في احتجاجي الأول لم يحضر أحد مني، بل الجميع تركوني (تيموتاوس الثانية ٤: ٩ – ١٦).

وراح بولس يهاجم معارضيه مهاجمة قاسية، ويصفهم بأنهم انحرفوا إلى كلام باطل، وأنهم يميلون للحقد وللحسد، ويتجهون للباطل والرياء والعلم الكاذب والمباحثات الغبية السخيفة... (تيموتاوس الأولى الأصحاح الأول والسادس).

ولم تجد أفكار بولس أرضا خصبة في آسيا، كما اقتبسنا من كلامه آنفا، فلما عبرت هذه الأفكار إلى أوربا وجدت هناك أرضا خصبة، فالتثليث ونزول الإله من السماء تضحية بنفسه وتكفيرا عن خطيئة البشر، وصعده إلى السماء مرة أخرى، كل هذا كان له جذور قديمة في الخرافات الأوربية، ولم يكن التوحيد عميق لجذور بأوربا.

ومر الزمن جيلا بعد جيل والمذهبان يعيشان، في آسيا تعيش المسيحية التي جاء بها عيسى ويعتنقها علماء المسيحية، وكثيرون سواهم، وفي أوربا تعيش آراء بولس، حتى جاء القرن الرابع الميلادي وجاء عهد قسطنطين الذي تسامح مع المسيحية من جانب، وأراد من جانب آخر أن يضع حدا لهذه الخلافات، وأن يتعرف على الحقيقة، فدعا لمؤتمر نيقية سنة ٣٢٥ وحضره جلة العلماء المسيحيين من كل البقاع ومعهم الأسانيد التي يستندون عليها في معتقداتهم، وكان عدد الحاضرين ٢٠٤٨، وقد اتضح من أول لحظة أن الجمهرة العظمى من الحاضرين تدين بالمسيحية الحقيقية وكان معهم من الأناجيل ما يعضد آراءهم، ولكن حاشية الإمبراطور وهي

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

أوربية لم تكن تعرف عن المسيحية إلا تلك المعلومات السائدة في أوربا والتي كانت من تراث بولس، ولذلك رأت هذه الحاشية أن اتجاه الجماهير من حاضري المؤتمر يتعارض مع الاتجاه الرسمي، ومع معلوماتهم عن المسيحية، وعدوا ذلك انحرافا، وأثاروا الإمبراطور، الذي تبنى رأي صديقه الممثل الديني للغرب، وهو كاهن روما، فأصدر الإمبراطور أمره بإخراج الرؤساء الروحانيين الموحدين، ونفي الكثيرين منهم، وقتل العالم المصري أريوس الذي كان يتخذ التوحيد عقيدة له، ثم أمر بعقد المؤتمر من الأعضاء الذين يتخذون مذهب بولس أو الخائفين والمترددين، وكان عددهم ٣١٨، واتخذ هؤلاء قرار بألوهية المسيح، وكان هذا أساسا للمعتقدات الأخرى التي قال بها بولس، واتخذ المؤتمر كذلك قرارا بتدمير كل الوثاق التي تخالف هذا الرأي، وإنزال العقوبات الشديدة لمن يخفي تلك الوثائق، وتبعا لذلك اختفت المسيحية الحقيقية رويدا رويدا واختفت الأناجيل الصحيحة، وحلت المسيحية البوليسية محل مسيحية عيسى. وهكذا صنع هؤلاء الإله وأخفوا إنجيل عيسى، والأناجيل الحقيقة التي أخذت عنه، ولم يبقوا من المصادر المسيحية إلا ما يؤيد اتجاههم أو ما يقف موقفا سلبيا. ولعل ذلك يوضح قصة التفكير المسيحي في قضية الألوهية.

الله في التفكير الإسلامي:

إن حديثنا عن " الله في التفكير المسيحي " تلخيص لدراسات واسعة، ولكنا لا نحتاج عندما نتحدث عن " الله في التفكير الإسلامي " إلى أي تلخيص لأن الموضوع واضح تما الوضوح ولذلك فنحن تحيل القارئ إلى كتاب " الإسلام " من هذه السلسلة ليرى دراسة واضحة حول وجود الله ووحدانيته وفاته، وليتأكد أن محاولات الانحراف في الإسلام باءت بالفشل.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com

نتيجة المقارنة:
إن المقارنة السابقة توضح حقيقتين مهمتين:
الحقيقة الأولى أن جهود الانحراف اتجهت بكل قواها وشرورها إلى الله سبحانه وتعالى، وحققت - للأسف - في هذا المجال ما أرادته من نجاح، والقارئ يرى اتجاه التعدد في الهندوسية وتأليه البقرة، ويرى كذلك تأليه جينا وتأليه بوذا وتأليه العجل وتأليه السيد المسيح، وقد اتجهت المحاولة كذلك للإسلام فقال قوم من مدعي التشيع بتأليه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ولكن هذه المحاولة لم تنجح وحاربها علي نفسه (١)، وحاربها بعده كل المسلمين، فنجا الإسلام وحده من محاولات التحريف في عقيدة الألوهية.
الحقيقة الثانية: أن الانحراف بالأديان هو الذي سبب الصراع بين معتنقيها، ولو سارت الأديان سيرها الطبيعي كرسالات من عند الله دون تحريف لالتقت جميعا في أهدافها وفي كثير من وسائلها.
إن الدعوة التي نادى بها هي أن نعود للحق، وأن نخلص معتقدات البشرية مما تسرب لها من أخطاء وما قادها للانحراف، ليحل الوفاء محل الخلاف، والوئام محل الصراع، ونحن نعتقد أن العقيدة الصحيحة معروفة لكثيرين من قادة الأديان، ولكن الاحتراف وحب الدنيا وزينتها يزينان الباطل ويدفعان لتأييد الانحراف.
فاللهم اهدنا سواء السبيل

---

(١) أنظر هذه المسألة في " أديان الهند " ص ٦٨ - ٦٩.

http://www.ShiaOnlineLibrary.com